

أوسكار وايلد
صورة دوريان جراي

الفصل الأول

كان عبير الورود يملأ استديو الرسّام. وحين هبّ نسيم الصيف بين أشجار الحديقة، نفذ من الباب المفتوح عطر لعله عطر الليلج النفاذ أو عطر النسرين المنعش.

وفي ركن الأريكة المكسوة بالطنافس العجمية اتكأ اللورد هنري وتون مدخناً كعادته بلا انقطاع. وكان من متكئته يلمح بريق الأزهار المنتشرة على شجرة النحل في صعوبة، فتبدو له صفراء وحلوة كالشهد، والشجرة تهتز أغصانها كأنها لا تقوى على حمل كل ذلك الجمال المكدّس فوقها، فيهتز معها الوهج الذهبي. وعلى الستائر الحريرية الخشنة، الممتدة بطول النافذة العالية، كانت ترتمي بين الفينة والفينة ظلال عجيبة هي ظلال طيور عابرة، فتخلق في الغرفة جواً يابانياً لا يلبث أن ينجلي. ويستعرض اللورد هنري في خياله رسّامي طوكيو ذوي الوجوه الشاحبة فيذكر كيف يسعى أولئك الرسّامون إلى التعبير عن معاني السرعة والحركة بفنهم التقليدي الجامد. كل ذلك والنحل يطن طنيناً مقبضاً وهو يتلمس طريقه بين الحشائش التي لم تشدّب، أو يحوم في إلحاح حول كؤوس اللبلاب الذهبية التي تسلقت جدران الحديقة كأنها تبغي الفرار منها. فازداد السكون بطينته وحشة وامتلاً الجو ضيقاً. أما عجيج لندن فقد كان خافتاً مكظوماً كأنه صوت أرغن مكتوم بعيد.

وكان في وسط الغرفة حامل مستقيم نُبِّت عليه صورة بالحجم الطبيعي لشاب لا حدَّ لجماله، وقد جلس أمامها الرسَّام نفسه، بازيل هولوردد، وأخذ يتأملها على بعدٍ قليل - أجل. هذا هو بازيل هولوردد الذي أثار اختفاؤه الفجائي منذ بضعة سنوات فضول الخاص والعام وظنَّ الناس في تاويل احتجابه أعجب الظنون.

وفيما كان الرسَّام يتأمَّل الصورة الساحرة التي أبدعتها ريشته في دقة ومهارة، شاعت في محيَّاه ابتسامة الرضا، ثم استقرت الابتسامة على شفثيه. ولكنه نهض فجأة ووضع أصابعه على جفنيه كأنه يريد بذلك أن يحبس في مخيلته حلماً عجيَّباً خشي أن يزول.

قال اللورد هنري في تراخ:

- هذه أبداع صورة رسمتها يا بازيل بلا جدال، ولا بد أن ترسلها إلى معرض جروفنور في الموسم القادم. إن معرض الأكاديمية لا يليق لها فهو واسع ومبتذل، وفي كل مرة دخلته وجدته مكتظاً بالزائرين مما حجب عني الصور، أو مكتظاً بالصور مما شغلني عن رؤية الزائرين. لا شك في أن معرض الجروفنور هو أنسب معرض لك.

فأجاب بازيل وهو يرفع رأسه إلى الورااء بتلك الطريقة الغريبة التي كانت تضحك زملاءه منه أيام الطلب في أكسفورد:

- لست أظن أنني سأعرضها في مكان ما. بل هذا مؤكد. لن أعرضها في أي مكان.

ورفع اللورد هنري حاجبيه ونظر إليه عاجباً بين ذؤابات الدخان الأزرق الخفيف الذي تصاعد من سيجارته، المخلوطة بالأفيون، في أشكال لولبية متداخلة جميلة، ثم قال:

- أتقول إنك لن تعرضها في أي مكان؟ وكيف ذلك يا صديقي العزيز؟ ما السبب؟ ما أعجب أطواركم معشر الرسَّامين! أنتم تقبلون الدنيا رأساً على عقب لكي تصيبوا شيئاً من الشهرة، فإن أصبتموها بدا أنكم زاهدون

فيها. هذه غباوة منك يا بازيل، فهناك شيء واحد أسوأ من أن تكون موضع حديث الناس، وهو ألا تكون موضع حديثهم. وهذه الصورة خليقة بأن ترفعك على شباب الفنانين في إنجلترا وأن تملأ قلوب شيوخهم غيرة منك، إن كانت للشيوخ قلوب.

أجاب الرسّام:

- أعلم أنك ستسخر مني، ولكنني في الواقع لا أستطيع عرضها لأنني وضعت فيها من نفسي أكثر مما ينبغي لرسّام أن يضع في صورة. وتمدّد اللورد هنري على الأريكة واسترسل في ضحك طويل. فأضاف الرسّام:

- نعم، هذا ما كنت أتوقعه منك، ولكنني ما قلت إلا الحقيقة.

- أنت تقول إنك وضعت فيها من نفسك أكثر مما ينبغي، وهذا غرور منك عظيم. أقسم لك يا بازيل أنني ما كنت أحسبك مخدوعاً في نفسك إلى هذا الحد. فأنت يا ذا الوجه الضخم الخشن والشعر الأسود الفاحم كيف تشبّه نفسك بهذا الفتى الذي يحاكي أدونيس جمالاً ويبدو كتمثال مخروط من عاج كسته أوراق الورد؟ يا صديقي بازيل إن صاحبك هذا هو الإله نرسييس قلباً وقالباً. أما أنت فلست أنكر أن لك مخايل المفكرين وما إلى ذلك كله. ولكن الجمال الحقيقي يختفي حين تظهر مخايل الذكاء. والذكاء نفسه إسراف من الطبيعة، والإسراف يفسد التناسب في أي وجه. فالمرء إذا ما بدأ يفكر تحوّل وجهه إلى جبهة كبيرة أو أنف كبير أو أي شيء من هذا القبيل. استعرض سائر النابهين في أي مهنة من مهن الفكر ترى صورهم نماذج في البشاعة ليس لها مثيل. ولقد يُستثنى من ذلك رجال الكنيسة، ولكن هذا طبيعي فرجال الكنيسة لا يفكرون البتة؛ والأسقف يردّد وهو في الثمانين ما لُقن أن يقوله وهو في الثامنة عشرة، ولذلك تراه يحتفظ بجماله إلى آخر يوم من أيام حياته. إن صديقك الشاب هذا الذي تبخل عليّ باسمه وتحيطه بهالة من الغموض قد سحرتني صورته. وأؤكد

لك أن صديقك هذا لا يفكر بتاتا. يا له من مخلوق جميل لا عقل له! وما أخلقه بأن يقضي معنا الشتاء ليغنينا مرآه عن الزهور الغائبة، وما أخلقه بأن يقضي معنا الصيف لنجد فيه ما يطفئ ذكاءنا! كلا يا بازيل. لا تخدع نفسك فما فيه منك شيء.

ردّ الفنان قائلاً:

- لقد أسأت فهمي يا هاري، فأنا أعلم أنني لا أشبهه، ولست بحاجة إلى من يدلني على ذلك، ولو قُدِّر لي أن أكون مثله لساءني ذلك. أراك تهز كتفيك استخفافاً، ولكنني صادق في قلبي. إن القدر يكيد لأصحاب الذكاء النابغ والجمال النابغ ويتعقبهم كما يتعقب الملوك منذ فجر التاريخ من دون إشفاق. ولخير لنا أن نكون من طينة العامة، فالأغبياء وديمومو الخلقه أسعد أهل الأرض طراً، لأن في وسعهم أن يجلسوا في اطمئنان ويحملقوا كالبلهاء من أماكنهم في موكب الحياة الحافل. فإن فاتهم النصر فقد كُفِّوا مرارة الهزيمة. هم يعيشون كما ينبغي أن نعيش جميعاً، يعيشون في صفاء، لا يبالون بشيء، آمنين مطمئنين، لا يفسدون حياة أحد ولا يفسد أحد حياتهم. أما نحن فندفع ثمن التفوق غالباً: أنت تدفع ثمن جاهك وحسبك، وأنا أدفع ثمن ذكائي وفني، أيا كان قدرهما، ودوريان جراي يدفع ثمن جماله وشبابه. نعم يا هاري، لسوف ندفع ثمن ما حَبَّبنا به الآلهة من نعم، ولسوف نتعذب عذاباً أليماً.

فسار اللورد هنري نحو بازيل هولورود وسأله قائلاً:

- دوريان جراي، أهذا اسمه؟

- نعم، هذا اسمه، وما كان في نيتي أن أبوح لك به.

- ولم تريد إخفائه عني؟

- لست أعرف كيف أشرح لك الأمر. ولكنني إذا أحببت أحداً من أعماق قلبي كتمت عن الناس اسمه، لأن في إعلانه شيئاً من الخيانة. ولقد تعلمت الولع بالأسرار، ويبدو لي أن الأسرار هي كل ما بقي لنا في

هذا العصر مما يملأ الحياة غرابة وغموضًا. فأنفه الأمور يثير فضولنا إن هو حُجب عنا، ولذلك تجدني لا أطلع أحدًا على وجهتي كلما غادرت لندن في هذه الأيام، فأن فعلت فقدت كل شيء في رحلتي. أعترف لك بأنها عادة سيئة ولكنها تُدخِلُ على الحياة شيئًا من سحر الخيال. وأظنك تحسبني مخبولًا لكلفني بالأسرار.

فأجابه اللورد هنري قائلاً:

- كلا يا صديقي بازيل. ولعلك نسيت أنني متزوج وأن اللذة الوحيدة في الزواج هي أنه يجعل حياة الغش لازمة للطرفين. فأنا لا أعلم أين تذهب زوجتي، وزوجتي لا تعلم شيئًا عمّا أفعل. ولقد نتقابل، فنحن نلتقي فعلا بين وقت وآخر حين نتعشى معًا خارج المنزل أو حين نذهب معًا لزيارة أبيها الدوق، فإذا تقابلنا قصّ كل منا على الآخر أسخف الأكاذيب متكلفًا الجد الكامل. وزوجتي قد برزت في هذا الفن، بل هي أطول مني فيه باعًا، فليس يبدو عليها أقل ارتباك عند ذكر التواريخ كما يبدو عليّ دائمًا. فإن تبيّنت تناقض أقوالي لم تثر بتاتا، وباليته تثور. هي تكتفي بالضحك هازئة مني.

قال بازيل هولورود وهو يسير نحو الباب المؤدي إلى الحديقة:
- لست أحب أسلوبك هذا في الكلام عن حياتك الزوجية يا هاري. وأنا أعتقد أنك زوج فاضل ولكنك تخجل من فضائلك. عجبًا لك يا رجل. ما سمعتك تقول كلمة طيبة وما رأيتك تفعل شيئًا شريراً. إن سخريتك بكل شيء إن هي إلا موقف تصطنعه اصطناعًا.

فعلّق اللورد هنري على هذا بقوله:

- إن أردت أن تبدو طبيعيًا فلا بد لك من التكلف، وأشق أنواع التكلف عندي هو التكلف الذي ألتمه لأبدو طبيعيًا.

وخرج الرجلان معًا إلى الحديقة، وهناك جلسا على مقعد من الخيزران طويل في ظل شجرة من أشجار الغار. وانصبت أشعة الشمس

على الأوراق الملساء وبين الحشائش اهتزت الأقاحي البيضاء.
وبعد صمت قليل أخرج اللورد هنري ساعته من جيبه وقال:
- يجب أن أنصرف الآن يا بازيل، ولكن لا بد أن تجيبي قبل انصرافي
على سؤال طرحته عليك منذ هنيهة.
فأجاب الرسّام مطرقاً:
- أي سؤال هذا؟
- لا تتجاهل تجاهل العارف.
- لست أفهم ما تريد.
- إذًا فهذا هو السؤال للمرة الثانية: أريدك أن تفسّر لي امتناعك عن
عرض صورة دوريان جراي. إليّ بالسبب الحقيقي.
- لقد ذكرت لك السبب الحقيقي.
- كلا. إنما ذكرت أنك وضعت في الصورة من نفسك أكثر مما ينبغي
وهذا تعليل صياني.
فنظر بازيل إلى اللورد هنري نظرة ثابتة وقال:
- اصغ إليّ يا هاري. إن كل صورة ترسم بإحساس قوي هي صورة
الفنان وليست صورة نموذج. فالنموذج شيء عارض لا أكثر ولا أقل،
أو هو المناسبة فقط. و الرسّام لا يكشف عن شخصية نموذج في الصورة
التي يرسمها وإنما يكشف عن شخصيته هو. ولقد كشفت أنا في هذه
الصورة عن سرّ روحي، ولهذا لن أستطيع عرضها.
فضحك اللورد هنري وسأله قائلاً:
- ترى ما يكون هذا السرّ؟
- سأطلعك عليه.
فقال صاحبه وهو يتأمل ملياً:
- هات ما عندك، فكلي آذان صاغية.
قال الرسّام:

- ليس في الأمر تعقيد كما تظن يا هاري، وأخشى أن يتعذر عليك فهم ما سأقول أو أن تشك في صدق كلامي.

وابتسم اللورد هنري ثم مال وقطف أقحوانة من بين الأعشاب أوراها وردية وأخذ يتفحصها ثم قال متأملاً قلبها الذهبي الصغير الذي نمت حوله نطف بيضاء:

- بل سأفهم كل ما تقول تمامًا. أما عن الشك فأنا أصدّق كل ما يُقال لي ما دام شيئاً غير معقول.

وهبّت نفحة من النسيم فتساقطت بعض الأزهار عن أشجارها، وأخذت أزهار السوسن تتأرجح ذات اليمين وذات الشمال في الهواء الراكد كأنها جمهرة من النجوم. وغنى جندب بجوار الحائط، ثم مرّ بالحائط طيور⁽¹⁾ طويل نحيل ذو أجنحة بنية شفافة فبدا كالخيوط الأزرق. وخيل إلى اللورد هنري أنه يسمع قلب بازيل هولورود يخفق خفقاناً، فعجب لحاله أشد العجب.

قال الرّسام أخيراً:

- إليك القصة يا هاري. منذ شهرين قصدت إلى دار الليدي براندون لقضاء السهرة، ولا يخفى عليك أننا، معشر الفنانين المساكين، مطالبون بالظهور في المجتمعات بين وقت وآخر لتثبّت للناس أننا لسنا قومًا متوحشين. وأنت القائل إن أي شخص يستطيع في عصرنا أن يبدو رجلًا متحضراً إذا كان يملك زي السهرة الأبيض. حتى السمسار يستطيع أن يفعل ذلك. ولا أطيل عليك القول، فقد مرّت بي عشر دقائق قضيتها في الصالون متنقلاً بين سيدات هرماط ضخام مثقلات بالملابس الفاخرة، متحدّثاً إلى فريق من أعضاء الأكاديمية التافهين الثقلاء. ثم تنبّهت فجأة

(1) الطيور هو اليعسوب، حشرة تنتمي إلى رتبة اليعسوبيات، تتميز بجسد طويل ممدود وزوجين من الأجنحة الشفافة وعينين كبيرتين. بالانجليزية Dragonfly.

إلى فتى يطيل التأمل فيّ، واستدرت قليلاً فرأيت دوريان جراي. رأيتَه للمرة الأولى. وعندما تلاقى نظراتنا أحسست بالدم يغيض من وجهي، وتملكني فزع عجيب، وأيقنت أنني أمام إنسان ذي شخصية ساحرة مدمّرة، فلو أنني تركت الأمور تجري مجراها العادي لاستغرقت روحه روحي ولأفنت نفسه نفسي ولسيطر على فني ومواهبي. ولم أكن وقتئذ لأرضى بأي تأثير خارجي يتحكّم في حياتي، وقد كنت دائماً سيّد نفسي وأنت تعرف نزعتي الاستقلالية يا هاري، فعزمت على تجاهله. ثم هتف بي هاتف لا أعرف مصدره يقول إن حياتي تجتاز أزمة هائلة وأحسست بأن القدر يخبّي لي أفرارًا لا حد لها، وأترارًا لا حد لها، فجزعت أشد الجزع وهممت بالإنصراف جبنًا وإشفاقًا لا بوازع من ضميري، فلا فضل لي في ذلك.

- الجبن والضمير إسمان لمدلول واحد يا بازيل. وكل ما هنالك أن الضمير هو الاسم الرسمي، الماركة المسجلة على حد قولهم.
- أنا أخالفك في هذا يا هاري، ولا أخالك تعتقد في ما تقول. ولعل الدافع كان الكبرياء، فلقد كنت فيما مضى شديد الكبرياء. ولكن أيًا كان الدافع فقد رأيتني أقتحم الباب، وعند الباب اصطدمت طبعًا بالليدي براندون فصاحت بي قائلة: «لن أسمح لك بالانصراف بهذه السرعة يا مستر هولوورد» وأنت بلا شك تعرف نبرتها الحادة الشاذة.

قال اللورد الشاب وهو يمزق زهرة اللؤلؤ بأنامله العصبية ورقة ورقة: - نعم، فهي تشبه الطاووس في كل شيء سوى الجمال.
- وهكذا لم أستطع التخلص منها، فقدمتني إلى بعض أفراد الأسرة المالكة، وإلى أشخاص زيّنت أكتافهم النجوم واختالوا تيهًا بوسام ربطة الساق، وإلى سيدات عجائز على رؤوسهن تيجان عالية مديبات الأنوف لا يختلفن كثيرًا عن البيغاوات. وسمعتها تتحدّث إلى هؤلاء عني كأني صديق من أعز أصدقائها ورأيتها تمنعني في التعظيم من شأنني رغم أنني لم

أرها قبل ذلك إلا مرة واحدة. ولعل السبب في ذلك صورة من صوري أصابت وقتئذ نجاحًا عظيمًا وأطنبت في تقريرها الصحف اليومية، وأنت تعلم أن الصحف اليومية هي عند أهل القرن التاسع عشر سجل الخلود، وفجأة وجدتني مرة أخرى أمام الشاب الذي اضطربت نفسي لمرآه كل هذا الاضطراب. واقترب كل منا من الآخر حتى كدنا أن نلتصق، والتقت نظراتنا ثانية، فلم يسعني إلا أن أطلب إلى الليدي براندون أن تتولى تقديمنا، ولو لم تفعل لتبادلنا الحديث دون تعريف سابق. ومن هذا ترى أن موقفي لم ينطو على الجرأة كما تصورت أنا في تلك اللحظة، لأن الظروف ألزمتني به إلزامًا. وقد قال لي دوريان فيما بعد إنه أحس إحساسي، وزعم أن المقادير هي التي دبرت لنا هذا التعارف.

فسأله صاحبه قائلاً:

- وماذا قالت الليدي براندون عن هذا الشاب العجيب؟ إنها مولعة بذكر لمحة خاطفة عن ضيوفها كلما قدمت أحدهم إلى الآخر، وأذكر أنها قدمتي مرة إلى نبيل من النبلاء أحمر الوجه نافر الطبع غطت صدره الأوسمة والنياشين، وبعد أن قدمتي إليه همست في أذني بلهجة موثرة تفصيلات مدهشة سمعها ولا شك كل من بالقاعة. فأثرت الانسحاب لأنني أحب أن أستكشف الناس بنفسي. ولكن الليدي براندون تعامل مدعويها كما يعامل الخبير المثلث السلع المعروضة في المزاد: فهي تارة تشرح لك كل ما يتعلق بهم حتى تزهد فيهم، وتارة تذكر لك كل شيء إلا ما تهملك معرفته.

قال هولورود بغير اهتمام:

- مسكينة الليدي براندون، ما أقسى حكمك عليها يا هاري!

- يا صديقي العزيز، إنها حاولت أن تنشئ صالونًا ففتحت مطعمًا، فمن أين يأتي إعجابي بها؟ ولكن ماذا روت لك عن دوريان جراي؟

- أشياء من قبيل: «ياله من فتى ساحر! لقد كنا أنا وأمه المسكينة

متلازمين أبدأ. ولست أذكر الآن ما عمله، ولكنني أعتقد أنه بلا عمل نعم، لقد تذكرت أنه يتقن البيانو... أم تراه يتقن الكمان؟ أهي الكمان يا مستر جراي؟» فلم نستطع أن نكتم الضحك، وفي الحال زالت الحواجز بيننا. قال اللورد الشاب وهو يقطف زهرة أخرى من أزهار اللؤلؤ:

- ليس الضحك بداية سيئة للصدقة بحال من الأحوال، وأعتقد أنه أحسن نهاية لها كذلك.

فهز هولوردد رأسه ثم قال:

- أنت لا تفهم معنى الصداقة يا هاري، بل لا تفهم معنى العداوة كذلك. أنت تستلطف كل الناس، ومعنى ذلك أنك لا تبالي بأحد. فقال اللورد هنري وقد دفع بقبعته إلى الوراى ونظر إلى السحب الخفيفة المتناثرة وهي تسبح في سماء الصيف الفيروزية كالخيوط الحريرية المغزولة البيضاء:

- ما أظلمك يا بازيل! نعم، أنت تسرف في ظلمي، فأنا أفرق تمامًا بين أنواع الناس: فأختار أصدقائي لجمالهم وزملائي لكرم أخلاقهم وأعدائي لذكائهم. ولا بد من الحذر الشديد في اختيار الأعداء، ولن تجد بين أعدائي عدوًا غيبًا واحدًا، فهم جميعًا من أهل الذكاء، ولذا تراهم يقدروني حق قدري. فهل هذا من مظاهر الغرور يا بازيل؟

- بالتأكيد يا هاري. ولكن إذا رجعت إلى تصنيفك للناس دخلت أنا في قائمة الزملاء.

- أنت يا صديقي بازيل أقرب عندي كثيرًا من مجرد زميل.
- وأبعد كثيرًا من صديق. أنا عندك في مرتبة الأخ كما أعتقد.
- لا تذكرني بالإخوة فأنا لا أحبهم إطلاقًا. فأخي البكر لا يريد أن يموت، وإخوتي الصغار أراهم دائمًا مشرفين على الموت.
فجلس هولوردد وزجره قائلاً:
- لا تقل مثل هذا الكلام يا هاري!

- أنا لا أعني ما أقول بالحرف الواحد يا صديقي، ولكنني أكره أقاربي بالرغم مني. ولعل السبب في ذلك هو أن الإنسان يسوءه أن يرى غيره يشاركه عيوبه. وأنا أعطف من كل قلبي على الكره الذي تبديه الديمقراطية الإنجليزية لما تسميه مساوئ الطبقة الراقية. فعامة الشعب تشعر بأن العريضة والغباوة والانحلال الخلقي امتيازات خاصة بها، وإذا اتصف أحدنا بنقيصة من هذه النقائص بدا أنه اعتدى على اختصاصات تلك الطبقة. فعندما تقدم سدرك المسكين إلى محكمة الطلاق غضبت العامة غضبة كبرى، ومع ذلك أنا أعتقد أن أصحاب الأخلاق الفاضلة بين أبناء الشعب لا يتجاوزون عشرة في المائة.

- لست أصدق كلمة واحدة مما تقول، ويخيل إليّ يا هاري أنك لا تقول ما تعتقد.

فأخذ اللورد هنري يداعب لحيته المدببة السمراء ويضرب حذاءه الرقيق بعصاه الأبنوسية المحلّاة بالأزرار، ثم قال:

- يالك من إنجليزي صميم! فهذه هي المرة الثانية التي تبدي فيها هذه الملاحظة. إن مجرد عرض فكرة من الأفكار على إنجليزي صميم لضرب من الحماسة. اعرض فكرة ما على إنجليزي صميم تجد أنه لا يحاول أن يزن صدقها أو خطأها، فكل ما يهمه منها هو مدى إيمان صاحب الفكرة بفكرته. أما أنا فأرى أن جمال الفكرة لا صلة له بأخلاص صاحبها. والواقع أنه كلما قل إيمان الإنسان بفكرته كانت أقرب إلى الصحة بوجه عام، لأنها تتجرد في هذه الحالة من ميوله الشخصية وأحكامه الموروثة وحاجاته في الحياة ولكنني لا أرغب الآن في أن أجادلك في الشؤون السياسية أو الاجتماعية أو الميتافيزيقية وإلا خسرت صداقتك، والأشخاص أفضل عندي من المبادئ، والأشخاص الذي تجرّدوا من المبادئ أفضل عندي من كل شيء في الحياة ولنعد إلى دوريان جراي. هل يتردّد عليك كثيرًا؟

- كل يوم، ويشقيني أن يمر يوم من دون أن أراه، فهو ضرورة من ضرورات حياتي.

- هذا غريب فقد حسبتك لا تهتم لشيء سوى فنك.

فأجاب الرسّام بلهجة جادة:

- إن دوريان جراي قد أصبح كل فني الآن. ويخيل إليّ أحياناً يا هاري أن تاريخ العالم ليس فيه إلا عصران لهما بعض الأهمية: العصر الأول هو العصر الذي ظهرت فيه أداة جديدة للتعبير الفني، والعصر الثاني هو العصر الذي ظهرت فيه شخصية جديدة أصبحت موضوعاً للفن. فاختراع الرسم بالزيت كان له من الأهمية عند أهل البندقية ما كان لوجه أنتينوس⁽¹⁾ في الفن اليوناني القديم. ودوريان جراي سيحدث في فني ثورة لا تقل خطراً عن هذين الانقلابين. وما ذلك لأنني أصوره أو أرسمه أو أنقل على اللوحة خطوطه وقسماته فقد ألفت ريشتي ذلك، ولكن لأنني لا أنظر إليه نظرتي إلى نموذج فحسب. ولست أقصد أنني غير مطمئن تمام الاطمئنان إلى الصور التي نقلتها عنه، أو أن جماله يستعصي على الفن، فالفن لا يستعصي عليه شيء. وأنا أعرف أن إنتاجي قد تقدم منذ أن عرفت دوريان جراي، بل دخل عليه إتقان لم يكن من خصائصي أولاً. ولست أدري إن كنت تفهم معنى هذا الكلام أم لا، ولكن شخصيته قد ألهمتني أسلوباً في الفن جديداً لا أعلم كيف جاءني. فأصبحت أرى الأشياء وأفكر فيها بطريقة مختلفة عن طريقتي الأولى، بل أصبحت أستطيع أن أصوغ الحياة كلها صوغاً جديداً على نسق لم ألقه من قبل. أتذكر من القائل: «أيامي تأمل ولكني أحلم بالجمال»؟ لقد نسيت الآن، ولكن هذا مقام دوريان جراي عندي. ولقد جاوز العشرين ربيعاً ولكنه ما زال في نظري صبيّاً

(1) أنتينوس: شاب يوناني (111-130 م) وُلد في بيشنيا وانتقل إلى إيطاليا كي يتعلّم تعليماً راقياً، كان مفضلاً للإمبراطور أدریان ورافقه في رحلات واحتفالات دينية عديدة، مات أثناء رحلة في النيل، قيل إنه غرق وقيل إنه قد ضحى به. تم تأليه بعد موته.

غض الإهاب. ليتك تفهم معنى هذا الكلام يا هاري! إن رؤية هذا الصبي حين يخطر أمامي تلهمني دون وعي مني بأسس مذهب جديد، وأحس بهذه الأسس إحساسًا واضحًا فتلهمني بأسلوب جديد اجتمع فيه خيال المدرسة الرومانسية وسمو الروح اليوناني، أسلوب يقوم على انسجام الروح والجسد! فياله من حلم جميل! ها نحن بحماقتنا قد فصلنا الروح عن الجسد، واستحدثنا منهما فنًا مثاليًا خاويًا من كل مغزى وفنًا واقعيًا مبتدلاً. فيا ليتك تعرف موقع دوريان جراي عندي يا هاري! أنت لا شك تذكر ذلك المنظر الطبيعي الذي رفضت أن أنزل عنه لأنني رغم عروضة السخية، فهو من أبدع ما رسمت. أو تعرف لم ضننت به عليه؟ لأن دوريان جراي كان يجلس إلى جواربي ساعة أن رسمته فطاف بي وحي منه لطيف خرج من شخصيته فغمرنني، فكشفت للمرة الأولى في حياتي عن ذلك السحر الذي كنت أنشده دون أن أدرك معناه، وعبرت عن كل ذلك في اللوحة.

- يا للعجب! لا بد أن أرى دوريان جراي يا بازيل.

ونفض هولوردد من المقعد وأخذ يسير في الحديقة جيئةً وذهوبًا، وبعد برهة عاد إلى مكانه وقال:

- إن دوريان جراي عندي محض دافع يدفعني إلى الخلق الفني يا هاري، فلن تر فيه شيئًا عجيبًا، أما أنا فأرى فيه كل شيء، وإذا ما غاب عني ظهر في فني أكثر مما وهو قريب. فهو كما ذكرت لك ملهمي بأسلوب جديد، وأنا أعثر عليه في بعض الخطوط الدقيقة وأعثر عليه في بعض الألوان الحلوة هذا كل ما في الأمر.

فسأله اللورد هنري قائلاً:

- إذا كان الأمر كذلك فلم تمتنع عن عرض صورته؟

- لأنني وضعت فيها دون قصد مني ما يعبر عن هذه الوثنية الفنية الشاذة، وهو لا يعرف عنها شيئًا بطبيعة الحال. هو لا يعرف عنها شيئًا

ولن يعرف عنها شيئاً، ولكن الناس قد يفتنون إليها، ولست أحب أن تقف روعي عارية أمام أنظار المتطفلين الأغبياء. كلا يا هاري لن أضع قلبي تحت أنظار السوق ليقروا أسرارهم، فلقد وضعت في الصورة من نفسي أكثر مما ينبغي. أجل، يا هاري، أكثر مما ينبغي.

- أرى الشعراء أقل منك وسوسة، فهم يعرفون فائدة العاطفة في سوق النشر. وفي عصرنا هذا نجد أن القلب الممزق يعاد طبعه مرارًا وتكرارًا. فقال هولورود:

- وهذا ما يثير حفيظتي على الشعراء. إذ واجب الفنان أن يصنع الأشياء الجميلة، ولكن حرام عليه أن يودع فيها شيئاً من نفسه. ففي هذا العصر ينظر الناس إلى الفن نظرهم إلى المذكرات التي يدونها الكتاب عن حياتهم الشخصية. نعم، لقد فقدنا القدرة على فهم الجمال المجرد، ولسوف أكتشف للعالم يوماً ما عن سر هذا الجمال المجرد. ولهذا السبب عينه لن يرى العالم الصورة التي رسمتها لدوريان جراي مهما كلفني ذلك.

- أعتقد أنك مخطئ يا بازيل، ولكني لن أجادل في رأيك، فالجدل هوية السفهاء. قل لي: أيجبك دوريان جراي؟
ظل الرسّام يفكر لحظات ثم أجاب:

- أجل يجبني. أعرف أنه يجبني، والأمر مفهوم لأنني أتملّقه، وتتملكني لذة عجيبة عندما أقول له أشياء أعرف أنني سأندم على قولها. وهو في العادة شديد التلطف معي، فنحن نقضي الوقت الطويل في الاستديو ونحدّث في ألف موضوع وموضوع. ومن وقت إلى آخر يتتابه طيش بغيض فأراه يجد متعة حقيقية في الإساءة إليّ، وعندئذ أشعر يا هاري بأني قد أسلمت روعي إلى مخلوق ينظر إليّ نظرة إلى زهرة توضع في عروة سترته ويرى في فني مجرد حلية تُرضي غروره أو زينة تكمل جمال اليوم الصائف الصبوح.

قال اللورد هنري:

- إن أيام الصيف طويلة، وربما سئمت منه قبل أن يسأم منك، ولا جدال في أن العبقرية أطول أجلاً من الجمال وهذه أفضع مأساة في حياتنا الإنسانية. ولذا ترانا نتكالب على تثقيف أنفسنا، وفي تنازعنا الوحشي للبقاء نبحث عن ذخيرة باقية. ولذا ترانا نحشو أدمغتنا بالحقائق والترهات على السواء كيلا نفقد أمكنتنا في الحياة، وهي غاية سخيفة. إن المثل الأعلى في عصرنا هو الرجل الذي يعرف كل شيء، وجمجمة الرجل الذي يعرف كل شيء صندوق مزعج، بل هي حانوت من حوانيت العاديات اكتظ بالوحوش الأثرية وأكداس التراب، ولن تجد فيه سلعة لم يبالغ في تقدير ثمنها. ما زلت أظن يا بازيل أنك ستسأم منه قبل أن يسأم هو منك. ولسوف يأتي يوم تنظر فيه إلى صاحبك هذا فتبين أنه قد صار نموذجاً عتيقاً لا يصلح للرسم أو يضايقك توزيع الألوان فيه، أو أي شيء من هذا القبيل، وعندئذ تقسو في حكمك عليه وتظلمه في قرارة نفسك وتحس إحساساً عميقاً بأنه قد غدر بك، فتتطفئ حرارتك تماماً وتصبح كبركان خامد، وهذا شيء يؤسف له لأنك ستبدل من حال إلى حال. إن القصة العنيفة التي رويتها عليك لهي قصة الفن إن صح هذا التعبير. وأفزع ما في الخيال أنك تستفيق منه على الحقيقة المرة.

- كفأك ما قلته يا هاري، فلسوف تظل شخصية دوريان جراي مسيطرة عليّ ما دمت حيّاً. ولن يُتاح لمثلك أن يقدر إحساسي لأنك متقلب الطبع. - بل إن طبعي المتقلب هذا يا صديقي بازيل هو ما يجعلني أقدر إحساسك، فالمخلصون لا يعرفون من الحب إلا جانبه التافه، أما المنقلبون فيذوقون علقمه.

ثم أشعل اللورد هنري عود ثقاب بحكّه في علبة فضية جميلة وأخذ يدخن سيجاره هادئ البال راضياً عن نفسه وكأنه لخص فلسفة الحياة في جملة واحدة. واجتكت باللبلاب القاتم الخضرة سرب من الشحارير

فَسَمِعَ لَهُ حَفِيفٌ، وَزَقَزَقَتِ الْعَصَافِيرُ، وَكَانَتْ ظِلَالُ الْغَيْومِ يَطَارِدُ أَحَدَهَا
الْآخَرَ فَوْقَ الْحَشَائِشِ كَأَنَّهَا تَتَسَابَقُ فِي الْحَدِيقَةِ. وَالْحَدِيقَةُ! مَا كَانَ أَجْمَلَ
الْحَدِيقَةَ! كَذَلِكَ بَدَتْ لَهُ عَوَاطِفُ النَّاسِ جَمِيلَةً. أَجَلَ. فَتَنَّتْهُ عَوَاطِفُ
النَّاسِ أَكْثَرَ مِمَّا فَتَنَّتْهُ أَفْكَارُهُمْ. وَبَحِثَ عَنِ سِحْرِ الْحَيَاةِ وَمَصْدَرِهِ فَوَجَدَ
أَنَّهُ يَنْبَشِقُ مِنْ رُوحِ الْإِنْسَانِ وَمِنْ عَوَاطِفِ أَحِبَائِهِ. ثُمَّ أَخَذَ اللَّوْرِدَ هَنْرِي
يَتَخِيلُ الْعَدَاءَ الْمَمْلُوعَ الَّذِي فَاتَهُ فِي بَيْتِ عَمَّتِهِ بِبَقَائِهِ كُلِّ هَذَا الْوَقْتِ مَعَ
بَازِيلِ هَوْلُوْرِدٍ فَاعْتَبَطَتْ نَفْسَهُ، فَلَوْ قَدْ ذَهَبَ إِلَى بَيْتِ عَمَّتِهِ لَوَجَدَ عِنْدَهَا
اللُّورِدَ جُودِبُودِي لَا مُحَالَةَ، وَلِدَارَ الْحَدِيثِ كُلِّهِ حَوْلَ الْفُقَرَاءِ وَإِطْعَامِهِمْ،
وَحَوْلَ ضَرُورَةِ الْبَدْءِ فِي بِنَاءِ الْبُيُوتِ النَّمُودَجِيَّةِ. أَجَلَ لَوْ أَنَّهُ ذَهَبَ إِلَى
بَيْتِ عَمَّتِهِ لَسَمِعَ الْأَغْنِيَاءَ يَتَحَدَّثُونَ فِي مَزَايَا الْاِقْتِصَادِ وَلَسَمِعَ الْكَسَالِيَّ
يَتَحَدَّثُونَ فِي شَرَفِ الْعَمَلِ بِبِلَاغَةٍ قَصُورَى. فَمَا أَسْعَدَهُ بِتَجَنُّبِ هَذَا الْجُورِ
الْخَائِقِ! وَفِيمَا هُوَ يَفْكَرُ فِي عَمَّتِهِ جَالَ بِرَأْسِهِ خَاطِرَ فَقَالَ:

- لَقَدْ تَذَكَّرْتُ الْآنَ يَا بَازِيلَ.

- وَمَاذَا تَذَكَّرْتَ يَا هَارِي؟

- تَذَكَّرْتُ الْمَكَانَ الَّذِي سَمِعْتَ فِيهِ اسْمَ دُورِيَانَ جَرَايَ.

فَعَبَسَ الرَّسَامُ قَلِيلًا وَقَالَ:

- وَأَيْنَ كَانَ ذَلِكَ؟

- لَا تَعْبَسْ يَا بَازِيلَ كَأَنَّ فِي الْأَمْرِ شَرًّا. لَقَدْ سَمِعْتَ اسْمَ دُورِيَانَ جَرَايَ

فِي بَيْتِ عَمَّتِي اللَّيْدِي أَجَاثًا. وَقَدْ قَالَتْ لِي عَمَّتِي إِنَّهَا عَثَرَتْ عَلَى شَابٍ
يُسَاعِدُهَا فِي أَعْمَالِهَا الْخَيْرِيَّةِ الَّتِي تَقُومُ بِهَا فِي حَيَاةِ الْإِسْتِئْنَادِ، وَاسْمُ
هَذَا الشَّابِّ دُورِيَانَ جَرَايَ، وَيَجْدُرُ بِي أَنْ أَقُولَ إِنَّهَا لَمْ تَتَحَدَّثْ قَطُّ عَنِ
جَمَالِ هَذَا الْفَتَى، وَهَذَا طَبِيعِي، فَالنِّسَاءُ لَا يَتَذَوَّقْنَ الْجَمَالَ، أَوْ عَلَى الْأَقْلَى
الصَّالِحَاتِ مِنْهُنَّ لَا يَتَذَوَّقْنَ. وَقَدْ وَصَفْتَهُ لِي بِأَنَّهُ شَابٌّ جَادٌ خَيْرٌ النَّفْسِ،
فَتَخِيلْتُهُ رَجُلًا يَلْبَسُ نِظَارَةَ خَفِيفَ الشَّعْرِ ضَخْمَ الْقَدَمِينَ شَوَّهَتْ وَجْهَهُ
آثَارُ الْجَدْرِيِّ. فَلَيْتَنِي كُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّهُ صَدِيقُكَ الْمَلْهُمُ هَذَا.

- لو أنك عرفت لسأني ذلك يا هاري.

- ما السبب؟

- لأنني لا أحب أن تلتقي به؟

- أنت لا تحب أن ألتقي به؟

- نعم.

وخرج كبير الخدم إلى الحديقة وقال:

- إن مستر دوريان جراي في الاستديو يا سيدي.

فضحك اللورد هنري وقال:

- لا بد أن تقدمني إليه الآن يا بازيل.

والتفت الرّسام إلى الخادم فرأى عينيه تختلجان في ضوء الشمس.

قال:

- اطلب من مستر جراي أن ينتظرنني يا باركر، فلن أتأخر طويلاً.

فانحنى الرجل وانصرف. ثم نظر الرّسام إلى اللورد هنري وقال:

- اسمع يا هاري. إن دوريان جراي أعز صديق لي، وهو ساذج النفس

مطبوع على الخير، وقد أصابت عمّتك تمامًا فيما قالته عنه، فلا تفسده

ولا تحاول أن تؤثر فيه، فتأثيرك في الناس سيء. إن العالم أمامك رحيب

وبه آلاف من الناس يستحقون اهتمامك، فلا تحرمني من هذا الصديق

الواحد الذي أستوحي منه فني، واعلم أن مستقبلي كفنان متوقف عليه

دون سواه. فتذكر يا هاري أنني أثق بك.

وكان هولورود يتكلّم مكرهاً وببطء شديد كأن كل كلمة تخرج من

فمه تعصر فؤاده عصرًا. فاحتج اللورد هنري على كلامه وهو يبتسم،

وتأبط ذراه وسعى به إلى البيت كأنه يجره جرًا.

الفصل الثاني

رأى الرجلان دوريان جراي حين دخلا الاستديو، وكان جالسًا أمام البيانو يقلّب صحائف كراسة من «مناظر الغابة» للموسيقي شومان فلم يشاهدا وجهه. قال:

- ما أجمل هذه الصحائف يا بازيل! أحب أن أدرس هذه الكراسة، فهل تعيرني إياها؟

- نعم يا دوريان، سأعيرك إياها إذا أحسنت الجلوس أمامي فلم تتحرّك كثيرًا أثناء قيامي برسمك.

فدار الفتى على مقعد البيانو في ثبات وأجابه متحديًا:

- لقد سئمت الجلوس، وما أنا براغب في صورة بالحجم الطبيعي. ثم وقع بصره على اللورد هنري فارتبك قليلاً واحمرّت وجنتاه لحظة ونهض قائلاً:

- عفواً يا بازيل فقد كنت أظننا على انفراد.

- هذا يا دوريان هو اللورد هنري وتون، صديقي منذ أيام الطلب في أكسفورد. وقد كنت منذ دقيقة واحدة أصفك له بأنك خير من جلس أمام رسام، وها أنت قد أفسدت كل شيء.

فتقدّم اللورد هنري إلى الشاب باسطاً يده وقال:

- بل لا زلت سعيداً بلقائك يا مستر جراي. إن عمّتي تحدثني عنك

كثيراً، فانت أحد أصفياها، بل أخشى أن أقول إنك أحد ضحاياها كذلك.
وبدا على وجه دوريان جراي أسف ليس من طبعه وأجاب قائلاً:
- أنا في قائمتها السوداء في الوقت الحاضر، فقد وعدت عمك الليدي
أجاثا بأن أخرج معها إلى نادٍ بحري هويت تشابل ولكنني نسيت تمامًا.
وقد كان الغرض من هذه الرحلة أن نشترك في عزف بعض المقطوعات
الموسيقية. أما وقد أخلفت وعدي فلن أجد الشجاعة لزيارتها بعد الآن.
- سأصلح أنا بينكما، ولن أجد صعوبة في ذلك، فهي تحبك حباً جمّاً،
ولست أظن أن تخلفك قد أفسد شيئاً، فعمتي أجاثا حين تعزف على
البيانو تُحدث ضجة كبرى، ولا يبعد أن سامعها حسبوا أن هناك عازفين
لا عازفاً واحداً.

فقال دوريان ضاحكاً:

- هذه قسوة عليها وإهانة لي.

ونظر اللورد إليه ملياً. نعم. لا شك أنه كان آية في الجمال. فشفته
الحمراوان من خلق فنان دقيق، وعينه الزرقاوان الصافيتان وشعره
الذهبي المتموج من خلق فنان سخّي. وقد اجتمع له من صراحة الشباب
ممتهاها ومن طهارته أصفهاها ومن حرارته أقواها، فلا عجب أن مرآه كان
يوحى بالثقة في القلوب لحظة أن تقع عليه العيون، كأنه مخلوق نقي
صان نفسه عن دنس الدنيا. وزال عجب اللورد هنري من تفاني بازيل
هولوورد في الولاء له. وأخيراً قال:

- إنما يهتم بأمور الإحسان الثقلاء، وأنت يا مستر جراي شاب لطيف،
بل أنت مثال اللطف.

وبعد أن فرغ من كلماته ارتدى على الأريكة وأخرج سيجارة من علته.
أما الرسّام فقد كان منشغلاً بخلط ألوانه وإعداد أدواته. وكان القلق يبدو
عليه، فلما أن سمع عبارة اللورد هنري الأخيرة التفت إليه وقال بعد تردّد
قليل:

- لا بد أن أفرغ اليوم من رسم هذه الصورة يا هاري، وأرجو ألا تحسبني فظاً إذا طلبت إليك أن تتركنا.

فابتسم اللورد هنري ورمق دوريان جراي بنظرة ذات مغزى وقال:
- أنصرف يا مستر جراي.

- بل أرجو أن تبقى معنا، فبازيل اليوم منقبض النفس وأنا لا أحتمله حين يكون منقبض النفس. وفضلاً عن ذلك أنا أحب أن تشرح لي ما قلته من أن الاهتمام بالأعمال الخيرية لا يناسبني.

- لا أظن أنني سأحدثك عن الجمعيات الخيرية فهو موضوع جدّي ممل، ولكنني مع ذلك سأبقى معكما ما دمت قد طلبت مني ذلك. وأرجو يا بازيل ألا يكون في بقائي مضايقة كبيرة لك. ألم تقل مراراً إنك تحب أن يجد من ترسمهم جليساً يدفع عنهم الملل؟
فعض هولوردد شفتيه وأجاب قائلاً:

- إذا كان دوريان يحب أن تبقى معنا فلن يسعك إلا البقاء بطبيعة الحال، فرغبات دوريان أوامر لا تعصى عند جميع الناس ما خلا نفسه.
ولكن اللورد هنري تناول قبعته وقفازه وقال:

- أشكرك على إلحاحك عليّ في البقاء يا بازيل، ولكن لا بد لي من الانصراف، فأنا على موعد في نادي أوليانز. الوداع يا مستر جراي، واعلم أنه يسرني أن تزورني في شارع كيرزون في عصر يوم من الأيام، فأنا موجود دائماً في بيتي حوالي الساعة الخامسة إلا في الأحوال النادرة. أكتب لي بموعد زيارتك، وتذكر أنني سأحزن كثيراً إن لم أرك ثانية.
فصاح دوريان جراي قائلاً:

- اصغ إلى يا بازيل. إذا انصرف اللورد هنري انصرفت أنا كذلك، فأنت لا تنطق بكلمة حين ترسم، ولقد مللت الوقوف أمامك كل يوم متكلفاً الابتسام.

قال هولوردد وهو يرنو إلى الصورة في تفحص:

- أرجو أن تبقى يا هاري لترضي دوريان ولترضيني. إن ما قاله دوريان صحيح، فأنا لا أنطق بكلمة أثناء العمل ولا أستمع لكلام الغير، ولا بد أن ذلك يسبب أشدّ الضيق لمن أرسمهم. هلا أرجوك أن تبقى؟

- وهل أخلف ميعادي في نادي أوليانز؟

ضحك الرّسام وأجاب:

- هذه مسألة سهلة. عد إلى مكانك يا هاري، وأنت يا دوريان خذ مكانك على القاعدة ولا تصغ كثيرًا إلى كلام اللورد هنري فإن له تأثيرًا خبيثًا في جميع أصدقائه لم ينبج منه إلا أنا.

وسار دوريان جراي إلى القاعدة كأنه شهيد يسير إلى حتفه، وأخذ مكانه عليها، وزمجر امتعاضًا كأنه يشكو أمره إلى اللورد هنري الذي راق في نظره. ورأى دوريان أن اللورد هنري وبازيل طرفا نقيض. كم كان صوت اللورد هنري حلوا. وبعد لحظات كان دوريان جراي يسأل اللورد هنري قائلاً:

- هل صحيح ما يقوله بازيل عنك يا لورد هنري من أن لك تأثيرًا خبيثًا في الناس.

- التأثير الصالح لا وجود له يا مستر جراي، فكل تأثير يتنافى مع الأخلاق، أعنى إذا أردت أن تحكم حكمًا عمليًا.

- لست أفهم.

- إن تأثيرك في شخص ما معناه أنك تسبغ روحك عليه، مما يملأ رأسه بأفكار ليست أفكاره ويملاً قلبه بعواطف ليست في طبعه ويجعل من رذائله رذائل مستعارة من الغير، وبذلك يصبح صدى يردّد ترنيمة رجل آخر، أو ممثلًا يلعب دورًا لم يُكتَب له. إن غاية الحياة تقدم الذات وما خلق كل منا إلا لينمي ملكاته ويصون طبيعته على الوجه الأكمل. ولكن الناس في هذه الأيام يخافون من أنفسهم، وينسون أن واجب الإنسان الأول هو واجبه نحو نفسه، فتراهم يطعمون الجياع ويكسون

العراة وأرواحهم جائعة عارية. ولا بد من أحد أمرين، فإما أن شعبنا قد فقد شجاعته أو أن الشجاعة لم تكن من صفاته في يوم من الأيام فنحن عبيد الخوف: الخوف من المجتمع هو جوهر الأخلاق، والخوف من الله هو جوهر الدين. ومع ذلك...

كان الرّسام مستغرقاً في عمله فلم يتتبع الحديث، ولكنه لاحظ أن وجه دوريان جراي يسطع ببريق جديد لم يره من قبل. قال:
- أدر رأسك قليلاً يا دوريان.

قال اللورد هنري مستأنفاً حديثه بصوت خافت رخيم وهو يعبر عن قصده بيده كعادته منذ أن كان تلميذاً في كلية إيتون:

- ومع ذلك فاعتقادي أن الأيام لو قيضت لنا رجلاً واحداً يحيا حياته كاملة، فيصوّر كل إحساس يجيش في نفسه ويعبر عن كل فكرة تمر بخلده ويحقق كل حلم يداعب خياله، لعادت البهجة إلى الحياة مرة أخرى وانتشلتنا هذه الصراحة من كابوس القرون الوسطى الذي ما زلنا نشقى به. أجل. لو قيضت لنا الأيام مثل هذا الرجل لعدنا إلى المثل الأعلى في حضارة اليونان، حضارة هيلاس، بل لتجاوزنا اليونان وحضارتهم الخصبة الجميلة. ولكن أشجع رجل بيننا يرتعد أمام نفسه فرقاً. إن إنكار الذات الذي يفسد علينا الحياة لهو بقية أليمة من تراث الهمجية الأولى حين كان رجل الغاب يمزق جسده بيده، وها نحن ندفع ثمن زهدنا في الحياة، فكل نازع نكبته في نفوسنا يجثم في أفئدتنا ويسمّم فينا ينابيع الحياة. إن الجسد يخطئ مرة واحدة ثم تغسل عنه خطيئته، لأن التجربة تطهره، ولا يبقى بعدها إلا لذة الذكرى أو غصة الندم الجميل. ولا نجاة من الغواية إلا بالاستسلام لها. فإن قاومت الغواية ذبلت روحك من شوقها إلى المحظور، وما حظر المحظور إلا رياؤها، وبكت نهماً إلى الحرام، وما حرّم الحرام إلا بأسها وإشفاقها. يقولون إن الأحداث الكبرى تبدأ في عقل الإنسان، وأنا أقول إن الجرائم الكبرى تبدأ في عقل الإنسان

كذلك، بل تبدأ في الإنسان لا سواه. وحتى أنت يا مستر جراي، بشبابك المنفتح كالوردة الحمراء وطفولتك النقية كالوردة البيضاء، حتى أنت يا مستر جراي، قد جمحت بك شهوات ارتعد أمامها ضميرك، وعصفت بك خواطر ملأت قلبك رعبًا، وعرفت في يقظتك ومنامك أحلامًا كلما ذكرتها ضرج الخجل خديك بالدماء.

فقاطعه دوريان جراي في لعثمة قائلاً:

- كفى! كفى! لقد بلبلت أفكاري. أعتقد أن هناك ردًا على كل ما تقول ولكنني عاجز عن إيجاده. الزم الصمت ودعني أفكر.

وظل ما يقرب من عشر دقائق ثابتًا في مكانه فاغر الفم يلمع في عينيه ضوء غريب. وكان يحس إحساسًا مبهمًا بأنه يدخل تحت تأثير ما، ولكنه أحس كذلك بأن النفوذ الجديد الذي يسيطر عليه لم يأت من الخارج وإنما خرج من أعماق نفسه. فلقد هزت الكلمات القليلة التي قالها صديق بازيل وتراً خفيًا في فؤاده لم يهتز من قبل لشيء، وأيقظت فيه أعجب المشاعر. ولا شك في أن اللورد هنري تعمّد بعض الشيء أن يحير دوريان، ولكن كلماته جاءت عرّصًا وبغير تحضير سابق.

ولم تكن هذه المشاعر جديدة على دوريان جراي، فقد كانت الموسيقى توقظ مثلها فيه، ولكم ملأته بالقلق والحيرة. ولكن الموسيقى خرساء لا تفصح، وهي لا تخلق في نفوسنا عالمًا جديدًا مرتبًا متماسك الأجزاء بل تخلق فيها عالمًا من الفوضى. أما الألفاظ فسلطانها عظيم وتصويرها دقيق وتعبيرها قاس، ومن رام الفرار منها لاحقته أينما ذهب. ولكنها رغم ذلك كله ذات سحر لطيف، ولها من النغم العذب ما للعود ولللكمان وهي تحبس كل شارد من العواطف في إطار من حديد. فيا لنا من الألفاظ! ليس أصدق من الألفاظ تعبيرًا عن الحقيقة.

كم من أشياء مرّت بدوريان جراي وعجز عن فهمها أيام صباه. ولكن ها هو يفهمها الآن. وهذه الحياة تصطبغ فجأة أمام ناظره بالألوان النارية

العنيفة. وخيل إليه أنه يمشي بين ألسنة اللهب من دون أن يكتوي بنارها، وياليتَه اكتوى. أما اللورد هنري فقد كان يتأمله وعلى شفّته ابتسامة ذات مغزى. وكان يعرف متى يتوقف عن الكلام ويستعين ببلاغة الصمت. ثم ثار فضوله وعجب لما رآه من تأثير فجائي لكلماته، وتذكر ذلك الكتاب الذي قرأه وهو في السادسة عشرة من عمره وتعلم منه ما لم يعلم من أسرار الحياة فجال بباله أن دوريان جراي يمر الآن في تلك التجربة ذاتها. ولم يكن ما قاله اللورد هنري إلا سهمًا انطلق بغير تصويب، فهل أصاب السهم الهدف، يا له من هدف جذّاب!

ولم يتنبه هولورود إلى السكون الذي خيم على الحجرة فقد كان مشتغلًا بالرسم يلوّن الصورة بألوانه الجريئة التي تضيء على عمله رقّة وأناقة هما في الواقع مظهر من مظاهر القوة، في الفن على الأقل.

قال دوريان جراي:

- لقد أتعبني طول الوقوف يا بازيل، والهواء هنا يخنق أنفاسي، فلا بد أن أخرج إلى الحديقة لأرتاح قليلاً.
فأجاب الرسّام:

- عفواً يا صديقي، فقد أنساني الرسم كل شيء. إن وفتك اليوم يا دوريان أجمل من وفتك في أي يوم مضى، فلم تبدُ منك أدنى حركة. كذلك أمكنني أن أنقل التعبير الذي كنت أطلبه، أقصد ذلك البريق في عينيك وذلك الانفراج الخفيف في شفّتك. ولست أعرف بم حدثك هاري ولكن حديثه بلا جدال قد أكسب محياك تعبيراً لا نظير له. أكان يطربك طيلة هذا الوقت؟ مهما يكن من شيء فلا تصدّق كلمة واحدة مما يقول فهو يلقي الكلام جزافاً.

قال دوريان:

كلا. لم أسمع منه كلمة إطراء واحدة، ولذا تجدني أميل إلى الشك في كل ما قاله.

قال اللورد هنري معترضاً وهو ينظر إليه بعينه الناعستين الحالمتين:
- بل أنت تؤمن بصدق ما أقول، وأنت تعلم ذلك. إن الحرارة هنا خانقة
فلنخرج معاً إلى الحديقة. آتنا شراباً مثلجاً به شيء من الشليك يا بازيل.
- بالتأكيد يا هاري. أمامك الجرس فاطلب خادمي پاركر ومره بما
تشاء، أما أنا فباق هنا لأتم هذه الصورة، وأرجوك ألا تعطل دوريان في
الحديقة طويلاً إذ لا بد لي منه ثانية فأنا أحس برغبة في العمل لم أحس
بها من قبل. يا لها من صورة رائعة، فما أسعدني بها! لسوف تكون أبدع
ما رسمت حين تتم، بل لا أعالي إن قلت إنها أبدع ما رسمت في وضعها
الحالي.

وخرج اللورد هنري إلى الحديقة فوجد دوريان جراي يدفن وجهه
بين أزهار اليلج المنعشة يستاف غيرها كأنه نبيذ كريم. ودنا منه ثم وضع
يده على كتفه وقال بصوت خافت:

- هاقد عرفت طريقك إلى الخلاص يا دوريان، فما يطهّر الروح إلا
الحواس وما يطهر الحواس إلا الروح.

فجفل الفتى وارتدّ قليلاً. وكان عاري الرأس فعبثت أوراق الشجر
بشعره المتموج وتشابكت خيوطه الذهبية. وبدا في عينيه ارتياح عظيم
كأنه نائم أوقظ فجأة من منامه. وارتجف أنفه الدقيق ونبض في شفثيه
القرمزيتين عصب دفين فتركهما ترتعشان بلا انقطاع. واستأنف اللورد
هنري حديثه قائلاً:

- نعم يا مستر جراي، هذا سر من أسرار الحياة، بل سر من أسراها
الكبرى، أعني شفاء النفس عن طريق الحواس وشفاء الحواس عن طريق
النفس. وأنت نموذج من نماذج الخلق رائع، وشوقك إلى معرفة الحياة
أكبر من معرفتك بها، ولكن معرفتك بالحياة أكبر مما تظن.

فأظلم وجه دوريان جراي وأشاح برأسه عن اللورد هنري. فلقد بدأ
على الرغم منه يتعلّق بهذا الرجل المديد القامة الرشيق التكوين الواقف

إلى جواره، وأثار اهتمامه محياه الأسمر الحالم وملامحه المتعبة. أمّا صوته الخفيض الكسلان فقد كان يسحر الحجر، ويدها الناصعتان الناعمتان كان لهما سحر زهرة غريبة، وكانتا تتحركان بلا انقطاع كلّما تكلم حركة تشبه إيقاع لحن رتيب فيكاد سامعه أن يفهم ما تقولانه. ولكن دوريان رغم ذلك كله خامره الخوف منه، وإن أخجله أن يخاف. وكيف لا يخاف من هذا الغريب الذي يقرأ عليه صفحة نفسه كأنها كتاب مفتوح ويهتك أمامه ما خفي عليه من أسرارها. لقد عاش دوريان جراي بازيل هولوردد فلم يسمع منه إلا كلمات الإطراء، ثم دخل في حياته فجأة رجل وصف له الحياة ففك له لغزها. ولكن مم يخاف؟ لو أنه كان صبيًا غريبًا أو بنتًا قليلة الحيلة لجاز له أن يخاف. أما وهو ليس بهذا ولا تلك فلا مبرر لخوفه على الإطلاق. قال اللورد هنري:

- هيا بنا إلى الظل نجلس فيه. هذا پاركر قد أتانا بالشراب، ولو مكثت في هذا الجو المحرق طويلًا لأتلفتك الشمس ولم يعد بازيل يجد فيك ما يستحق الرسم. فحذار من الشمس يا مستر جراي، فالسمرة لا تناسبك. فأجاب دوريان ضاحكًا وهو يجلس على مقعد في طرف الحديقة:
- وما أهمية ذلك.

- بل أهميته جوهرية بالنسبة لك.

- وكيف ذلك؟

- لأن شبابك لا نظير له، والشباب هو كل ما يستحق أن نتمناه لأنفسنا في الحياة.

- ولكني لا أحس بشبابي يا لورد هنري.

- هذا طبيعي. أنت لا تحس بشبابك لأنك تملكه، ولن تحس به إلا إذا فقدته، وسوف تفتقده يوم يضع منك. ستفتقده حين يزول جمالك ويمتلئ وجهك بالغضون. ستفتقده حين يحفر الهم أخاديه في جبينك الجاف ويكوي الأسي بنيرانه شفتيك. أنت تفتن الدينا أينما ذهبت الآن،

فهل يدوم لك ذلك؟ ما رأيت وجهًا قط في جمال وجهك يا مستر جراي. لا تعبس فهذه حقيقة مقررة. والجمال لون من ألوان النبوغ، بل الجمال أعلى قدرًا من النبوغ، وهذه أيضًا حقيقة مقررة. فإن كنت تشك في ضوء الشمس أو في الربيع أو في القمر الفضي حين ينعكس خياله على المياه المظلمة أو في أشباه هذه الحقائق الأولية فلك أن تشك في صدق ما أقول. إن الجمال يحكم العالم بأذن من الله، ولا ينازعه في دولته شيء في الوجود، فمن حَبَّته الطبيعة به جلس على عرش القلوب. أراك تبتسم لهذا الكلام، ولكنك لن تبتسم حين يزول عنك جمالك، أسمع الناس يقولون إن الجمال سطحي، ولعلمهم صادقون في ما ذهبوا إليه، ولكن الجمال مهما كان سطحيًا فلن تصل تفاهته إلى تفاهة الفكر. ولو سألتني الرأي لقلت لك إن الجمال عجيبة العجائب ولقد يكون الجمال قشرة ظاهرية ولكن الظواهر هي كل شيء في الحياة، ومن لا يحكمون بالظواهر هم السطحيون الذين لا يفهمون شيئًا عن لغز الحياة. فلغز الحياة هو ما نراه وليس ما لا نراه. نعم يا مستر جراي، إن الآلهة تحبك، ولكن لا تنس أن الآلهة تسترد ما تمنح، ولم يبقَ أمامك إلا سنوات معدودات تستطيع فيها أن تحيا حياتك على أكمل وجه. فحين يزوي شبابك يزوي معك جمالك، ولسوف تجد يومئذ أن أيام مجدك قد مضت وتفهم معنى الهزيمة، أو تقتنع من كل هذا السلطان العريض بذكرى مجدك الزائل وهذا أشد مرارة من الهزيمة. إن كل شهر يفوت يقترب بك من هذا المصير الأليم. فالزمن بنفس عليك شبابك ويغار من ورودك ورياحينك، وحين يصرعك الزمن يشحب لونك ويتكهف خَدَاك وينطفئ البريق الذي يلمع الآن في عينيك، وتتعلم كيف يكون الشقاء. فانعم بشبابك ما بقى لك. أيامك ذهبية، فلا تبعر ذهب أيامك مستمعًا إلى نصائح الوعاظ الثقلاء أو آخذًا بيد العاثرين أو مكرسًا حياتك للجهال والسفهاء، فهذه أهداف عصرنا وهو مريض، وهذه مثله العليا وهي زائفة. عش وانعم بالحياة المفتوحة فيك واستفد

من كل اختبار يمر بك وجدد إحساسك بالحياة ولا تخش شيئاً. فعصرنا بحاجة إلى دين جديد، إلى وثنية جديدة، إلى إحياء عبادة الجمال التي انطوت تحت أنقاض اليونان. ولتكن أنت رمز هذه الفلسفة الجديدة، فالدنيا وما عليها طوع بنانك حتى ينطوي ربيعك الناضر. لقد أدركت لأول وهلة حين لقيتك أنك تجهل حقيقة نفسك وتجهل ما ينتظر من أفراح وها أنا أفصل لك أمرك لأن قوة خفية فيك جذبتني إليك فأشفقت أن يضع منك كل هذا الشباب المكنوز، وهو خليك بأن يضع. إن الأزهار الساذجة النامية على البطاح تذبذب مع الخريف ولكنها تتجدد في مقدم الربيع، وهذه الشجرة الصفراء التي تتوهج الآن أمام عينيك سوف تسترد ما عليها من نضار في مثل هذه الأيام من العام القادم، ولسوف تكسو النجوم الحمراء أدواح الداليا بعد شهر واحد وتلمع تلك النجوم في ليل أوراقها الخضراء سنة بعد أخرى، أما نحن فشابنا المهراق لا يعود، وأشواقنا تخبو وأفراحنا تفتربعد أن كانت تهزنا هز الأعاصير في سن العشرين. كذلك تهن أبداننا وتنطفئ حواسنا ونؤول إلى دمي كريهة لا نفع فيها، دمي تحنُّ إلى ما فات وقد كانت ترتعب في القديم من نداء السعادة، وتتأوه على الغوايات الحلوة وقد كانت لا تجرؤ على إطاعتها أيام الشباب. فحيّ الشباب إنه كل ما في الدنيا من صور النعيم.

كان دوريان جراي يستمع إليه عاجباً فسقطت من يده باقة الليلج على الأرض المرصوفة بالأحجار الصغيرة. واندفعت نحوها نحلة نحلّة طنت قليلاً ثم بدأت تدب في الليلج الملفوف. وطفق يتأمل هذه الظاهرة التافهة باهتمام عظيم كما نفعل عادة حين نضطرب لأمر جلال، أو حين تهزنا عاطفة جديدة لا نستطيع التعبير عنها، أو حين تلح علينا فكرة رهيبية وتأبى إلا أن نخضع لها. ثم طارت النحلة عن الليلج وشاهدها دوريان جراي تقتحم زهرة وتختفي في أعماقها، ورأى الزهرة ترتجف ثم تتأرجح ذات اليمين وذات اليسار.

وظهر الرّسام فجأةً بباب الاستديو وأشار لهما بالعودة فتبادلا النظرات وابتسما وسمعاه يقول:

- أنا في الانتظار، والضوء الآن جميل فعودا وتناولا شرابكما هنا. فنهض الرجلان وسارا متكاسلّين في ممشى الحديقة. وطارت بجوارهما فراشتان إحداهما بيضاء والأخرى خضراء، وسمعا عصفورًا يغرّد في شجرة الكمثرى عند طرف الحديقة. وقال اللورد هنري:

- أسعيد أنت بلقائي يا مستر جراي؟

- نعم، أنا الآن سعيد بلقائك، ولكن هل سأظل هكذا دائمًا؟

- لا تقل «دائمًا» يا مستر جراي، فكلمة «دائمًا» كلمة فظيعة تجعلني أرْتجف فرقًا. والنساء مولعات بها إلى حد كبير، فهن يفسدن كل علاقة جميلة برغبتهن في أن تدوم هذه العلاقة إلى الأبد. إن كلمة «دائمًا» كلمة لا معنى لها. والفرق الوحيد بين النزوة العارضة والعاطفة الدائمة هو أن النزوة العارضة أطول عمرًا من العاطفة الدائمة.

وفيما هما يدخلان الاستديو أمسك دوريان جراي بذراع اللورد هنري وقال في شجاعة أخجلته:

- إذا كان الأمر كذلك فلتكن صداقتنا نزوة عارضة لا عاطفة دائمة.

ثم أخذ مكانه من جديد أمام الرّسام:

وارتمى اللورد هنري على مقعد كبير وأنشأ يتأمله عن كُتب. وخيّم على المكان صمت طويل، فما كان يسمع إلا حفيف الفرشاة على اللوحة، وبين وقت وآخر كانت تسمع خطوات هولورود وهو يتراجع ليتفحص عمله من بعيد. وفي الضوء المتدفّق من خلال الباب المفتوح سبحت ذرات التراب وبدت كدقائق التبر، وتأرّج كل شيء بعطر الورد. وتوقّف الرّسام عن العمل ربع ساعة أو يزيد. وأدمن النظر طويلًا إلى دوريان جراي ثم إلى الصورة وهو يعصّ فرشاته الضخمة في تجهم واضح، وأخيرًا صاح قائلًا:

- لقد اكتملت الصورة.

وانحنى كثيرًا، وكتب اسمه في ركنها الأيسر بحروف كبيرة حمراء ودنا اللورد هنري من الصورة فوجدها آية من آيات الفن لا تُبارى، ووجدها نسخة تطابق صاحبها تمامًا. قال:

- أهنتك يا بازيل من صميم قلبي، فهذه أجمل صورة رُسمت في العصر الحديث. تعال يا مستر جراي لترى نفسك.

كان الفتى مسترسلًا في أحلامه فأفاق منها، ونزل من القاعدة وقال بصوت خافت:

- هل انتهت الصورة حقًا؟

فأجاب الرّسام:

- نعم انتهت تمامًا، فشكرًا على حسن وقوفك اليوم.

قال اللورد هنري:

- الشكر لي يا بازيل، فلولاى لما أحسن الوقوف. أليس كذلك يا مستر

جراي؟

لم يجب دوريان بل مرّ أمام صورته بغير اكتراث ثم التفت إليها فلما وقع بصره عليها رجع خطوة إلى الوراء واشتعل خداه لحظة من فرط السرور وفاضت عيناه بالبشر كأنه يقف على حقيقة جماله للمرة الأولى. وثبت في مكانه كالمسحور لا يعي شيئًا مما يدور حوله، اللهم إلا صوت هولورود فقد جاءه كاللغظ المظموس. لقد أشرق عليه وجهه الصبوح فبدهه جماله كأنه وحي عظيم وكانت تلك أول مرة يخالجه فيها هذا الإحساس، فقد كان من قبل لا يقيم وزنًا لكلام بازيل هولورود ويحسب إطراره إياه مجاملة لطيفة من مجاملات الأصدقاء. وتذكّر دوريان جراي إطراره بازيل هولورود. كم أصغى إليه وكم ضحك منه وكم نسيه! إن إطراره بازيل هولورود لم يترك في نفسه أي أثر. والآن أقبل اللورد هنري وتون ورنم أمامه ترنيمه الشباب وحذّره من الزمن الغدّار الذي ينسخ

الشباب، فاهتز فؤاده لكلماته. وفيما كان دوريان جراي يتأمل نضارته التي تملأ اللوحة، فهم مغزى تلك الكلمات، واقتنع بأنها تعبر عن الواقع الملموس. فلسوف يأتي يوم يتشقق فيه وجهه وتنطفئ عيناه ويغدو قدّه المياس عودًا يابسًا ويهرب القرمز من شفّتيه والذهب من شعره الجميل، وتمسخ الحياة جسده وقد كان خليقًا بها أن تجدد روحه. أجل. لسوف يصير إلى مخلوق شائه كرية.

وحين خطر له هذا الخاطر أحس بالألم يمزق أوصاله كأنه طعن المدى وارتجف كل عصب في بنيانه وازرقت مقتلتاه وترقرقت فيهما الدموع وخيل إليه أن يبدأ من جليد تمس قلبه الدافئ. أما الرّسام فلم يفهم لهذا الصمت معنى، وأنّى له أن يعرف ما كان يدور برأس الفتى من هواجس، فقال حزينًا:

- ألا تعجبك الصورة؟

فقال اللورد هنري:

- وكيف لا تعجبه؟ بل كيف لا تعجب العالم كله؟ إنها آية من أفخم آيات هذا الجيل يا بازيل، ولا بد أن أشتريها. اطلب أي ثمن يروقك فهو لك.

- إنها ليست ملكًا لي يا هاري؟

- من صاحبها إذا؟

- دوريان جراي بطبيعة الحال.

- يا له من فتى مجدود.

فقال دوريان جراي وعيناه لا تنصرفان عن الصورة:

- بل إنني لفتىّ تاعس! نعم. إنني فتى تاعس! سوف يتقدّم بي العمر وأصبح مخلوقًا بشعًا تنفر منه العيون. أما هذه الصورة فستظل أبدًا ناضرة الشباب، ولن يزيد عمرها عن هذا اليوم من شهر يونيو. ليت الأمر كان بعكس ذلك! ليت الصورة تكبر وأخلد أنا في شبابي! إنني لأنزل عن أعز

ما أملك لتتم هذه الصفقة، وليس في العالم كله ما أظنّ به ليتحقق لي هذا الحلم. هذه روعي أنزل عنها مختارًا ليكون لي ما أريد.
ضحك اللورد هنري وقال عابثًا:

- لا أحسب هذه الصفقة في مصلحتك يا بازيل، فالخطوط التي يرسمها الزمن ستفسد ولا شك عملك الجميل.

فأجاب هولورود:

- طبعًا أنا أمانع في ذلك بكل ما أملك من قوة.

عندئذ التفت دوريان جراي إليه وقال متفرسًا فيه:

- هذا لا يدهشني منك يا بازيل، فأنت تقدم فنك على أصدقائك، وما مقامي عندك إلا مقام تمثال من البرونز، بل لعل تمثال البرونز أثمن مني عندك.

حملق الرسّام فيه من فرط دهشته، فما كان ينتظر منه أن يقول هذا الكلام. إن دوريان جراي الذي يعرفه لا يفكر على هذا النسق. أفهذا جزاؤه منه؟ ترى ماذا حدث له؟ وصعد الدم إلى وجه بازيل هولورود واستولى عليه غضب شديد فالتهب خداه. ولكن دوريان مضى في حديثه قائلاً:

- نعم. إن موقعي عندك لأبخس من موقع هرمرز العاجي هذا أو هذه الغزاة الفضية التي تحرص عليها حرصك على الحياة، وحبك لهما لن يبلى على مرّ الزمن، فكم يدوم حبك لي؟ سيدوم حبك لي ما دامت لي نضرتي، وحين تظهر في وجهي أول بادرة من بوادر الهرم سأخرج من قلبك جملة. لقد أدركت الآن أن الإنسان يفقد كل شيء يوم يفقد جماله، مهما كان حظه من الجمال. صورتك علّمتني ذلك يا بازيل، ولقد أصاب اللورد هنري في كل ما قال، فالشباب هو كل ما يستحق أن نتمناه لأنفسنا في هذه الحياة، ولسوف أقتل نفسي حين أعرف أن شبابي قد ذهب.

عندما سمع هولورود هذا الكلام شحب لونه وأمسك بيد دوريان

جراي وصاح به:

- ماذا دهالك يا دوريان! ما كنت أرجو فيك أن تقول مثل هذا الكلام، فما أخلصت لأحد إخلاصي لك ولن أخلص. أصبحت تغار من الجمادات يا دوريان؟ دع عنك هذه الأوهام، فأنت أصفى معدناً من كل هذه الأشياء! - إنني أغار من كل شيء جماله لا يموت، أغار من الصورة التي نقلتها عني. فكيف يبقى لها جمالها وأفقد أنا جمالي مُرغماً؟ إن كل لحظه تمضي تقطع مني شيئاً وتضيف إليها شيئاً، فليت الأمر كان على عكس ذلك. واهالي! ليت الصورة تتغير وأبقى أنا على حالي. ماذا دفعك إلى رسمها؟ إنها ستسخر مني حين يأتي الأوان.

وفاضت عيناه بالدموع ونزع يده من يد هولورود وألقى بنفسه على الأريكة ودفن وجهه في وسائدها كأنه يتلو الصلوات. فقال الرسّام في مرارة:

- أنت المسؤول عن هذا يا هاري.

- بل هذا دوريان جراي الحقيقي.

- ليس هذا صحيحاً.

- علام تلومني إذا؟

قال الرسّام بصوت متقطع:

- كان خليقاً بك أن تتركنا حين سألتك أن تنصرف يا هاري.

فأجابه اللورد هنري قائلاً:

- ولكنك سألتني أن أبقى.

- إسمع يا هاري. أنت ودوريان أعز أصدقائي، ولن أستطيع أن

أخاصمكما معاً في وقت واحد. لقد جعلتmani أبغض أجمل شيء أنتجته في حياتي، ولذا سأحطم هذه الصورة. إن هي إلا خيش وألوان ولن أضعها تدخل بيننا فتفسد حياتنا.

فلما سمع دوريان جراي هذا الكلام رفع رأسه الذهبي عن الوسادة

ونظر إليه شاحب الخد دامع العين فرآه يسير نحو النافذة ذات الأستار العالية حيث المائدة التي يجمع فيها أدواته. ماذا عساه يفعل؟ إنه يبحث عن شيء، فأصابعه تتحسّس شيئاً بين الأنابيب الفارغة والفراشي الجافة. إنه يبحث عن المدية الفولاذية الحادة التي يستخدمها في مزج الألوان، ولقد وجدها. وها هو يهم بتمزيق الصورة.

وثب دوريان جراي من الأريكة وقد اختنقت في صدره زفراته وهجم على هولورود وانتزع المدية من يده وقذف بها إلى طرف الاستديو صائحاً:

- كلا. كلا يا بازيل! هذا والقتل سواء!

قال الرّسام ببرود بعد أن أفاق من دهشته:

- أشكرك يا دوريان على هذا التقدير، وإن جاء متأخراً. ما كنت أظنك ستقدّر الصورة.

- لا تتحدّث عن التقدير يا بازيل بل تحدّث عن التقديس فأنا أعبدها عبادة لأنها قطعة من نفسي. وهذا هو إحساسي الصادق.

- إذا كان الأمر كذلك فسأتركك حتى تجف أولاً، ثم أضع عليك الورنيش لتلمع، ثم أحبسك في إطار، ثم أرسلك أخيراً إلى بيتك. وحين تصل إلى بيتك تستطيع أن تفعل بنفسك ما تشاء.

وبعد أن فرغ من كلامه مشى إلى الجانب الآخر من الغرفة ودق الجرس وقال:

- أتحب أن تتناول قليلاً من الشاي يا دوريان؟ وأنت يا هاري، هل لك في فنجان من الشاي، أم تراك تحتقر هذه المتع البسيطة؟

فأجاب اللورد هنري قائلاً:

- وكيف أحتقر المتع البسيطة يا بازيل وهي عزاؤنا الباقي كلما مللنا المتع الكبيرة! ولكن كفى مشاحنة، فأنا لا أحب أن أرى المناظر المؤثرة إلا على المسرح، ولم أر أسخف منكما إنساناً. ما أبعدكما عن العقل،

فأي أحمق هذا الذي وصف الإنسان بأنه حيوان عاقل؟ إن هذا التعريف سابق لأوانه كثيرًا، فالإنسان قد يكون متعدد الملكات ولكن العقل ليس من ملكاته، وهذا ما يحببني فيه. إن احتدادكما بشأن الصورة قد ساءني، ومن الخير يا بازيل أن أحتفظ أنا بالصورة فهذا الولد الطائش ليس بحاجة حقيقية إليها.

فصاح دوريان جراي قائلاً:

- إسمع يا بازيل، لو أعطيتها لأحد سواي فلن أغفر لك ذلك، ثم إنني لا أسمح لأحد بأن يصفني بأني ولد طائش.

- أنت تعلم يا دوريان أن الصورة ملك لك، أهديتك إياها قبل أن تخرج إلى الوجود.

- وأنت تعلم يا مستر جراي أن سلوكك لم يخُل من الطيش وعهدي بك أنك لا تغضب إذا ذُكر أحد بحدثة سنك.

- لقد كان يجب أن أغضب هذا الصباح يا لورد هنري.

- آه من هذا الصباح! لقد فات هذا الصباح وانطوى من عمرك بعضه. وطرق الخادم الباب مستأذناً في الدخول ثم دخل حاملاً صينية عليها أطيب المأكولات ووضعها على مائدة صغيرة بها نقوش يابانية، وارتفع صوت الأطباق والفناجين، والماء المغلي يتصاعد بخاره المكتوم من الإناء القديم الذي يحتويه فيصفر صفيراً مسموعاً. ودخل خادم آخر بالصحن الصينية، وتقدم دوريان جراي ليصب الشاي في الفناجين على حين سار الرجلان في تذاقل صوب المائدة وكشفاً أغطية الأواني ليريا ما خُبي تحتها من ألوان الطعام. وأخيراً قال اللورد هنري:

- أقترح أن نذهب الليلة إلى مسرح وأعتقد أننا سنجد مسرحاً مفتوحاً لقد وعدت أن أتعشى هذا المساء في مطعم هوايت ولكنني أستطيع أن أتغاضى عن هذا الموعد، فهو موعد مع صديق قديم لا أكثر، وسأرسل له برقية أعتذر فيها بأن صبحتي منحرفة أو أقول فيها إنني أرتبط بموعد آخر،

وهذا أفضل، لأنه سيجد في صراحتي مفاجأة لطيفة تنسيه الإساءة.

وقال هولورود:

- أنا أمقت ملابس السهرة، فارتداؤها يضايقني ومنظرها لا يطاق.

أجاب اللورد هنري:

- هذا صحيح. إن ملابس السهرة في القرن التاسع عشر فظيعة، فلونها قاتم

مقبض، ولم يبق لنا من الألوان الجذابة في الحياة الحديثة إلا لون الرذيلة.

- يحسن ألا تذكر هذه الأمور على مسمع من دوريان جراي.

- أي دوريان تقصد؟ دوريان الذي يصب الشاي لنا الآن. أم دوريان

الذي نراه في الصورة؟

- كليهما.

قال الفتى:

- أود أن أصحبك إلى المسرح يا لورد هنري.

- فلنذهب معاً إذاً. وأنت يا بازيل، هلا أتيت معنا؟

- كلا، فعملي يمنعني.

- فلنذهب بمفردنا إذاً، أنت وأنا يا مستر جراي.

- ذلك يسرني جداً.

عض الرسّام شفته وسار نحو الصورة حاملاً فنجانته في يده وقال في

أسى:

- أما أنا فسأبقى مع دوريان الحقيقي.

تقدّم الفتى صوبه وقال:

- أهذا الذي نراه في الصورة دوريان الحقيقي؟ أهذه صورة صادقة

مني؟

- نعم، هذه صورة صادقة منك.

- ما أجملها صورة يا بازيل!

فتنهّد هولورود وقال:

- أنت تشبهها في المظهر على الأقل، ولقد تتغير أنت ولكنها لن تتغير،
وفي هذا بعض العزاء.
قال اللورد هنري:

- ما هذا اللغو الكثير الذي يرّدده الناس عن الوفاء! إن الحب نفسه
مسألة فسيولوجية ولا دخل للإرادة فيها. أرى الشبان يحاولون الوفاء
فيعجزون عنه، وأرى الشيوخ يحاولون الخيانة فيعجزون عنها. هذا كل
ما نستطيع أن نقوله في الموضوع.

قال هولورود:

- لا تذهب إلى المسرح الليلة يا دوريان، بل ابقَ معي للعشاء.
- لا أستطيع.

- لماذا؟

- لأنني وعدت اللورد هنري أن أرافقه.

- ولكن اللورد هنري لن يقدرّ فيك الوفاء بعودك، فهو يخلف وعوده
باستمرار. أرجوك أن تبقى معي.

فضحك دوريان جرائي وهز رأسه دلالة الرفض.

- أضرع إليك أن تبقى معي.

تردّد الفتى قليلاً ونظر إلى اللورد هنري فألفاه واقفاً بجوار مائدة
الشاى يتأملها وهو يبتسم. وأخيراً قال:

- لا بد أن أذهب يا بازيل.

فأجاب هولورود وهو يضع فنجان الشاي على الصينية:

- إذا كان الأمر كذلك وجب أن تسرع فالوقت متأخر ولا بد أن تستبدل
ملابسك. إلى اللقاء يا هاري. إلى اللقاء يا دوريان، ولا تغب طويلاً. تعال
غداً.

- بالتأكيد.

- أرجوك ألا تنسى.

- لن أنسى بالطبع.

- إسمع يا هاري!

- نعم يا بازيل؟

- تذكر رجائي إليك حين كنا في الحديقة هذا الصباح.

- أي رجاء هذا؟ لقد نسيت.

- أنا أثق فيك.

- ولكنني لا أثق في نفسي. هيا بنا يا مستر جراي فعربتي تنتظر في

الخارج وفي إمكاني أن أصل بك إلى بيتك. إلى اللقاء يا بازيل. لقد كان
يومنا حافلاً.

ولما أقفل الباب دونهما ارتمى الرسّام على إحدى الأرائك وتملّكه

حزن شديد.

الفصل الثالث

خرج اللورد هنري وتون من منزله في شارع كيرزون في الساعة الثانية عشرة والنصف من ظهر اليوم التالي وسار إلى نادي أولباني ليزور عمه اللورد فيرمور، وهو شيخ أعزب، طيب القلب، خشن المعاملة، تناقضت في وصفه الآراء، فمن يجهلونه يصفونه بالخسة والأنانية لأنهم لا يستفيدون منه شيئاً. أما عارفوه من أبناء البيوتات فيصفونه بالسخاء لأنه يُطعم كل الذين يسألونه. وقد كان أبوه سفيرنا في مدريد حين كانت إيزابيلا صغيرة وهريم لم يولد بعد، ولكنه استقال من السلك السياسي في لحظة من لحظات الضيق لأن وزارة الخارجية ضنّت عليه بسفارة باريس، وهو منصب كان يعده حقاً من حقوقه الطبيعية، يؤهله له طيب منبته، وكسله، وجمال أسلوبه في الخطابات الرسمية، ونهمه الشديد لأطياب الحياة. أما الابن فقد كان يومئذ سكرتيراً لأبيه واستقال باستقالة رئيسه مما عده الناس حماقة في التصرف. فلما أن ورث اللقب بعد بضعة شهور وأصبح اللورد فيرمور، خصّص كل ملكاته لدراسة فن الأرستقراطية العظيم، فن البطالة. وكان يملك منزلين فسيحين ولكنه آثر أن يستأجر شقة في لندن ليتجنب عناء الإشراف على منزل فسيح، وتعود أن يتناول وجباته في ناديه. وقد وجّه اللورد فيرمور بعض التفاتة إلى إدارة مناجم الفحم التي يملكها في الميدلاندز وكان يعتذر عن اشتغاله بالصناعة،

وهو أمر مبتذل لا يُغتفر في جنتلمان، قائلًا إن للفحم مزية واحدة لا غناء عنها في أي مجتمع سليم، هي أنه يُمكن الجنتلمان من استخدام الخشب في مدفاته، وهو ترف لا تعرفه السوق مستهلكة الفحم. وكان في السياسة محافظًا حتى يصل المحافظون إلى الحكم فيخرج عليهم متهمًا إياهم بأنهم عصابة من المجددين. أما عن أخلاقه الشخصية فقد كان بطلاً في نظر خادمه الخاص لأن خادمه كان يتجبر عليه، وكان كابوسًا في نظر أفراد أسرته لأنه كان بدوره يتجبر عليهم. وكان يقول في كل مناسبة إن البلاد تنحدر إلى الحضيض. أما مبادئه الرجعية فقد كانت بالية وأما حقه الموروث على كل جديد فلم يعد من يدافع عنه.

ودخل اللورد هنري الغرفة فوجد عمه جالسًا يدخن سيجارًا ويطلع صحيفة التايمز متذمرًا. قال السيد العجوز:

- ماذا جاء بك يا هاري في هذا الوقت المبكر. لقد كنت أحسب أن أمثالك من الوجهاء لا يستيقظون قبل الساعة الثانية ولا يقابلون الناس قبل الساعة الخامسة.

- أوكد لك يا عمي أن شوقي إليك هو الذي دفعني إلى المجيء. لقد جئت لأطلب منك شيئًا.

فقال اللورد فيرمور عابسًا:

- أظنك جئت تطلب مالًا. اجلس وارولي القصة من أولها إلى آخرها. إن شباب هذا الجيل يرون أن المال هو كل شيء في الحياة.

قال اللورد وهو يصلح من عروته:

- هذا صحيح. وحين يتقدم بنا العمر ندرك صحة ذلك. ولكني ما جئت لأطلب منك مالًا، فما يطلب المال إلا شخص يسدّ ديونه، وأنا لا أسدّ ديوني مطلقًا. فالاستدانة رأس مال الابن الأصغر، والحياة جميلة برأسمال كهذا. ثم إنني أتعامل مع تجار دارتمور ولهذا أسلم من المضايقة. إنما جئت لأطلب معلومات، أقصد معلومات تافهة لا

معلومات نافعة بطبيعة الحال.

- في استطاعتي أن أخبرك بكل ما ورد في الدليل العام يا هاري، وإن كان الدليل العام مشحونًا بالأكاذيب في هذه الأيام. لقد كانت الأمور خيرًا مما هي الآن حين كنت في السلك. ولكن بلغني أخيرًا أنهم يعقدون امتحانًا لطالبي الالتحاق في هذه الأيام، وهذا خطأ يا سيد. فالامتحانات من أولها إلى آخرها كذبة كبيرة، والجتلمان يعرف ما فيه الكفاية، وإن لم يكن كذلك فكل ما يعرفه يضرّه.

فقال اللورد هنري في تراخ:

- جئت أسألك عن مستر دوريان جراي وهو لم يرد في الدليل العام يا عمي.

فقال اللورد فيرمور وهو يعقد حاجبيه الكثيفين:

- ومن يكون مستر دوريان جراي هذا؟

- هذا ما جئت أسألك عنه يا عمي. أنا أعرف من يكون، فهو حفيد آخر للورد كلسو وأمه سليلة ديفيرو. أمه هي الليدي مرجريت ديفيرو، وقد جئتك لأعرف شيئًا عنها، فحدثني عنها وعن زوجها. أنت عرفت أكثر أبناء جيلك، فلعلك عرفتها في من عرفت. وقد قابلت مستر دوريان جراي في الأيام الأخيرة فأثار اهتمامي.

قال اللورد فيرمور مسترجعًا الماضي البعيد:

- حفيد كلسو! حفيد كلسو! دعني أتذكّر. حقًا ما أغباني! نعم، كنت أعرف أمه معرفة جيدة بطبيعة الحال، وأعتقد أنني حضرت الاحتفال بتعميدها. لقد كانت مرجريت ديفيرو آية من آيات الجمال، وأثارت غيرة الرجال حين فرّت مع شاب مفلس لا يساوي شيئًا. نعم، يا سيدي، فرّت مع جندي في فرقة المشاة أو ما يشبه ذلك. وأنا أذكر القصة كلها كأنها حدثت البارحة. نعم، أذكر كيف قُتل ذلك الشاب المسكين بعد زواجه ببضعة شهور في مبارزة مدبّرة. وقد سمعنا يومئذ بإشاعة مخزية تقول

إن كلسو قد كرى سفاحًا بلجيكياً ليهين زوج ابنته أمام الناس. نعم، يا سيدي: كراه بالمال ليقتله فأجهز عليه كما تجهز على حمامة وديعة، وأخفيت الحقيقة عن الناس. ولكن أقسم لك أن أصدقاء كلسو قاطعوه زمنًا طويلًا نتيجة لذلك الحادث. وقد بلغني أنه رد ابنته إلى كنفه ولكنها رفضت أن تبادله الحديث حتى ماتت، وقد ماتت بعد شهور قليلة. نعم، يا سيدي، لقد كانت قصة محزنة، ولم أكن أعرف أنها ماتت عن ولد فقد نسيت الآن هذه التفاصيل. ما حال هذا الغلام؟ إن كان قد ورث صورة أمه فلا بد أن يكون فتى وسيماً.

فقال اللورد هنري مؤمناً على كلامه:

- إنه آية من آيات الجمال.

واستأنف السيد العجوز كلامه قائلاً:

- أرجو أن يجد هذا الفتى من يعتني به، وإذا كان كلسو قد أحسن التصرف في ماله فسيجد هذا الغلام شيئاً كثيراً في انتظاره. كذلك كانت أمه من أهل الثراء، فقد ورثت كل أملاك جدها في سلبي. وكان جدها يمقت كلسو ويحتقره لأنه كان كلباً قذراً. أذكر أنه هبط إلى مدريد حين كنت بها فكان مصدر خجل دائم لي. وقد سألتني الملكة مراراً عن ذلك النبيل الإنجليزي الذي كان في شجار مستمر مع الحوذية بسبب أجورهم. وكانت فضيحة الموسم، فلم أجرؤ على الظهور في البلاط شهراً كاملاً. أرجو أن يكون قد عامل حفيده خيراً مما كان يعامل الحوذية.

فأجاب اللورد هنري:

- لا أعرف عن هذا الموضوع شيئاً. ولكنني أظن أنه سيصبح من أهل الثراء حين يبلغ سن الرشد، وإن كنت أعلم أن سلبي تقع في أملاكه لأنه ذكر لي ذلك بنفسه. أكانت أمه جميلة حقاً؟

- نعم: لقد كانت مرجريت ديفيرو تحفة في الجمال يا هاري، ولم أفهم قط ما الذي دفعها إلى ذلك المسلك الشاذ، فقد كان في وسعها أن تتزوج

من تشاء من الرجال. فكارتلنجتون مثلاً كان مجنوناً بحبها ولكنها كانت فتاة تميل إلى الخيال شأن سائر نساء أسرتها، ويا لهنّ من نساء رائعات! أما رجال الأسرة فقد كانوا طغمة من الأوباش. يا لهن من نساء رائعات. لقد جثا كارلنجتون أمامها مرة كما أخبرني بنفسه. فضحكت منه. أقول حدث هذا وقت أن كانت جميع بنات لندن تطاردنه. وبمناسبة الكلام عن الزواج الشاذ يا هاري، ما هذا اللغظ الذي أسمعته عن رغبة دارتمور في أن يتزوج بأمرىكية. ألا يجد في إنجلترا كلها فتاة واحدة تصلح له؟

- إن الزواج بأمرىكيات هو آخر تطور في الذوق الإنجليزي يا عمي.

فضرب اللورد فيرمور المائدة بقبضة يده وصاح:

- أنا أراهن بكل ثروتي على الفتاة الإنجليزية.

- لكن الناس يراهنون الآن على الأمرىكيات.

فأجاب عمه:

- لقد بلغني أنهم متقلبات.

- أعتقد أن الخطوبة الطويلة تجهدهن، ولكنهن يجلّين في سباق الحواجز، فمفتاح قلوبهن السرعة، ولا أعتقد أن دارتمور سيصادف نجاحاً كبيراً.

قال السيد العجوز ساخطاً:

- بنت من تكون هذه الفتاة؟ ما أسرتها؟ ألهها أسرة؟

فأجاب اللورد هنري وهو يتأهّب للانصراف:

- إن الأمرىكيات يُجدن إخفاء نسبهن كما تجيد الإنجليزية إخفاء ماضيهن.

- أغلب الظن أن أهلها يشتغلون بصنع الجامبون.

- من مصلحة دارتمور أن يكونوا كذلك، فقد قيل لي إن مهنة صنع الجامبون أربح مهنة في أمريكا بعد السياسة.

- أجميلة هي؟

- إنها تسلك سلوك فتاة جميلة كما تفعل أكثر الأمريكيات، وهذا سر فتنتهن.

- إذا كانت أمريكا حقًا جنة النساء كما نسمع دائمًا من الأمريكيات فلماذا يخرجن من هذه الجنة.

فقال اللورد هنري:

- ولكن أمريكا جنة النساء فعلاً، وهذا بالذات ما يحملهن على الهرب منها كما هربت أمهن حواء من جنتها. والآن لا بد لي من الانصراف وإلا وصلت متأخرًا للغداء فوداعًا يا عماء، وشكرًا على ما زودتني به من معلومات، فأنا أحب أن أعرف كل شيء عن أصحابي الجدد وأحب أن أجهل كل شيء عن أصحابي القدماء.

- وأين تتناول غداءك اليوم يا هاري؟

- عند عمتي أجاثا. فقد دعوت نفسي ومستر جراي إلى مائدتها، فمستر جراي آخر اكتشاف اكتشفته عمتي.

- إذا فأرجوك أن تبلغ عمتك أن تعفيني من نداءات البر التي توجهها إليّ فقد ضاق بها صدري. إن هذه السيدة المباركة تخال أن عملي في الحياة هو كتابة الشيكات لأعمالها الخيرية.

- سأبلغها ذلك يا عمي وإن كنت أعرف أن كلامي لن يثمر، فأهل البر يفقدون كل شعور إنساني.

وصدرت من السيد العجوز أصوات غير واضحة معناها أنه يوافق اللورد هنري في الرأي. ودق الجرس ليستدعي خادمه، أما اللورد هنري فسار مخترقًا ممرًا سقفه مقبب حتى بلغ شارع برلنجتون ثم سار في اتجاه ميدان باركلي.

هذه إذا قصة دوريان جراي. إن اللورد فيرمور قد رواها له في غير تنسيق، ولكن أي قلب لا يضطرب لهذه الفاجعة العنيفة، وأي خيال لا يتحرك أمام هذه القصة الغريبة! لقد كان يحسب أن عصر الخيال قد مات،

ولكنه أدرك أن الخيال لا يزال حيًا، حتى في القرن التاسع عشر. فيالها من مأساة مروعة. هذه امرأة جميلة تغامر بكل شيء لترضي شهوة جامحة. وبها من أسابيع مشهودة تفيض بالسعادة وتنتهي بجريمة وحشية. وبها من شهور طوال من العذاب الصامت تنتهي بميلاد طفل شقي بين الأحزان. هذه أم تموت في ريعان العمر فتترك وليدها في كنف رجل مسن منزو لا تعرف الرحمة إلى قلبه سبيلاً ليسومه مُرّ العذاب. لقد كان لدوربان جراي ماضٍ غير مألوف، ماضٍ خليق به، فلا بد لهذا الجمال الفذ من قصة فذة تمهّد له، والجمال لا ينبت إلا في بيت الأحزان. إن الطبيعة عرفت آلام المخاض حين تفتحت فيها أول زهرة، فكيف بدوربان جراي ذي الجمال القهار! لقد جلس أمامه في الليلة السالفة يتناول معه العشاء في النادي، وكان فاغراً فاه محملاً عابجاً، يغمره مزيج من الخوف والطرب، وسقط عليه من الشموع نور أحمر ضرّج خده الوردي بورد جديد، فبدا كإله فاتن مشدوه. لقد كان الحديث معه أشبه شيء بالعزف على كمان حنون، لأن أوتار قلبه كانت تهتز لكل كلمة تُقال. ما أشبه الخضوع لأفكار الغير بالعبودية، وما أشبه إخضاع الغير لأفكارنا بالاستعباد. إن التأثير في الغير يُكسب الإنسان إحساساً بالقوة لا نظير له في الحياة. فما أجمل أن تمتد الروح إلى الخارج وتسكن جسداً آخر، ولو للحظات معدودات. وما أجمل أن يسمع المرء آراءه ترتد إليه كرجع الصدى دافئة بنفّس الشباب حلوة بإيقاعه الحنون. وما أجمل أن يمتزج الطبع بالطبع امتزاج السائل السحري بالسائل السحري أو امتزاج العطور. إنها لذة لا تعدلها لذة، ولعلها كل ما بقي لنا من مباحج الحياة في هذا العصر السوقي المحدود، هذا العصر الغليظ الذوق الرخيص الأهداف الساعي وراء أفراح الجسد وحدها. ولقد كان هذا الفتى الذي عرفه مصادفة في استديو بازيل هولورود نموذجاً رفيعاً لشباب الجيل، ولو لم يكن لأمكن أن يصاغ منه نموذج رفيع لشباب الجيل على أية حال. فالفتنة ملك يديه وطهارة الصبا

والجمال الذي اقتبس منه رخام الأولين. إن دوريان جراي طينة لدنة في يد من يصوغها. ولقد يكون منه مارد شاهق أو دمية يلعب بها الأطفال، فواهاً لهذا الجمال يوم يزول. ثم إن هناك بازيل، وبازيل في ذاته دراسة نفسية ممتعة! لقد كان بازيل صاحب أسلوب في الفن جديد، وصاحب نظرة إلى الحياة جديدة، وتلك النظرة استوحاها من إنسان ملهم لا يدري أنه ملهم. ولقد كانت روحه فيما مضى روحاً صادقة نافرة تسكن الدغل المظلم وتمشي خفية بين الحقول، وها هي الآن تتجلى فجأة في وضوح الضحى كأنها حورية من حور الغاب لا تجزع من شيء لأنها صحت على رؤيا عالم عجيب، عالم فيه كل شيء صافٍ وكل شيء يرمز لفكرة مثالية لا تتحقق إلا به. وما أعجب هذه الرؤيا! أو لم يصف لنا أفلاطون، فنان الفكر، هذه الرؤيا في القديم؟ أو لم يجسدها لنا بوناروتي في رخام ملون متماسك كأنه قريض شاعر عظيم؟ ولكن هذا كان ممكناً في الماضي، أما في هذا العصر فهو المعجزة الكبرى. فليكن اللورد هنري لدوريان جراي إذا ما كانه دوريان جراي لبازيل هولوردد، وليسيطر على نفسه سيطرته على نفس الفنان. ولقد أصاب في ذلك بعض النجاح ولسوف يملك ذلك الروح البهي في قبضته كما يملك الساحر الجان في قبضته. إنه ابن الحب والموت وهو نسب في طرفيه عظيم.

ثم توقّف اللورد هنري فجأة عن المسير وأنشأ يتأمل المساكن فأدرك أنه قد تجاوز بيت عمته كثيراً، فابتسم لشروود ذهنه وعاد. وحين دخل القاعة الموحشة أنبأه كبير الخدم أنهم يتناولون الغداء، فسلم قبعته وعصاه ودخل حجرة الطعام، فلما أن رآته عمته صاحت به وهي تهز رأسها مؤنبة:

- أراك قد جئت متأخراً كعادتك.

فأسعفه خياله لعذر من الأعذار المألوفة، ثم احتل مكانه في المائدة إلى جوارها وأجال في المدعويين بصره فرأى دوريان في طرف المائدة

وشاهده ينحني في خجل محيياً إياه وقد بدا عليه السرور لمرآه. وكانت دوقة هارلي تجلس قبالته وهي سيدة محبوبة طيبة القلب حلوة الشمائل ولكنها كانت قطعة فخمة من العمارة الراضحة التي يراها مؤرخو هذا العصر في الدوقات فيسمونها صحة وعافية ويرونها في النساء العاديات فيسمونها بدانة واستكراًشاً. وعن يمينها جلس السير توماس بيردون وهو عضو من أعضاء البرلمان راديكالي المذهب يتبع رئيس حزبه في الحياة العامة ويتبع أمهر الطهارة في الحياة الخاصة فتراه يأكل على مواثد المحافظين ويشارك الأحرار نظرياتهم في الحياة تمثيلاً مع المثل السائر المعروف. وعن يسار الدوقة جلس مستر إرسكين وهو سيد مسن من أهل تريدلي لطيف المعشر واسع الثقافة لا يعيبه إلا عادة خبيثة واحدة هي صمته المستمر، وقد اعتذر عن هذا الصمت مرة لليدي أجاتا بأنه استفد كل ما في جعبته من الكلام قبل أن يبلغ الثلاثين. أما جارة اللورد هنري ذاته فكانت مسز فاندلور وهي صديقة من أقدم صديقات عمته أجاتا لها صفات القديسات ولكنها زرية الهيئة تذكرك بكتاب من كتب التراثيل مهلهل الغلاف. وإلى جوار مسز فاندلور جلس اللورد فوديل وهو كهل فاشل في عمله رغم ذكائه المتقدم، يذكرك رأسه الأصلع ببيان وزاري في مجلس العموم، خلا من كل تنميق. وكانت جارته تتحدث إليه في جد وحماسة وهي غلطة لا تغتفر يتورط فيها ذوو النوايا الطيبة ولا ينجو منها أحدهم مهما اجتهد.

قالت الدوقة وهي تحيي اللورد هنري بإشارة من رأسها:

- نحن نتحدث عن دارتمور المسكين يا لورد هنري، فهل تعتقد أنه

سيزوج من تلك الأمريكية الساحرة كما يُقال؟

- أنا يا سيدتي الدوقة أعتقد أنها عازمة على أن تخطبه.

فصاحت الليدي أجاتا:

- هذه نكبة؛ أليس هناك من يتدخل؟

قال السير توماس بيردون في صلف واضح:
- لقد بلغني من مصدر عليم أن أباه يملك متجرًا للبضائع الجافة.
- من رأي عمي أنه يتاجر في لحم الخنازير المحفوظ.
فسألت الدوقة رافعة يديها الكبيرتين في تعب:
- وماذا تكون هذه البضائع الجافة؟ نعم، ماذا تكون؟
فأجاب اللورد هنري وهو يتناول سمانة:
- البضائع الجافة هي القصص الأمريكية.
فبدت الحيرة على وجه الدوقة لأنها لم تفهم معنى النكتة. وهمست
للبيدي أجاثا في أذنها قائلة:
- لا تلقي بالأيا صديقتي لما يقوله اللورد هنري فحديثه هزل متصل.
وقال عضو البرلمان الراديكالي:
- لَمَّا استكشفت أمريكا...

واسترسل في سرد بعض التفاصيل المملة وأراد أن يستنفذ الموضوع
فاستنفذ صبر سامعيه. وتنهَّدت الدوقة وباشرت حقها في المقاطعة
فقالت:

- ليت أمريكا لم تُستكشف قط، فالأمريكيات لا زلن يزاحمن بناتنا في
سوق الزواج حتى كسدت بضاعتهم، وهذا ليس من الإنصاف في شيء.
قال مستر إرسكين:
- ومن يدرينا أنها استكشفت؟ فأنا مثلاً أعتقد أننا لا نعرف عن أمريكا
إلا أنها قارة موجودة.
فأجابت الدوقة قائلة:

- هذا غير صحيح، فقد رأيت نماذج من سكانها بنفسني، ولا بد أن
أعترف بأنهن رائعات الجمال صاحبات أناقة يشتري كل ملابسهن من
باريس، وكم تمنيت أن يكون لي المال الذي يعود عليّ بكل هذا الترف.
كانت عند السير توماس تشكيلة كبيرة من الفكاهات القديمة فقذف

الحاضرين بواحدة منها. قال:

- يقولون إن أبرار الأمريكيين يذهبون إلى باريس بعد موتهم.
فسألته الدوقة قائلة:

- عجباً! أين يذهب إذا أشرار الأمريكيين.

قال اللورد هنري في صوت خافت:

- يذهبون إلى أمريكا.

فعبس السير توماس بيردون وقال لليدي أجاتا:

- أرى أن ابن أخيك يا سيدتي متحامل على هذا البلد العظيم. لقد

زرت أمريكا بلدًا بلدًا في سيارات أعدها لي مديرو الشركات، فهم قوم

يعرفون كيف تكون المجاملة. وأؤكد لك يا سيدتي أن في زيارة أمريكا

ثقافة للزائرين.

فاعترض مستر إرسكين على ذلك بقوله:

- وهل من الضروري أن أرى شيكاغو لتتم ثقافتني؟ يا لها من رحلة

مضنية.

قال السير توماس مشيرًا بيده:

- إن مستر إرسكين قد جمع العالم على رفوف مكتبته، أما أمثالنا من

الرجال العاملين فنحن نفضّل أن نرى الدنيا لا أن نقرأ عنها. وأعتقد أن

الأمريكيين شعب جدير باهتمامنا، فهم أهل تفكير مستقيم، بل إن التفكير

المستقيم أول صفاتهم. نعم، يا مستر إرسكين، إن الأمريكيين أهل منطق

لا يخطئ وأؤكد لك أن الغفلة ليست من صفاتهم.

فصاح اللورد هنري قائلاً:

- هذه مأساة، فالقوة الصارمة يمكن احتمالها أما المنطق الصارم فلا

سبيل إلى احتمالها، وليس من العدل استخدامه.

قال السير توماس محتدًا:

- لست أفهم ما ترمي إليه يا لورد هنري.

قال مستر إرسكين مبتسمًا:

- أنا أفهم ما ترمي إليه يا لورد هنري.

قال السير توماس:

- إن التعبير عن الأشياء بنقائضها جميل في بابه ولكن..

فقاطعه مستر إرسكين قائلاً:

- لست أرى في ما قاله اللورد هنري تعبيرًا عن شيء بنقيضه، ولكن

ربما كنت مخطئًا في فهمي. مهما يكن من شيء فالتناقض طريق الحقيقة.

فإذا أردنا أن نتأكد من صدق شيء وجب أن نراه من جميع وجوهه. وجب

أن نرى الحق يلعب أمامنا كالبهلوان الذي يسير على حبل مشدود.

قالت الليدي أجاتا:

- ويلنا منكم معشر الرجال، فكم تحبون الجدل! أقسم أنني لا أفهم

كلمة واحدة مما تقولون. أما أنت يا هاري فإني مستاءة منك أشد الاستياء

لأنك تحاول أن تصرف مستر دوريان جراي عن الاهتمام بالفقراء، وأؤكد

لك أن في امتناعه عن الاشتراك في أعمال البر خسارة لا تعوّض، وفقراء

الإيست إند سيسرّون به إذا رفّه عنهم بالمقطوعات الموسيقية.

فابتسم اللورد هنري ونظر إلى دوريان جراي فلقى في وجهه ما

يشجعه فقال:

- لأنني أريده أن يرفّه عني أنا بالمقطوعات الموسيقية.

اعترضت الليدي أجاتا قائلة:

- ولكن الفقراء في هوايت تشايل في شقاء لا يوصف.

فقال اللورد هنري وهو يهز كتفيه استخفافاً:

- إن صدري يتسع لكل شيء ولكنه يضيق بالشقاء. نعم، أنا لا أعطف

على الشقاء، فالشقاء بشع، الشقاء كرهه، الشقاء يكسر القلوب، وأنا أرى

أن اهتمام أهل هذا الجيل بالألم نوع من المرض، فالواجب أن نهتم بألوان

الحياة الزاهية، بجمالها، بأفراحها. فخير لنا أن ننسى أوجاع الحياة.

قال السير توماس وهو يهز رأسه كأنه يدلي بتصريح خطير:

- ولكن الإيست إند مشكلة رغم كل ما تقول.

فأجابه اللورد الشاب قائلاً:

- لست أشك في ذلك. إنها مشكلة العبودية ونحن نحاول حلها بتسليّة

العبيد.

فنظر السياسي إليه نظرة فاحصة وسأله:

- إذا فأني تغيير تقترح إجراءه لحل هذه المشكلة؟

ضحك اللورد هنري وقال:

- أنا لا أقترح تغيير شيء في إنجلترا إلا جَوْهاً، ويكفيني من الإصلاح

مجرد التفكير الفلسفي فيه. ولكن إذا كان القرن التاسع عشر قد استنفد

كل ما يملكه من عطف على فقرائه حتى أفلس تمامًا فأنا أقترح أن نلجأ

إلى العلم لعل العلم يقوم اعوجاجنا. إن مزية العواطف أنها تظللنا، ومزية

العلم أنه خال من العواطف.

واجترأت مسز فاندلور على الاشتراك في المناقشة وقالت في حياء:

- ولكن مسؤولياتنا خطيرة.

وأيدتها الليدي أجاتا قائلة.

- بل جد خطيرة.

فنظر اللورد هنري إلى مستر إرسكين وقال:

- إن الإنسانية تهتم بنفسها أكثر مما ينبغي، ويبدو أن هذه هي خطيئتنا

الأولى، فلو أن رجل الكهف تعلّم كيف يضحك لتغير مجرى التاريخ.

قالت الدوقة في تنغيم مضحك:

- إن حديثك ينزل على قلبي بردًا وسلامًا يا لورد هنري، فكلما جئت

لأعود عمّتك عنفني ضميري لقلّة اهتمامي بالإيست إند. أما وقد عرفت

رأيك فلن أخجل منها بعد الآن.

فقال اللورد هنري:

- إن الخجل يناسب السيدات يا سيدتي الدوقة.

فأجابت:

- نعم، إذا كنَّ في مستقبل العمل، أما مثيلاتي من العجائز فالخجل فيهن دلالة سيئة. واهَا على الشباب يا لورد هنري! هلا علمتني كيف أستعيد شبابي!

ففكَّر لحظة ثم سألها:

- أتذكرين حماقة كبرى ارتكبتها في شبابك يا سيدتي الدوقة!

قالت:

- أجل. بل أذكر حماقات وحماقات.

قال في لهجة جادة:

- إرتكبيها إذًا من جديد، فلن يستعيد إنسان شبابه إلا إذا ارتكب حماقاته من جديد.

فصاحت الدوقة قائلة:

- هذه نظرية جميلة، وسأعمد إلى تطبيقها فورًا يا لورد هنري.

قال السير توماس:

- بل هذه نظرية خطيرة!

وهزَّت الليدي أجاثا رأسها ولكن بدا عليها السرور. أما مستر إرسكين فأنشأ يستمع إلى اللورد هنري وهو يمضي في حديثه قائلاً:

- نعم هذا سر من أسرار الحياة الكبرى. فنحن اليوم نفتك بنا وباء نسميه التفكير السليم، وهو يدب في أعضائنا قليلاً قليلاً حتى يشلنا تمامًا فنموت، وعندما نفقد كل شيء ندرك أن أخطاءنا هي الأشياء الوحيدة التي لا نندم عليها في الحياة.

فضحك القوم.

فلما رأى أن الفكرة أعجبتهم أعطاهم المزيد منها. وطفق يلعب بها ويخرِّج منها شتى التخريجات ثم يستطرد، وما توشك أن تفلت من

يده الفكرة حتى يتلقفها من جديد. وهكذا اجتهد فيها حتى وضع عليها كل توابعه. واجتهد حتى طلاها ببريق الخيال وزودها بأجنحة التعبير السحري. وما أن فرغ من بيانه حتى أصبح تمجيد الحماقة بفضل فلسفة ناضجة، وأصبحت الفلسفة الناضجة بفضل عذراء بلقاء خضّب النيذ ثيابها وتوّج الغار رأسها تشناق إلى اللذة الحرام وترقص فوق تلال الحياة رقصه البنات الثمالي في أساطير اليونان وتعنف باخوس على صحوه واتزانه، ووطئت قدمها البيضاء حان الخيام حكيم الزمان وخاضتا في عصر العنب الذي فاض من حولها أنهارًا، وبللت صفائرها فقاقيع النيذ الأرجواني حين طفح زبده الأحمر على جوانب الدنّ السوداء وانحدر قطرة قطرة. وكان حديثه مبرجلًا لا أثر للتحضير فيه ولكنه ملك القلوب. وفيما هو يتكلم أحس بعيني دوريان جراي تحمقان فيه فذهب ذلك بجنانه وفتق ذكاه وجعله ينمّو ويجوّد ويحسن التأويل لعله يوقظ وجدانه ويأسر فؤاده. وتتابع عباراته زاهية الألوان رخيمة الأنغام خطيرة على السامعين. وفتن كلامه الحاضرين فنسي كل نفسه وراح يتبع هذا المزمارة الطروب ويرقص على أنغامه الجذلة. كل هذا ودوريان جراي لا يحول عنه عينيه، بل ثبت في مكانه كالمسحور يبتسم الرضا على شفّيته وتحملق الأحلام في عينيه.

وأخيرًا أفاقوا على الحقيقة. وكانت الحقيقة التي قطعت عليهم هذا الجو المرح هي خادم الدوقة. دخلت الحقيقة من الباب ترتدي ثياب العصر وأعلنت أن عربة الدوقة تنتظرها ففركت الدوقة يديها تتكلف غصص اليأس وقالت:

- يا للنكد! لا بد أن أنصرف لألتقي بزوجي في النادي ومن ثم أصحبه إلى اجتماع سخيف في بيت واليس ليرأس الاجتماع، ولو تأخرت عنه لغضب غضبًا شديدًا، وأنا الآن في حالة لا أحتمل معها الشجار. فيجب أن أنصرف يا عزيزتي أجاتا. الوداع يا لورد هنري. إنك لرجل ساحر

ومفسد للأخلاق ولست أدري كيف أستقبل آراءك هذه. لا بد أن تأتي للعشاء معنا في أقرب فرصة، أيناسبك يوم الثلاثاء؟ ما رأيك في يوم الثلاثاء؟

فانحنى اللورد هنري بأدب جم وقال:
- إنني لأبطل أي موعد في سبيل إرضائك يا سيدتي الدوقة.
فقالت:

- هذا كرم منك، ولكنه خطأ عظيم. مهما يكن من شيء فنحن في انتظارك. وخرجت الدوقة من الغرفة تتبعها الليدي أجاثا وسائر السيدات، ولمّا استعاد اللورد هنري مكانه انتقل مستر إرسكين إلى جواره وأمسك بذراعه قائلاً:

- إن كلامك يملأ المجلدات يا لورد هنري، فلماذا لا تضع كتاباً.
فأجاب اللورد هنري قائلاً:

- إن شغفي بالقراءة يجعلني أزهد في الكتابة يا مستر إرسكين. لا شك أنني أحب أن أضع قصة يوماً ما، قصة تشبه البساط العجمي في جمالها وغرابة تصميمها. ولكن الجمهور في إنجلترا لا يهتم إلا بالصحف وبالكتب المدرسية وبدوائر المعارف. إن الإنجليز أفسد أهل الأرض ذوقاً من الناحية الأدبية.

قال مستر إرسكين:

- أعتقد أن هذا صحيح لسوء الحظ، ولقد كانت لي أطماع أدبية منذ زمن طويل ولكنني طلقتها. والآن يا صديقي الشاب، هل لي أن أسألك إذا كنت حقاً تعتقد في كل ما قلته لنا أثناء الغداء؟

فابتسم اللورد هنري وأجاب:

- لقد نسيت ما قلته تماماً. أكان كلامي معيياً حقاً؟

- نعم، كان معيياً إلى حد كبير، وأنا أعددك رجلاً خطراً على المجتمع، ولو أصاب الدوقة مكروه لحملناك جميعاً تبعه ذلك. ولكنني مع ذلك أتوق

إلى استطلاع آرائك في الحياة، فالجيل الذي انتمي إليه جيل مُمِلّ. وإنه ليسرني أن تزورني في تريدلي يوم تزهّد في لندن. وفي تريدلي تستطيع أن تشرح لي فلسفة اللذة التي تبشر بها بين كؤوس النبيذ البورغوني النادر. - ذلك يسعدني حقًا يا مستر إرسكين، ففي زيارة تريدلي شرف عظيم لي. وسوف أجد فيها مضيّفًا كريمًا ومكتبة رائعة.

فانحنى مستر إرسكين بأدب وأجاب:

- إن مكتبتني لن تكمل إلا بك. والآن يجب أن أستاذن عمّتك الفاضلة في الإنصراف، لأن عليّ أن أكون في نادي الأثنيوم فقد حل موعد نوم الأعضاء.

- أتنامون جميعًا في النادي يا مستر إرسكين؟

- نعم. نحن أربعون عضوًا ننام في أربعين مقعدًا وثيرًا، ونحن بذلك نضع نواة أكاديمية أدبية.

ضحك اللورد هنري ونهض قائلاً:

- أما أنا فسأخرج للنزهة في هايد پارك.

وفيما هو خارج ضغط دوريان جراي على ذراعه وقال بصوت خافت:

- اسمح لي أن أراففك.

فقال اللورد هنري:

- ألم تعدّ بازيل هولوردد بزيارته؟

- هذا صحيح، ولكنني أفضل صحبتك، وشعوري يملي عليّ أن

أراففك فاسمح لي بذلك، وعدني بأن تتحدّث إليّ طوال الوقت فما من

أحد يجيد الحديث كما تجيده أنت.

قال اللورد هنري مبتسمًا:

- لقد تحدّثت اليوم بما فيه الكفاية، وكل ما أبغيه هو أن أستعرض

موكب الحياة، فتعال لتستعرضه معي إذا أحببت.

الفصل الرابع

مر شهر من الزمان. وكان دوريان جراي جالسًا في استرخاء على مقعد كبير وثير بمكتبة اللورد هنري في بيته بحي مايفير. وكانت المكتبة حجرة صغيرة أنيقة على طريقتها الخاصة، تكسو جدرانها ألواح من البلوط عالية، طلاؤها أخضر. ويزدان سقفها السمني وكورنيشها السمني بنقوش من المصيص البارز ويغطي أرضها بساط من الجوخ الأحمر فوقه عدد من السجاجيد العجمية ذات الشراريف الحريرية الطويلة. وعلى مائدة صغيرة بالحجرة وقف تمثال صغير لكلوديون⁽¹⁾ وإلى جانب التمثال كانت هناك نسخة من كتاب «القصص المائة»⁽²⁾ جلده كلوفيس إيث في الأيام الغابرة للملكة مرجريت دي فالوا، وعلى الكتاب وشي من الأقالص⁽³⁾ الذهبية التي اتخذتها الملكة شارة لها. وقد رُصت على رف المدفأة بعض الأواني الصينية الكبيرة الزرقاء. ونفذ الضوء في ذلك اليوم الصائف من النافذة فبدا لونه كلون البرتقال المنطفئ. ولم يكن اللورد

(1) كلود ميشيل (1738-1814) أو كلوديون: نحات فرنسي شهير.

(2) كتاب شهير، يحوي حكايات تم سردها على السنة رواد بلاط دوق برجاند فيليب الطيب.

(3) gilt daisies: نوع من الزهور منتشر في أوروبا، والملكة مارجريت دي فالوا هي ملكة فرنسا من سنة 1589 وحتى سنة 1599.

هنري قد عاد بعد إلى بيته، فقد كان من مبدئه أننا نضيّع العمر بالمواظبة، ولذا بدا على دوريان جراي شيء من العبوس وهو يقلب صحائف نسخة من قصة «مانون ليسكو»⁽¹⁾ محلاة بأجمل الصور وجدها على أحد رفوف المكتبة. وكانت بالحجرة ساعة دقاقة من طراز لويس الرابع عشر ظلت تدق دقًا منتظمًا أثار أعصابه، وخطر له مرة أو مرتين أن ينصرف، ولكنه سمع أخيرًا وقع أقدام في الخارج، وانفتح الباب فقال الفتى في صوت خافت:

- لقد تأخرت كثيرًا يا هاري!

ولكن صوتًا حادًا أجابه مصححًا:

- إن هاري لم يصل بعد يا مستر جراي.

فالتفت دوريان جراي إلى الباب بسرعة، وحين أدرك خطأه بادر

بالوقوف وقال:

- أطلب عفوك يا سيدتي، فقد حسبت...

- نعم، حسبت أن زوجي هو الداخل. اسمح لي أن أعرفك بنفسي

فأنا زوجة هاري، وقد عرفتك من صورتك لأنني رأيت صورًا منك كثيرة

وأظن أن زوجي قد جمع سبع عشرة صورة من صورتك.

- سبع عشرة صورة يا ليدي هنري؟

- هل أخطأت في العدد؟ لعله جمع ثمان عشرة. كذلك رأيتك معه

ليلة أمس في دار الأوبرا.

وضحكت السيدة ضحكة عصبية ورنّت إليه بعينين ناعستين وكانت

الليدي هنري امرأة غريبة حقًا، فثيابها تدل على اضطراب صانعها

واضطراب لابسها معًا. وكانت بلا انقطاع عاشقة بلا عشيق مما أبقى

(1) Manon Lescaut رواية قصيرة للمؤلف الفرنسي أنطوان فرانسوا بريفو. نُشرت سنة

على أوهامها عن الحب. ثم إنها كانت تتعمد الإهمال في ملبسها لتلفت الأنظار إلى جمالها فتلفت الأنظار إلى إهمالها، وكان اسمها فكتوريا. وكانت تتردد على الكنيسة بكثرة تدل على الجنون.

- إذا فقد رأيتني في دار الأوبرا؟ أظن أن ذلك كان ليلة «لوهنجرين» يا ليدي هنري.

- نعم، كان ذلك ليلة «لوهنجرين»، وأنا أحب فاجنر أكثر من أي موسيقي آخر، لأن ألحانه عالية الضجيج، وهذا يدع لي فرصة للكلام أثناءها من دون أن يسمع أحد شيئاً مما أقول، وهذه مزية كبرى. ألا توافقني على ذلك يا مستر جراي؟

وضحكت السيدة ضحكة عصبية ثانية، على حين أخذت أصابعها تعبت بنصل من النصال التي يقطع بها الورق صنع من ظهر السلحفاة، فابتسم دوريان وهز رأسه قائلاً:

- يؤسفني أن أختلف معك في هذا الموضوع يا ليدي هنري. فأن لا أتكلّم بتاتاً حين أسمع الموسيقى الجميلة. أما إذا كانت الموسيقى رخيصة فمن الواجب إسكاتها بالكلام.

- ولكن هذا رأي من آراء هاري يا مستر جراي، أليس كذلك؟ إن آراء هاري تصلني عن طريق أصدقائه، ولولا ذلك لما عرفت منها شيئاً. ولا تظن يا مستر جراي أنني أكره الموسيقى الجميلة، فأنا أقدّسها، بل أعبدها، ولكنها تخيفني. كذلك أقدّس الموسيقيين بل أعبدتهم، ولكن شغفت بعازفي البيانو حتى أن هاري كان ينبهني إلى أنني أعشقهم أزواجاً أزواجاً في بعض الأحيان. ولست أعرف ما يحملني على جهم، ولكن لعل منشأ حبي لهم أنهم أجنب، فعازفو البيانو جميعهم من الأجانب، أليس كذلك؟ حتى الإنجليز منهم يصبحون بعد قليل أجنب، أليس كذلك؟ وأعتقد أن هذه مهارة منهم كما أنها تحية للفن الذي يخدمونه، فهي تخرج به عن دائرة إنجلترا الضيقة وتصبغه بصبغة عالمية. أنت لم تحضر

أي حفلة من حفلاتي يا مستر جراي، ولا بد أن تشرفني مرة بزيارتك. وإذا حضرت حفلة من حفلاتي فلن تجد في بيتي أزهار الأوركيد، فهي غالبية الثمن إلى حدٍّ لا يطاق، ولكنك ستجد فيه كثيرًا من الأجانب لأن الأجانب يزينون البيت، وأنا أدعوهم باستمرار مهما غلا ثمنهم. ها قد جاء هاري! اسمع يا هاري. لقد جئت لأستفسر عن شيء ولكنني نسيت الآن ما جئت لأستفسر عنه، وقد وجدت مستر جراي هنا وتحدثنا عن الموسيقى حديثًا شهياً، وأعتقد أن آراءنا متشابهة تمامًا. كلا. إن آراءنا ليست متشابهة تمامًا بل مختلفة تمامًا. ولكنني سررت ببقياها على أية حال فقد كان مثال اللطف معي.

- أنا سعيد بذلك يا حبيبتي. نعم، سعيد. ولا تؤاخذني يا دوريان إذ اكنت قد تأخرت، فقد قصدت شارع واردور لأشتري قطعة من الدانتلا الأثرية، وضاعت مني ساعات طويلة في المساومة. إن الناس في هذه الأيام لا يعرفون قيمة شيء، ويعرفون ثمن كل شيء.
ثم حل صمت ثقيل فقطعته الليدي هنري بضحكتها الصبيانية الفجائية وقالت:

- لا بد أن أنصرف الآن، فقد وعدت الدوقة أن أرافقها في نزهتها. إلى اللقاء يا مستر جراي، وأنت يا هاري، إلى اللقاء. أعتقد أنك ستتناول العشاء خارج المنزل، فإذا كان الأمر كذلك فقد أراك في بيت الليدي ثورنبري.

قال اللورد هنري:

- أرجح ذلك يا حبيبتي.

وخرجت الليدي هنري على عجل وتركت وراءها عطرًا خفيفًا في جو الغرفة، فبدت كعصفور من عصافير الجنة هجر عشه طول الليل وبلله المطر. وأغلق اللورد هنري الباب وراءها ثم أشعل سيجارة وارتمى على إحدى الأرائك وقال وهو ينفخ الدخان في الهواء:

- أنصحك يا دوريان ألا تتزوَّج من شقراء.
- لماذا؟

- لأن النساء الشقراوات عاطفيات.
- ولكنني أحب النساء العاطفيات.

- إذا فلا تتزوَّج أبدًا يا دوريان، فالرجال يتزوجون حين يقتلهم الملل، والنساء يتزوجن من باب الفضول، ولكنهم جميعًا يندمون على ذلك.

- لا أعتقد أنني سأتزوَّج يا هنري، فأنا أحب، وحبِّي عاصف مدمر، ومن كان حبه عاصفًا مدمرًا لا يحق له أن يتزوَّج. هذه حكمة أخذتها عنك يا هنري، وها أنذا أطبقها تطبيقًا عمليًا كما أفعل بكل ما تقول.

وبعد صمت قليل سأله اللورد هنري قائلاً:

- ومن تكون هذه المحبوبة؟

فأجاب دوريان جري في خجل:

- إنها ممثلة.

فهز اللورد هنري كتفيه استخفافاً وقال:

- هذه بداية مبتدلة، وقد كنت أحسب أنك ستأتي بجديد.

- لا شك أن حكمك كان يختلف لو أنك رأيتها يا هاري.

- وما اسمها؟

- سييل فين.

- ما سمعت هذا الاسم قط.

- إنها الآن نكرة من نكرات المسرح ولكنها ستصبح علماً من أعلامه

يوماً ما، فهي فتاة نابغة.

- أنت تبالغ يا صديقي، فالنبوغ ليس من صفات النساء. إنما النساء

تحفُّ تزوين الحياة، فأدمغتهن لا تشتمل على فكرة واحدة ولكن

حديثهن ساحر. المرأة تمثل انتصار المادة على العقل والرجل يمثل انتصار العقل على الضمير.

- ما أقسى أحكامك يا هنري!

- أنا أقدر ما أقول يا صديقي، فأنا أشتغل الآن بتحليل نفسية النساء وقد وجدت الموضوع أوضح مما كنت أتوقع، فتحليلي دلني على أن هناك نوعين لا ثالث لهما من النساء: المرأة الطبيعية والمرأة المزججة. أما المرأة الطبيعية فلها فوائد جمّة، ويكفي أن يراك الناس تتعشى مع امرأة طبيعية حتى يصفوك بالوقار. أما المرأة المزججة فسحرها عظيم ولكن لها عيباً واحداً، وهو أنها تستعمل المساحيق لتغيّر من سنّها. لقد كانت جداتنا يستعملن المساحيق ليُجذّن فن الحديث، لأن أحمر الشفاه يلهب الذكاء، وقد انتهى ذلك العصر. أما اليوم فالمرأة لا يرتاح لها بال حتى تبدو أصغر من بنتها بعشر سنوات على الأقل. أما عن فن الحديث فقد فقدته نساؤنا، ولن نجد الآن في لندن كلها أكثر من خمس سيدات حديثهن يُشوّق، منهن اثنتان لا يسمح لهما بدخول الأوساط الشريفة. ولكن حدثني عن فتاتك النابغة هذه. متى عرفتها؟

- إن آراءك تخفيفني يا هاري.

- دعنا من هذا الآن. متى عرفتها؟

- منذ ثلاثة أسابيع تقريباً.

- وأين عرفتها؟

- سأروي لك حكايتها كاملة يا هاري، ولكنني أطلب منك أن تكون منصفاً، وتذكّر أنك السبب في كل ما حدث لأن حياتي تبدّلت منذ عرفتك لقد أثرت فيّ رغبة جامحة لمعرفة كل شيء، وظللتُ أياماً بعد لقائنا الأول يعذبني فضول شديد، فما من مرة جلست في هايدپارك أو مشيت متسكّماً في بيكاديلّي إلا وكنت أتفحص الغادين والرائحين وأفكّر في حياتهم الخاصة كيف تكون. وكنت أستريح إلى بعضهم وكان بعضهم

يملؤني جزعًا وهكذا انتشر في جو حياتي سم لذيذ وتفتحت حواسي لكل ما يرضيها. وحدث ذات مساء أن خرجت نحو الساعة الخامسة أنشد المغامرة، وأحسست أن لندن، مدينتنا البشعة الغبراء هذه بخلائقها الحاشدة وخطاياها الجميلة وخطاتها الأشقياء كما وصفتها أنت مرة يا هاري، أحسست أن هذه المدينة قد خبأت لي في مجاهلها شيئًا. جاء بيالي ألف خاطر وخطر، وأحسست بالخطر يدنو فأذكي إحساسي بالخطر إحساسي بالحياة، وتذكرت قولك لي يوم تعشنا معًا أول مرة إن سر الحياة الحقيقي هو البحث عن الجمال. ولم أكن أطلب شيئًا بعينه بل مضيت أتجول شرقًا ثم ضللت طريقي في تيه معقد من الشوارع المظلمة والميادين السوداء الجرداء. فلما بلغت الساعة الثامنة والنصف وجدني أمام مسرح مهمل صغير مصابحه عالية وإعلاناته خالية من الذوق، ورأيت ببابه يهوديًا يلبس صدارًا لم أر مثله في حياتي ويدخن سيجارًا قدرًا، وعلى صدره تدلت سلسلة كستها المواد الدهنية ولمعت ماسة ضخمة وسط قميصه. وحين وقع بصره عليّ رفع قبعته في تذلل عظيم وهتف بي قائلاً: «أترغب في مقصورة يا سيدي اللورد؟» فجذبني منظره لأنه بدا كالوحش الضاري، ونقدته جنيهاً كاملاً ثم وجدت طريقي إلى المقصورة الأمامية. ولعلك تسخر من مسلكي العجيب هذا، ولكني لا أعلم ماذا حملني على الدخول. ومع ذلك فلو لم أدخل يا صديقي لفاتنتني أجمل تجربة مرت بي في حياتي. ها أنت تضحك سخرية مني فما أقساك يا هاري.

- لست أضحك، أقصد لست أضحك سخرية منك، ولكن لا تقل أجمل تجربة مرت بك بل قل أول تجربة. فسوف تجد دائماً من تحبك، وسوف نطلب الحب لذاته دائماً. فالعواطف الصاخبة حكر على أمثالنا من المتبطلين وهي المبرر الأوحده لوجود أرستقراطية خاملة. فلا تخش شيئاً يا دوريان لأن المستقبل يخبي لك السعادة التي تنشدها، وما هذه إلا البداية.

فقال دوريان جراي غاضبًا:

- أتحسبني تافه العاطفة إلى هذا الحد؟

- كلا. بل أحسبك قوي العاطفة إلى حد كبير.

- ماذا تعني؟

- اسمع يا بنيّ إنما يؤمن بالتخصُّص أصحاب العقول التافهة. وما يسمونه بالوفاء أسميه أنا الكسل الناجم عن العادة أو أسميه فقراً في الخيال، حسب الحالة. إن الإخلاص في الحياة العاطفية يشبه انتظام التفكير في الحياة العقلية، وكلاهما أمانة الفشل. ما هذا الوفاء الذي يتحدث عنه الناس! لا بد أن أحلله يوماً من الأيام. إنه يقوم على غريزة الملكية وكم من شيء لا نجد بأسًا من لفظه لولا خوفنا من أن يلتقطه الآخرون ولكن امضِ في روايتك فأنا لا أحب أن أقاطعك.

- أقول وجدتني جالسًا في مقصورة صغيرة قبيحة المنظر ووجدت أمامي على المسرح مباشرة ستارًا عليه نقوش مبتذلة، وأجلت بصري في جنبات الدار من وراء ستار مقصورتني فوجدتها دارًا حقيرة تزينها رسوم سخيفة لكوييد وما شاكل ذلك. وكانت الصالة والشرفات ملأى بالنظارة ولكن المقاعد الأمامية كانت خالية تمامًا. وكنت ترى بائعات البرتقال، وشراب الليمون يجلس بين الحضور، وكنت تسمع الحضور يقشرون الفول في جلبة لا حد لها.

- ما أشبه هذا المسرح بمسرح شكسبير!

- أعتقد أنه يشبهه من كل الوجوه، ولكن نفسي ضاقت به، ولم أدر ما يجب عليّ أن أفعله، ثم لمحت فجأة لوحة كُتب عليها اسم الرواية. فماذا تظنها كانت يا هاري؟

- لعلها كانت رواية «الأبله» أو رواية «المغفلة البريئة» فأباؤنا كانوا يحبون هذا النوع من المسرحيات، وأنا في كل يوم أزداد اقتناعًا بأن ما كان يصلح لأبائنا لم يعد يصلح لنا، سواء أكان ذلك في الفن أو في

السياسة. والمثل الفرنسي يقول «الأجداد دائماً مخطئون».

- ولكن الرواية كانت «روميو وچوليت» وهي من الروايات التي تصلح لنا يا هاري. وأعترف لك بأن فكرة تمزيق شكسبير في ذلك الجحر القذر ضايقتني كثيرًا، بيد أنني قرّرت أن أشاهد الفصل الأول. وسبق التمثيل قطع موسيقية عزفتها فرقة مزعجة على رأسها شاب يهودي ظل يدق على بيانو مهشّم حتى كدت أنصرف من فرط غيظي. ولكن الستار ارتفع أخيرًا، وبدأ التمثيل، وخطر روميو على المسرح فأذا به كهل بدين يشبه برميل البيرة، له حاجبان مضحكان وصوت أجش يصلح فعلا لتمثيل المآسي. ولم يكن مركوشيو بأحسن حالاً من روميو، فقد كان يقوم بدور مركوشيو مضحك رخيص كثيرًا ما زجّ بين سطور شكسبير فكاهات من عنده، كما أنه كان يعطلّ التمثيل أحيانًا ليتبادل الفكاهات مع الجمهور. نعم، كان روميو ومركوشيو جديرين بالسخرية، كما كان المنظر ذاته جديرًا بالسخرية، فقد بدا بيت السيد كايوليت بفيرونا كأنه بيت من بيوت الفلاحين. ولكن چوليت كانت آية عجبًا يا هاري! كانت دون السابعة عشرة يشبه وجهها الصبوح المستدير الزهرة المتفتحة ويشبه رأسها الصغير الدقيق إلهة من آلهة اليونان ذات صفائر لا هي بالسوداء ولا هي بالشقراء. أما عيناها فقد كانتا ينبوعين يفيضان بالعواطف السخية، بل كانت بنفسجتين يترجرج فيهما قطر الندى، وأما شفاتها فهما أوراق الورد. نعم، كانت چوليت آية عجبًا. وأنت القائل إن مشهد الأسي لا يحرك فيك ساكنًا، وإن مرأى الجمال وحده هو الذي يزلزل كيائك ويجمع في عينيك العبرات. فلتصدقني إذا يا هاري حين أقول إنني ما كدت أرى هذه الفتاة حتى استعبرت عيناها فحجبتها عني ضباب المُقل. كذلك كان صوتها آية عجبًا، بدأ خفيصًا حنونًا، رخيم النبرات يكاد كل من يسمعه يخال أنها تتكلم له وحده، ثم ارتفع قليلًا فحسبته صوت ناي شجي بعيد. فلما جاء مشهد الحديقة وما دار فيها من مناجيات الغرام

البرئ ارتعش صوتها من فرط السعادة فجاءني كأغاريد البلابل في مطلع الصباح. ولكنه علا واضطرب حتى بلغ طبقة الجنون. وأنت تعلم يا هاري ما للصوت من وقع في النفس، فصوتك وصوت سييل فين لا سييل إلى نسيانهما، وكلما أغمضت جفني سمعتك تتكلم وسمعتها تتكلم ولكن شتآن بين ما تقولان، ولست أدري أيّ الصوتين أتبع! لست أرى ما يمنعي عن حبها، وإنني لأحبها من أعماق قلبي فهي كل ما بقي لي في الحياة. وأنا أسعى لرؤيتها كل ليلة، فهي أنا تلعب روزاليند وأنا تلعب إيموجن، ولقد رأيتها تموت في قبر دامس بإيطاليا وترشف السم من شفتي حبيبها ولقد رأيتها تجوس خلال غابة آردين متخفية في زي صبي جميل يلبس تزلوكاً⁽¹⁾ وصداراً وقبعة أنيقة. رأيتها وقد جثت في حضرة ملك فاجر تهديه إكليلاً من الأشواك يحز في جبينه وباقه من الأعشاب المرة تنغص عليه مذاق الحياة. كذلك رأيتها في ثياب ديدمونة الطاهرة وقد أطبقت على جيدها البض يد الغيرة السوداء. نعم، لقد رأيتها في كل زي وفي كل عصر. إن النساء التافهات لا يلهبن الخيال لأنهن مشدودات إلى جيلهن بوثق من حديد. ومهما أضيفت عليهن من السحر فلن يتبدل فيهن شيء لأن طبيعتهن خالية من الأسرار، لأن ابتسامتهن مدروسة ثابتة لا تتجدد، لأن حياتهن بركة ضحلة آسنة فصباحهن نزهة في هايد پارك وعصرهن لغو حول فناجين الشاي، لأنهن يتبعن أحاديث النماذج في الزي وفي قواعد السلوك، لأنهن دائماً في انتظارك، فأني لغز في كل هذا يجذبنا ويثير فضولنا؟ أما الممثلات فهن من جبلة مختلفة. أي هاري!

لماذا لم تعلمني أن حب الممثلات هو أقيم ما في الحياة.

- لم أعلمك ذلك يا دوريان لأنني أحببت منهن عددًا كبيرًا.

- أظنك أحببت ذلك النوع ذا الشعر المصبوغ والوجه المدهون.

(1) حذاء طويل الرقبة، ضيق على الساق

- وما ضرر الشعر المصبوغ والوجه المدهون؟ إن سحرهما عظيم في بعض الأحيان.

- ليتني لم أحدثك في موضوع سييل فين.

- هذا مستحيل يا دوريان، فلن تستطيع أن تكتم عني شيئاً بعد الآن.

- هذا صحيح يا هاري، فسلطانك عليّ عظيم، وهو يرغمني على الإفشاء لك بكل شيء. ولو أنني ارتكبت جريمة لقصدتك واعترفت بها أمامك، لأنك تفهمني وتقدر عواطفني.

- إن أمثالك من الناس يا دوريان هم النور الذي يجلو ظلام الحياة، وأنتم لا ترتكبون الجرائم، ومع ذلك فأنا سعيد بهذه المجاملة. إليّ بعلبة الكبريت. والآن إلى أي حد وصلت مع سييل فين؟

فنهض دوريان جرائي غاضباً وقال:

- هذا اجترأ منك يا هاري. إن سييل فين قدسٌ حرام!

أجاب اللورد هنري في حنان غريب:

- وهل غير الأقداس المحرمة يستحق أن نلمسه؟ ثم إنني لا أفهم معنى لغضبك، فسييل فين ستكون ملكاً لك عاجلاً أو آجلاً، وإن العاشق لبدأ غرامه بخداع نفسه ويختمه بخداع الآخرين، وهذا هو ما يسمونه الحب. أعتقد أنك على الأقل تعرّفت بها.

- طبعاً تعرّفت بها، فبعد انتهاء التمثيل في الليلة الأولى جاءني اليهودي وعرض أن يستصحبني إلى غرف الممثلين ليعرفني بچوليت فثارت ثائرتي وزجرته قائلاً إن چوليت قد ماتت منذ قرون، وأن جثتها مدفونة في قبر من المرمر بڤيروننا. ولما أن سمع هذا الكلام بدت على وجهه أمارات الحيرة، ولعله حسب أنني كنت ثملاً.

- هذا طبيعي.

- قال: «أكتب في الصحف؟» قلت: «لا أكتب فيها ولا أقرأها» فبدأ عليه غمٌ شديد وأسرّ إليّ قائلاً إن جميع نقاد المسرح يتآمرون عليه وأنهم

بلا استثناء قوم مرتشون.

- أعتقد أن رأيه فيهم صحيحًا. ولكن مظهرهم الرث يدل على أن ثمنهم ليس كبيرًا.

فضحك دوريان جراي وقال:

- ولكنني فهمت من كلامه أن ثمنهم أبهظه. مهما يكن من شيء فقد رأيت أنوار المسرح تنطفئ حين بلغنا هذه المرحلة من الحديث، وكان لا بد لي من الانصراف، فألح عليّ في أن أدخن سيجارًا كان يعتقد في جودة نوعه ولكنني أبيت. وفي الليلة التالية قصدت المسرح ثانية فلمّا رأني انحنى حتى كاد أن يقبل الأرض بين يدي وأنشأ يؤكد لي أنني حامٍ من حماة الفنون كبير. وكنت أتأذى من منظر هذا الرجل ولم يشفع له عندي إلا تفانيه في حب شكسبير. فقد قال لي ذات مرة في شيء من الزهو إن إفلاسه أشهر خمس مرات وفي كل مرة كان شكسبير هو السبب، كأن في ذلك شرفًا له.

- نعم، إنه شرف مؤكد يا صديقي، بل شرف عظيم. فعامّة الناس يفلسون طمعًا في نثر الحياة، ومن جر الشعر عليه الخراب فهو بطل كريم. ولكن متى كان أول لقاء بينك وبين الأنسة سييل فين؟

- كان ذلك في الليلة الثالثة، وكانت تلعب دور روزاليند فألقيت إليها بعض الأزهار لأظهر إعجابي بها واختصتني بنظرة أو خيّل إليّ أنها اختصتني بنظرة. وأخيرًا لم يسعني إزاء إصرار اليهودي إلا أن أرافقه إلى غرف الممثلين. ألا ترى أن رغبتني عن لقائها كانت غريبة حقًا؟

- كلا، لست أرى ذلك؟

- وما السبب؟

- فلننس هذا الآن ولنؤجله إلى وقت آخر. إنما أحب أن أسمع بقية حديثك عن هذه الفتاة.

- كانت خجولًا لا جد لخجلها، رقيقة لا حد لرقتها، تشبه الأطفال في

براءتها، أما عيناها فقد استجابتا لإطرائي في دهشة ساحرة حين ذكرت لها رأيي في مواهبها الفنية، فعلمت أنها لم تكن تعرف قدر نفسها. وكنا كلانا مضطربين يرنو أحدهما إلى الآخر في سداجة كأنه طفل غرير، على حين وقف اليهودي العجوز بباب الغرفة يتمدّح بشمائلي ويتمدّح بشمائلها، ولا ينفك يلقبني بسيدة اللورد حتى اضطررتني أن أوكد لسبيل فين أنني لست من أهل الألقاب، فقالت في سداجة. «أنت عندي أشبه بأمر منك بلورد وسأسميك الأمير الساحر».

- أقسم لك يا دوريان أن الأنسة فين تحسن المجاملة.

- إنك تسيء فهمها يا هاري، فما أنا في نظرها إلا بطل من أبطال المسرحيات. إنها تجهل الحياة جهلاً تاماً، فهي تعيش مع أمها وهي عجوز فانية رأيها أول ليلة تلعب دور الليدي كاپوليت في «روميو وچوليت» ويبدو لي أنها كانت أحسن حالاً فيما مضى من الأيام.

قال اللورد هنري وهو يعبث بخواتمه:

- نعم، هذا الطراز من النساء ليس غريباً عني.

- لقد أراد اليهودي أن يقص عليّ ماضيها ولكنني أفهمته أن هذا لا

يهمني.

- حسناً فعلت، فمآسي الآخرين فيها دائماً ما يثير في النفس الامتعاض.

- إن سبيل فين هي كل يهمني في الموضوع، أما نشأتها فلا تعينني.

وهي عندي ملك هبط من السماء، وأنا أسعى إليها كل ليلة لأراها على المسرح فيزداد كل ليلة بهاؤها.

- وهذا بالطبع يفسر انقطاعك عن العشاء معي في هذه الأيام. لقد جال

ببالي أنك تمر في اختبار جديد ولكنني كنت أتصوره مع نوع آخر.

- نحن نتغذى معاً كل يوم يا هاري فإن فاتنا ذلك جثتك في أعجاز

الليل، وقد رافقتك مراراً إلى دار الأوبرا.

- ولكنك تتأخر في المجيء كثيراً.

- وما حيلتي في ذلك؟ إنني أذهب كل ليلة لأراها تمثّل، وقد انصرف بعد فصل واحد ولكنني لا أتخلف، لأنني أظماً إلى رؤيتها كل مساء وكلما فكرت في الروح الصافية التي تسكن جسدها العاجي الجميل ارتجفت رهبة.

- أستطيع أن تتعشى معي الليلة يا دوريان؟

هز دوريان رأسه وأجاب:

- كلا، فهي الليلة إيموجن، وهي غداً جوليت.

- ومتى ستكون سيبيل فين؟

- هذا لا يحدث مطلقاً.

- إذا فاقبل تهانني.

- ما أقساك يا هاري! إنها ليست شخصاً واحداً بل هي جميع بطلات الخيال تركّزن في شخص واحد. إنك تسخر مني ولكنني أؤكد لك أنها فتاة موهوبة، وأنا أحبها ولا بد أن أجعلها تبادلني حبي. وأنت يا من قرأت رموز الحياة وطالعت أسرارها لا تنهني عن حبها بل علمني رقية أستطيع أن اسرّ بها فؤاد سيبيل فين. أريد أن أثير الغيرة في قلب روميو. أريد أن أهنأ معها ليشقى شهداء الغرام بهنائنا. أريد أن أهنأ معها لتحرق أنفاسنا الملتهبة رميمهم البارد المتآكل. اللهم غفرانك! إن حبي لها قد بلغ مبلغ الوثنية.

وفيما هو يقول ذلك كان شديد الاضطراب يقطع أرض الغرفة جيئة وذهاباً وقد اشتعلت في خديه نار حامية.

وكان اللورد هنري يتأمّله في سرور خفي فقد رأى الصبي الخجول المنكمش الذي عرفه في استديو بازيل هولورود يتحوّل إلى فتى ذي شخصية وإرادة. لقد نمت روحه كما تنمو الزهرة وتفتّحت أوراقها حمراء كالسنة اللهب. نعم. لقد أطلت روحه من مخبئها العميق حيث لا يراها أحد واندمجت في الجسد الملتهب بالأشواق، فأصلتها أشواق الجسد نازراً.

قال اللورد هنري أخيرًا:

- وعلام أزمعت؟

تعال معي إلى المسرح أنت وبازيل هولوردد، لتشهدا تمثيلها، وأنا واثق من النتيجة تمامًا فما من شك في أنكما ستقنعان بأنها فتاة موهوبة. وبعد ذلك لا يبقى إلا أن نتشلها من برائن اليهودي فهي مرتبطة معه بعقد مدته ثلاث سنوات بقيت منها ستان وثمانية شهور، ولا بد أن أعوضه بالمال عن فسخ العقد. وحين يتم لي ذلك استأجر لها مسرحًا في الوست إند وأظهرها للناس بما يتناسب مع كفايتها، ولسوف يجن بها الناس جنوني بها.

- هذا محال يا دوريان.

- نعم. سوف يجن الناس بها، فهي تملك الشخصية الناجعة فضلًا عن استعدادها الفني وتمكّنها من أصول التمثيل. ولقد قلت لي في أكثر من مناسبة إن عصرنا تسيّره الشخصيات لا المبادئ.

- إذا كان الأمر كذلك فمتى نذهب.

- اليوم يوم الثلاثاء، فليكن موعدنا ليلة الغد فهي تمثل جوليت.

- اتفقنا إذًا، وليكن لقاءنا بمطعم بريستول في الساعة الثامنة وسأتيك ببازيل.

- بل في السادسة والنصف يا هاري، فلا بد أن نكون هناك قبل رفع الستار. نعم، لا بد أن تراها في الفصل الأول حين تقابل روميو.

- ماذا دهاك يا هذا؟ إن شهود التمثيل في السادسة والنصف عمل لا تستسيغه النفس كأكل اللحم مع الشاي أو قراءة القصص الإنجليزية. فلنلتق في الساعة السابعة وإلا فلا، فما من چنتلمان يتعشى قبل السابعة.

أينا يتصل ببازيل؟

- مسكين بازيل، فأنا أعامله أسوأ معاملة، وقد احتجبت عنه أسبوعًا كاملًا، وهذا جحود مني شديد لأنه أرسل إليّ صورتي بعد أن وضعها

داخل إطار جميل صمّمه بنفسه، وأنا جد سعيد بهذه الصورة رغم أنني أغار منها، فهي تصغرني بشهر كامل. ولعله حائق عليّ فمن الأصوب أن تكتب أنت إليه بهذا الموعد، وأنا أكره أن أواجهه وحدي وأضيق بكثير من حديثه لأنه لا ينفك يسدي إليّ نصائحه الأخلاقية.

فابتسم اللورد هنري وقال:

- إن الناس يجودون للغير بما هم في أمسّ الحاجة إليه، وهذا ما أسميه الكرم الذي زاد عن حده فانقلب إلى ضده.

- ولكن بازيل خير من عرفت من الرجال رغم أنه محدود الأفق بعض الشيء، وقد أدركت ذلك فيه منذ أن عرفتك يا هاري.

- إن بازيل يضع كل صفاته الجذّابة في عمله، وبذلك لا يتبقّى لنا منه إلا أحكامه الفاسدة ومبادئه القويمة ومنطقه السليم. وما عرفت فنأناً قط جذّاب الشخصية إلا وكان تافه الفن، أما كبار الفنانين فأشخاصهم تفنى تمامًا في عملهم فلا يبقى للعالم من أشخاصهم ما يثير اهتمام أحد. والشاعر الفذّ، أقصد الشاعر الفذّ بمعنى الكلمة، رجل خلت حياته من الشعرية. أما صغار الشعراء فيسحرون الدنيا بشخصياتهم العجيبة، وكلما انحطت قوافيهم ارتفعوا في عيون الناس، حتى لتجد أن مجرد نشر ديوان من الشعر الركيك يجعل من صاحبه شخصية تأسر القلوب. فصغار الشعراء يمارسون الشعر الذي عجزوا عن قوله، وكبارهم يقولون الشعر الذي خافوا من ممارسته في الحياة.

قال دوريان جراي وهو يصب شيئًا من العطر على منديله من زجاجة كبيرة على المائدة غطاؤها ذهب خالص.

- أصحيح ما تقوله يا هاري؟ لا بد أنه صحيح لأن كل ما تقوله صحيح. والآن يجب أن أنصرف. فأيموچين في انتظار. وداعًا، ولا تنسَ موعد الغد.

ولما انصرف دوريان جراي أغمض اللورد هنري جفنيه الثقيلين

واسترسل في التفكير، وكانت الصلة بينهما موضوع تفكيره. وجد اللورد هنري أن اهتمامه بدوريات جراي أكيد لا شك فيه، ومع ذلك فإن اهتمام دوريات جراي بشخص آخر لم يثر في نفسه لواعج الغيرة كما أثار من قبل في نفس بازيل هولوردد، بل أثار فيها الغبطة والسرور. وكان يجد لذة في دراسته فازدادت بذلك لذته. لقد كان اللورد هنري شديد الإعجاب بمنهج التاريخ الطبيعي ولكنه كان يجد أن مادة هذا العلم مادة تافهة لا قيمة لها. لم يكفه تشريح الحشرات فبدأ بتشريح نفسه وأنتهى بتشريح الآخرين، وامتلاً إيماناً بأن الحياة الإنسانية هي كل ما يستحق الدراسة على وجه الأرض، وأن كل ما عداها ثانوي إذا قيس بها. ولكن دراسة الحياة الإنسانية لا ريب تؤثر في صاحبها، ولقد تعصف به عصفاً شديداً. فمن يتأمل النفس الإنسانية تنصهر في البوتقة بنار الألم أنا وبسعر اللذة أنا لا يستطيع أن يحتفظ بهدوئه كأن على وجهه قناعاً من زجاج جامد، ولا يستطيع أن يمنع دخان العواطف المتأججة من أن يملأ شعاب رأسه بالأحلام البشعة المزعجة والأوهام الكدرة السوداء. إن في الحياة سموماً عجيبة لا سبيل إلى معرفة خواصها إلا أن تتسمم بها النفس، وإن في الحياة أمراضاً غريبة لن يفهمها بنو الإنسان إلا إذا نزلت بهم ثم خرجوا منها ناقهين. ولكن ثمرة الاختبار شهية، والحياة حلوة مذاقها لمن عرف حقيقتها. وما ألد أن يتأمل الإنسان العاطفة الرقيقة تقسو حتى تصير كالصارم المشحوذ والعقل الغليظ يرقّ وتضفي عليه العاطفة جميل الألوان، ويرى كيف يلتقيان وكيف يفترقان! إن الثمن الذي ندفعه لنظير بهذه التجربة بخس مهما علا ولو جُذنا بالحياة ذاتها. فالإحساس أثنى ما في الوجود، وفي سبيل الإحساس يهون كل شيء.

كان اللورد هنري يعلم أن كلماته المختارة ذات الجرس الجميل هي التي جعلت روح دوريات جراي تتجه إلى هذه الفتاة الصغيرة وتمثل أمامها في خشوع، وحين فكر في ذلك أضاء في عينيه بريق السرور. فكان

يحسّ بأنه خلق هذا الفتى خلقًا جديدًا بعد أن كان محض حلية أنيقة تكمل جمال الصالونات وأنه أنضج قبل الأوان. إن عامة الناس ينتظرون حتى تكشف الحياة لهم عن خباياها، أما الأفلون، وهم الأصفياء، فيرون خبايا الحياة قبل أن يسقط عنها الحجاب. وما هذه وظيفة الفن بل وظيفة الأدب على وجه التخصيص لأنه يتصل رأسًا بالعقل وبالعاطفة. ولكن الحياة تجود من أن لآخر بشخصية فذة معقدة تؤدي وظيفة الفن، وهذه الشخصية الفذة المعقدة هي في ذاتها أثر فني صاغته يد «الحياة»، وما الحياة بأقل قدرة على الخلق من الشعراء أو الرسّامين أو المثّالين. فلا عجب أن تخلق الحياة النماذج البشرية الرائعة.

نعم، إن الفتى قد نضج قبل الأوان، وما هو ذا يجني الثمار وهو بعد في باكورة الربيع، تضطرم فيه حرارة الشباب ويجري دمه الدفّاق. ولكن دوريان جراي قد بدأ يعي ما يحدث له. ولذا كان تطوره متعة كبرى لمن يتبعه عن كثب. فهو جميل المحيا، جميل الروح، وهو فتنة للناس، فسيّان أن تطيب نهايته أو تسوء. فما كان أشبهه بشخص سحري في مسرحية سحرية نرى أبطالها يرفلون في حلق السعادة فلا نهتز لأفراحهم، ثم تنزل بهم الكروب فتشجينا أحزانهم وتبدو لنا جراحهم كالورود الحمراء.

عجبًا للروح وعجبًا للبدن! عجبًا للبدن وعجبًا للروح! إن الروح لا تخلو من المادية، والمادة تعرف لحظات الوجد الروحي. ولقد تسمو الحواس وتصفو، ولقد يظلم العقل ويكفهر! وهل منا من يعلم أين تنتهي نوازع الجسد وأين تبتدئ نوازع الروح؟ إن التعاريف التي يتفضّل بها علينا علماء النفس تعاريف أولية لا تنهض على أسس مكيّنة، ونحن مع ذلك لا نستطيع أن نتصر لفريق منهم على فريق. والسؤال الذي سأله الإنسان منذ القدم لا يزال بلا جواب. ترى هل الروح شبح يسكن الجسد، بيت

الخطيئة؟ ترى هل الجسد كائن في الروح كما قال جيوردانو برونو⁽¹⁾؟ إن فصل الروح عن المادة لغز قد حيرَ ألبابنا كما أن زواج الروح بالمادة لغز بلبل أفهامنا.

ثم بدأ يتساءل عمّا إذا كان في وسع الإنسانية حقًا أن تجعل من علم النفس علمًا بالمعنى الموضوعي الكامل، علمًا يفسر لنا كل نبضة من نبضات الكائن الحي. فنحن إلى هذه اللحظة نخطئ في فهم أنفسنا ولا نصيب في فهم الآخرين إلا قليلًا، وليس للاختبار أية قيمة أخلاقية بيننا، فهو لا يتجاوز أن يكون كلمة نطلقها على ما نرتكبه من أخطاء. أما علماء الأخلاق فقد دأبوا على تصوير الاختبار على أنه تحذير للمستقبل من أغلاط الماضي، وتقويم لا بد منه في تكوين الشخصية، وتنويه لنا بما يجب أن نتبعه وما يجب أن نتجنبه في الحياة. ولكن الاختبار ليست له قوة غائبة فهو عمل سلبي يوجد دون أن نسعى إليه كالضمير الذي يتكوّن فينا سواء بسواء، وكل ما تعلمناه من هذا الدرس هو أن مستقبلنا لا يختلف البتة عن ماضينا، وأن الخطيئة التي ارتكبتها مرة على مضمض نرتكبها مرارًا في شوق وإقبال.

وكان اللورد هنري يؤمن بأن المنهج التجريبي هو المنهج الوحيد الذي نستطيع أن نحلل به العواطف تحليلًا علميًا. ولا شك أن دوريان جراي كان موضوعًا صالحًا للتجربة فهو رهن إشارته في كل وقت، وهو يتوقع من هذه التجربة التي يجريها عليه أغنى الثمار. فحب دوريان جراي لسبييل فبين كان ظاهرة نفسية لها خطرها، ولا جدال في أن دافع الفضول كان عنصرًا هامًا في هذا الغرام الغريب، وأن الشوق إلى اختبار

(1) جيوردانو برونو (1548-1600): فيلسوف إيطالي، كان راهبًا ودرس اللاهوت أولاً ثم تحول إلى الفلسفة، اعتنق نظرية كوبرنيكوس عن دوران الأرض، ورأى أن النظام الشمسي هو مجموعة من أنظمة عديدة تغطي الكون. سُجن لثمانين سنوات ثم قُطع لسانه وأحرق متهمًا بالهرطقة. نالت أبحاثه اهتمامًا كبيرًا بعد مقتله.

الحياة ساقه إليه سوقاً. ولكن الاكتفاء بهذا الوصف تبسيط لهذه العاطفة المركبة. لقد تحولت بفعل الخيال أشواق الجسد التي تعذب يفاعته إلى شيء لا أثر للجسد فيه فهو إذاً يتوهم هذه الروحانية توهمًا، وهذا يجعلها أبلغ خطرًا. كذلك تولدت فيه عواطف، عواطف كم استبدت بنا وكم خاتلنا أنفسنا في حقيقتها ومنشئها. فإن أتفه العوامل التي تحركنا لهي العوامل التي نعيها ونستقصيها، وما أكثر ما يحدث أننا نجري التجارب على أنفسنا حين نظن أننا نجريها على الآخرين.

وفيما كان اللورد هنري سابقًا في تأملاته هذه طرق خادمه الباب ثم دخل ليذكره بأن وقت العشاء قد أزف وأن عليه أن يستبدل ثيابه استعدادًا لحياة المساء. فنهض وأجال بصره في الشارع فوجد أن الشفق قد ضرج النوافذ العليا في المنازل المقابلة بذهب أحمر، فتوهج زجاجها كأنه ألواح من معدن مصهور. وبدت السماء حمراء كالوردة الذابلة فتذكر الحياة الحمراء التي يحياها صديقه، وعجب للنهاية كيف تكون.

وحين عاد إلى بيته بعد منتصف الليل وجد برقية تنتظره على مائدة القاعة فضّصها وقرأها، فإذا بها من دوريان جراي وإذا بها تنبئه بأن دوريان جراي قد عقد خطبته على سيبيل ثين.

الفصل الخامس

دفنت سيبيل فین وجهها في حجر أمها العجوز الفانية، وكانت أمها العجوز الفانية تجلس في مقعد كبير لم يكن بالغرفة مقعد سواه، ظهرها لبصيص النور الذي تسلل كالمطفل في تلك الغرفة الموحشة، وهمست الفتاة قائلة:

- ما أسعدني يا أماه! إني سعيدة وينبغي أن تقاسميني سعادتني .
فأفاقت مسز فین ومسحت بيدها البيضاء على رأس ابنتها وقالت:
- أنا لا أذوق السعادة يا سيبيل إلا حين أراك تمثلين، فلا تفكري في شيء خارج عملك، لأن مستر إيزاك رجل من أهل المروءة وقد أقرضنا مالا كثيرا.

فتجهّم وجه الفتاة ورفعت رأسها قائلة:
- ولكن ما قيمة المال يا أماه؟ إن الحب أهم من المال.
- لا تنسي أن مستر إيزاك أقرضنا خمسين جنيهاً لنسدّد بها ديوننا ولنشتري الكساء اللازم لأخيك جيمس، وهذا ليس بالمبلغ الهين. إن مستر إيزاك شهيم كريم.

فنهضت الفتاة ومشت نحو النافذة وقالت:
- لست أرى فيه صفات الچنتلمان، وهو يحدثني بأسلوب بغيض.
قالت العجوز في تذمّر:

- وماذا يكون حالنا بدونه؟

فهزت سيبيل فین رأسها وقالت ضاحكة:

- لم تعد بنا حاجة إليه يا أماء، فالأمير الساحر سيدبّر لنا أمرنا بعد اليوم.
ثم سكتت وتورّد خذاها واضطربت أنفاسها وارتعشت شفتاها
وانفرجتا. لقد هبّت عليها ريح الجنوب الساخنة فألهبتها وعبثت بطيات
ثوبها الجميل. قالت في بساطة:

- أنا أهواه!

فأجابتها أمها في إصرار البيغاء:

- يا لك من طفلة حمقاء! يا لك من طفلة حمقاء!

وتحرّكت أصابعها المعوجة الناحلة وتحركت معها خواتمها ذات
الفصوص الزائفة. وكانت إشارتها مضحكة لغرابتها فضحكت الفتاة
ثانية، وكان صوتها الغرد يشبه صوت عصفور حبيس. وضحكت عيناها
كذلك وعبرتتا عن سعادتها ببريق، ثم غصّت الفتاة طرفها كأنها تريد أن
تخفي عن أمها سرًا. ثم فتحت عينيها فإذا هما مخضلتان بندى خفيف
هو ندى حلم عبر.

وتكلّمت أمها العجوز بشفتين باليتين من مكانها في المقعد البالي
فجاء صوتها كصوت ربة الحكمة وذهبت تنصح ابنتها بألا تجازف بشيء
وتعدّد لها الأقوال المأثورة التي تحض على طلب السلامة من كل ما
تتعلمه في كتاب العجين ويقرّه المجتمع باسم التفكير السليم، فلم تلق
الفتاة بالألشيء مما سمعت، فقد كانت في شغل بغرامها القوي وانطلقت
روحها في كل مكان تبحث عن الأمير الساحر لتعود به وتسكنه أبراج
خيالها، وقد عادت به، وقد سكن أبراج خيالها، وقد أحرقت قبلاته
شفتيها، وقد أدفأت أنفاسه جفنيها.

ولكن ربة الحكمة لم تلبث أن غيرت نهجها في التفكير، وشرعت
تحدّث عن وجوب التعرّف على حقيقة هذا الفتى؛ فلئن كان من أهل

اليسار وجب تدبير الزواج. واستمعت سيبيل طويلًا إلى حديث المادية السافرة، ورأت المُثل العليا تمزق في غير رحمة. ولكنها رغم ذلك ابتسمت وهي ترقب شفتي أمها الباليتين تتلوان عليها هذا الحديث. وكان صمتها مزدحمًا بالخواطر فأحست فجأة بحاجة إلى الكلام، ولما ضاق صدرها بما يضطرب فيه من عواطف قالت:

- أماه! لِمَ يحبني كل هذا الحب يا أماه؟ أما أنا فأعلم لم أحبه، فهو إيروس، رب الغرام تجسد لي. فماذا يحمل فتى مثله على أن يحب فتاة مثلي؟ كلا يا أماه أنا لا أستحق أن أكون موضع حبه، ومع ذلك فأنا لا أحس بأني مخلوق تافه رغم رفعة مكانته في المجتمع وضعة مكائتي. وإني لفخورة بنفسي، جد فخورة. حدثيني يا أماه، هل أحببت أبي كما أحب أنا الأمير الساحر؟

فشحب وجه العجوز الذي لطخته المساحيق ونزل بها الألم فجأة وارتجفت شفاتها، فبادرت سيبيل إليها وطوقت جيدها بذراعيها وقبلتها قائلة:

- اصفحي عني يا أماه، فأنا أعلم كم يوجعك ذكر أبي، ولكنك تتعدّين من فرط إعزازك لذكراه. لا تبتشي فأنا اليوم سعيدة كما كنت أنت منذ عشرين سنة فليت سعادتي تدوم!

- أنتِ يا بنيتي ما زلتِ صغيرة ولا تفهمين معنى الحب. ثم إنكِ لا تعرفين عن هذا الفتى كثيرًا أو قليلًا، بل أنتِ لا تعرفين ما اسمه ومن يكون، فالمسألة من ألفها إلى يائها محزنة، وقد كان خليقًا بك أن تظهرني بعض العطف لي فأخوك جيمس راحل إلى إستراليا ونفسي مثقلة بالهموم. ومع ذلك، إذا كان صاحبك هذا من أهل اليسار كما تزعمين...
- أناشذك ألا تحطمي سعادتي يا أمّاه.

فنظرت إليها مسزّفين وعانقتها عناقًا مسرحيًا، وهي عادة لازمتها في حياتها الخاصة كما تلازم عامة الممثلين. وفيما كانا على هذا النحو انفتح

الباب ودخل منه فتى ممتلىء البنية ذو شعر خشن أصفر ثقيل عيناه ويداه على شيء من الضخامة، وفي حركاته غلظة واضحة. ولم يكن هذا الفتى قد نال من التهذيب ما نالته أخته سيبيل، حتى أن المرء لا يتصور أن بينهما صلة دم. وتفحصته مسز فين بنظراتها فازداد وجهها إشراقاً فقد تخيلت أنه يمثل جمهور النظارة، وارتاح فؤادها إلى المشهد. قال الفتى في مزيج من العطف والتذمر:

- هلاً ادخرت بعض قبلاتك لي يا سيبيل؟

فأجابت الفتاة:

- ولكنك تكره أن يقبلك الناس يا جيم. ما أشبهك بدب عجوز! ثم أسرع إلى عانقته. فنظر جيمس فين في وجه أخته في حنان وقال:
- هيا بنا للنزهة معاً يا سيبيل، فلعل هذه آخر مرة أرى فيها هذه المدينة القبيحة لندن، ولست براغب في العودة إليها بعد رحيلي.

وتنهّدت مسز فين وهي تمسك بثوب من أثواب المسرح مهلهل وبدأت ترقع الثوب. لقد ساءها أن ابنها لم ينضم إلى المشهد ليتّم ما له من طابع مسرحي.

- لا تقل مثل هذا الكلام المفزع يا ولدي.

- هذه هي الحقيقة وأنا أعني ما أقول.

- هذا الكلام يوجعني يا ولدي وأعتقد أنك سوف تعود من أستراليا بعد أن تجمع ما لا كثيراً، فالمستعمرات ليس فيها حياة اجتماعية أو شيء يستحق أن يوصف بهذا الوصف على ما أعتقد. ولذا ستعود إلى لندن بعد أن تجمع المال الكثير وتجد لنفسك فيها مكاناً.

قال الفتى:

- وما قيمة الحياة الاجتماعية؟ أنا لا أحب أن أعرف عن هذه الحياة شيئاً، وكل ما أبغيه هو أن أجمع بعض المال حتى أبعدكما عن المسرح، فإنني أبغضه بغضاً شديداً.

فضحكت سييل وقالت:

- ويحنا منك يا چيم! ما أقساک علينا! ولكن أتحب حقًا أن نخرج معًا للنزهة؟ إن فعلت ذلك أدخلت السرور على قلبي. لقد كنت أحسبك تنوي توديع بعض أصدقائك كتوم هاردي الذي أهداك تلك البيبة⁽¹⁾ القبيحة وندلانجتون الذي يسخر منك كلما رآك تدخنها. وإني أشكر لك قضاءك آخر ساعاتك معي، فأين تحب أن تذهب؟ هيا بنا إلى هايد پارک. - كلا يا سييل، فأنا زري المنظر ولا يتنزه في هايد پارک إلا الوجهاء.

قالت سييل وهي تمسح سترته:

- دعك من هذا الكلام الفارغ يا چيم.

فتردّد لحظة ثم قال في النهاية:

- هيا بنا إذاً؛ ولكن عجلّي بارتداء ملابسك.

فخرجت من الغرفة وهي ترقص وصعدت إلى الطابق العلوي وهي تغنيّ فملاً صوتها أرجاء البيت، وسمع چيم قدميها الصغيرتين تضربان سقف الغرفة. وطفق يمشي جيئةً وذهاباً ثم التفت إلى أمه الجالسة في المقعد الكبير لا تبدي حراكاً وسألها قائلاً:

- هل أعددت أمتعتي يا أماه؟

كانت مسزّفين تصلح الثوب فلم تتوقّف عن العمل وأجابته بأنها قد هيئت كل شيء. وكانت الأم في الشهور الأخيرة تضطرب كلما وجدت نفسها وحيدة مع ولدها الحازم الخشن الطباع. وكلما تلاقى عيونهما اضطربت نفسها وجلّلاً لأنها كانت تشكّ أحياناً في أنه يعرف شيئاً عن سرها. وكان چيمس فين كثير الصمت فزاد ذلك الموقف حرّجاً، وبدأت تتذمّر من صمته كعادة النساء اللاتي يجدن في الهجوم خير وسيلة للدفاع ويجدن في الاستسلام أضمن وسيلة للانتصار. قالت الأم:

(1) pipe الغليون أو الباب.

- أرجو أن تجد السعادة التي تنشدها في حياتك الجديدة هذه، حياة الملاحة والأسفار، وتذكر دائماً أنك اخترت لنفسك هذا المصير، فقد كان في إمكانك أن تلتحق بمكتب محام، والمحامون طبقة لها مكانة في المجتمع عالية، ومن كان منهم يعمل في الريف يختلط بأرقى الأسر. فأجاب الفتى قائلاً:

- ولكنني أمقت المكاتب وأمقت الكتابة ولقد أصبت فيما قلت من أنني اخترت هذا المصير بنفسى. وكل ما أرجوه منك أن تسهرى على سبيل ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، وأن تدفعى عنها الشرور. نعم، يا أمّاه، اسهرى على سبيل وادفعى عنها الشرور. - هذا كلام عجيب يا ولدى، فأنا ساهرة على سبيل فعلاً ولا محلّ لمخاوفك.

- بلغنى أن سيداً يزور المسرح كل ليلة ويقصد إلى غرف الممثلين ليراها. ألا ترين في هذا ضرراً؟

- هذه أشياء لا تفهمها يا جيمس، فقد جرت العادة في مهنة التمثيل أن تجد من الجمهور كل رعاية، ونحن نسرُّ بهذه الرعاية ونعدها مقياس النجاح. ولقد كنت في صباي أقبل باقات الزهر من المعجبين، ولكن تلك الأيام انقضت ولم يعد الناس يقدرّون التمثيل حق قدره. أما سبيل فأنا أجهل الآن إذا كانت جادة في صلتها بهذا الشاب أم غير جادة. ولكنى لا أرتاب في أن هذا الشاب چنتلمان لا غبار على سلوكه، فهو جم الأدب معى، ومظهره يدل على أنه من أهل اليسار، والأزهار التي يرسلها إلى أختك جميلة حقاً.

قال الفتى في خشونة:

- ولكنك تجهلين اسمه.

فأجابت الأم في هدوء:

- هذا صحيح، فهو لم يبع باسمه الحقيقي لها، وأنا أرى أن هذا يضيف

إلى جمال الموقف، فلعله من أبناء الطبقة الأرستقراطية.

فعضَّ جيمس فین شفته وصاح بأمه قائلاً:

- اسهري على سييل يا أماه، اسهري على سييل.

- أنت تحزني كثيرًا بهذا الكلام يا ولدي فما انقطعت قط عن العناية بسييل ولكني لا أرى ما يمنع أن ترتبط سييل بهذا السيد برباط الزواج إذا كان من أهل اليسار. وأغلب ظني أنه من أبناء البيوتات ومظهره يدل على ذلك، ولقد يكون في هذا الزواج فرصة ذهبية لسييل. وأرى أن زواجهما سيكون غاية في الانسجام فجمال هذا الفتى نادر حقًا، يَدَّه كل من رآه. أخذ الفتى يتحدث إلى نفسه بصوت خافت وينقر زجاج النافذة بأصابعه الغليظة. فلمَّا التفت ليقول لأمه شيئًا انفتح الباب ودخلت منه سييل وقالت:

- مالي أراكما واجمين؟ ماذا حدث؟

فأجاب الفتى قائلاً:

- لم يحدث شيء إطلاقًا، وسؤالك لا معنى له. فمن الطبيعي أن يعتمد الإنسان إلى الجد من وقت إلى آخر. إلى اللقاء يا أماه، وسأعود للعشاء في الساعة الخامسة. لا تهتمي بأمعتي فتلك ملابس مرتبة ما عدا القمصان.

فانحنت الأم في وقار أنهكتة الشيخوخة وقالت:

- إلى اللقاء يا ولدي.

ولكن لهجته أحنقتها، فما كان له أن يحدث أخته بهذا الجفاف، كما أن نظراته أخافتها. واقتربت شفتا الفتاة الورديتان من خدها الذابل وطبعتا عليه قبلة أرسلت فيه الدفء، فجالت الأم بنظرها في سقف الغرفة كأنها تبحث عن جمهور من النظارة وقالت في لهجة مسرحية مضطربة:

- بنتاه، يا بنتاه!

وكان الفتى يبغض الأسلوب المتكلف الذي تصطنعه أمه في الحديث

فنفد صبره وقال يستعجل أخته:

- هيا بنا يا سيبيل.

وخرجا إلى الشارع فوجدا النسيم يداعب ضوء الشمس، وسارا في طريق بوستون الموحش، وكان المارة يعجبون لمراى هذا الفتى العابس الغليظ البنيان الرث الثياب الذي يرافق عادة رشيقة مهذبة رقيقة. وبدا جيمس فين لعيون المارة كبستاني جلف في يده باقة من أجمل الورود. وكان وجه جيم يتجهّم بين حين وآخر لفضول المارة فقد كان يكره أن يحمق الناس فيه كرهاً لا مزيد عليه، كرهاً كالكره الذي يتملّك أوساط الناس لأنظار المتطفّلين، كرهاً كالكره الذي يتملّك العباقرة في نهاية حياتهم لأنظار المعجبين. على أن سيبيل لم تحس بالأثر الذي كانت تحدّثه في نفوس العابرين لأن قلبها كان متيمًا معمودًا. وكان الحب الذي يملأ قلبها يشيع في شفيتها بشرًا وإشراقًا. لقد كانت تفكر في أميرها الساحر ولم تشأ أن تطرد عنها خياله الجميل فلم تجعله موضوع الحديث بل طفقت تلغو عن السفينة التي سيبحر عليها جيم، وعن الذهب الذي سيجمده جيم في انتظاره حين يصل إلى أستراليا، وعن سيدة القصور الجميلة التي سينقذها جيم من براثن حرّاس الأحراش. فجيمس لن يبقى بحارًا طول حياته. كلا! لن يبقى جيمس بحارًا طول حياته حبيسًا على ظهر سفينة قبيحة تتقاذفها الأمواج العاتية وتمزّق قلوها الرياح الممطرة السوداء وتهشّم صواربها الأنواء! إن جيمس سوف يقصد ربان السفينة حين تبلغ السفينة ملبورن ويستودعه الله في أدب كثير ثم يترك السفينة وربانها ويقصد فورًا إلى مناجم الذهب، وقبل أن ينتهي الأسبوع سيعثر ولا شك على سبيكة ضخمة من الذهب الخالص، سبيكة لم يعثر إنسان على مثلها من قبل، ويحملها إلى الساحل في عربة يحرسها ستة من رجال الشرطة، ولسوف يهاجمهم حراس الأحراش ثلاث مرات فيردوا عنها ثلاث مرات بين قتييل وجريح ولائذ بالفرار. أو لعل جيمس لا يقصد إلى

مناجم الذهب أصلاً، فهي بقاع مقفرة يسكنها السكارى ويقتل الناس فيها بعضهم بعضاً في الحانات، ويستخدمون أفحش الألفاظ. لعله يصبح راعياً أنيساً من رعاة الأغنام، وفيما هو عائد إلى بيته ذات مساء يرى رجلاً من قطاع الطرق يختطف سيدة جميلة من سيدات القصور ويطير بها على جواده الأسود فيطارده حتى ينقذ السيدة ويعود بها إلى أهلها سالمة. ولسوف تحبه سيدة القصور من أعماق قلبها، ولسوف يحبها هو من أعماق قلبه، ولسوف يتزوجان ثم يعودان إلى لندن حيث يقيمان في دار فخمة هي بهجة الناظرين. ولكن ينبغي عليه أن يكون حسن السلوك وألا يدع للغضب سلطاناً على نفسه أو يبدد ما جمعه من المال بحماقة. ولسوف تكون السيدة أكبر منه بعام واحد، ولكنها تعرف عن الحياة الكثير فتحميه بتجاربها وتقيه بحكمتها. كذلك سوف يكتب لها جيمس خطاباً مع كل عربة بريد، وسوف يتذكر أن يتلو صلواته كل مساء قبل أن ينام. ولسوف يحرسه الله لأن الله يحب الناس. ولسوف تصلي هي من أجله كذلك ليحرسه بدل المرة مرتين. وبعد أن تنقضي سنوات قليلة سيعود إليها هنيئ النفس واسع الثراء.

كان الفتى يستمع إلى حديثها في وجوم من دون أن يجيب عليها بشيء، فقد كان حزين النفس لفراق أهله.

ولم يكن هذا كل ما أحزن نفسه. لقد كان يحس رغم قلة تجاربه في الحياة بالخطر الذي يتهدد سيبيل. فهذا الوجيه الشاب الذي يناجي أخته بغرامه لا يمكن أن يكون سليم الطوية. لقد كان من طبقة السادة وهو لهذا يمقته. وهو يحقد عليه بالغريزة دون أن يجد مبرراً لذلك، يحقد عليه حقداً طبيعياً متأصلاً قوياً. كذلك كان يعرف ما فطرت عليه أمه من الغرور وحب المظاهر، وهذا ما جسّم خوفه على سيبيل ومستقبلها. إن الأطفال يبدأون حياتهم بإعزاز الوالدين ثم يكبرون فيزئنون فضائل الوالدين وردائلهما، ولقد يغفرون لهم ذنوبهم أحياناً.

لقد فكّر في أمه كثيرًا! وكان يقلقه شيء أراد أن يسألها عنه. نعم، شيء أقصّ مضجعه الليلي الطوال. لقد سمع قَوْمًا ذات ليلة يتهامون عنهما في سخرية وهو في انتظارهما بباب المسرح الخلفي فتلاطمت في رأسه الأفكار السوداء، وعادت تلك الهمسات الساخرة إلى ذاكرته فأوجعته كأنها السياط هوت على وجهه دون رحمة. وعبس من جديد وعضته البرحاء⁽¹⁾ فعصّ شفته السفلى. قالت سييل:

- لقد كنت منصرفًا عني يا جيم، فلم تسمع كلمة واحدة مما قلت على حين كنت أنا أضع أجمل المشروعات لحياتك المستقبلية. تكلم يا فتى وقل شيئًا.

- وماذا تنتظرين مني أن أقول؟

فابتسمت وقالت:

- قل مثلًا إنك ستكون فتى بارًا وأنتك لن تنسانا.

لكنه هز كتفيه استخفافًا وأجاب:

- بل نسيانك إياي أقوى احتمالًا من نسياني إياك.

فصعد الدم إلى وجهها وسألته قائلة:

- ماذا تعني يا جيم؟

- لقد بلغني أن لك صاحبًا جديدًا. من يكون هذا الرجل ولماذا أخفيت

عليّ أمره؟ أعتقد أنه لا يضر لك خيرًا.

فصاحت به:

- كفى يا جيم! لا تقل فيه كلمة سوء فأنا أحبه.

قال الفتى:

- وكيف تحبين رجلًا تجهلين اسمه؟ من يكون هذا الفتى؟ إن من

حقي أن أعرف.

(1) شدة الأذى من الحمى.

- اسمه الأمير الساحر؛ ألا يعجبك هذا الاسم؟ أنت لا تعرفه أيها الولد الطائش، ولو أنك رأيته لوجدت فيه صورة الكمال، ولسوف تقابله يوماً ما بعد عودتك من أستراليا ولسوف تُولّع به. إن كل من يعرفه يولع به أمّا أنا فأحبه. لبتك تأتي إلى المسرح هذا المساء، فلسوف يكون هناك، وأنا الليلة چولييت، ولسوف أجيد التمثيل إجادة ما بعدها إجادة. وكيف لا أجيده وأنا عاشقة ألعب دور چولييت! ولسوف يجلس قبالي وأمثل لأرضيه وحده. لسوف أجيد حتى أسحر أعضاء الفرقة أو أخيفهم مني، فالحب سبيل الكمال ولسوف يصيح ذلك البائس إيزاك بصعاليكه ومتسكعيه في الحان قائلاً: «تعالوا واشهدوا! إن سبيل فين ممثلة من ممثلات الجيل!» لقد آمن مستر إيزاك بمواهيي إيماناً أعمى حتى اليوم، ولسوف يرى مواهيي تتكشف أمامه كرؤيا من رؤى الفردوس! إنني لأحس بذلك من أعماقي، وكل ما أنا فيه قبس منه، فهو ضيائي، قبس من أميري الساحر، أميري وحبيبي وملهمي بمعاني الجمال، إنه غني بكل شيء، وأنا فقيرة في كل شيء. ولكن الفقر لن يغير من أمرنا شيئاً. يقولون إن الفقر إذا دخل من الباب خرج الحب من الشباك، أما أنا فأقول إن الفقر إذا دخل من الباب دخل الحب من الشباك. إن أمثالنا تحتاج إلى تنقيح يا چيم. إن أمثالنا وضعت في زمهرير الشتاء ونحن الآن في صيف الحياة، بل أنا الآن في الربيع ذي البراعم والعطور والسماء الضحوك.

قال الفتى في وجوم:

- إن صديقك هذا من طبقة الأشراف، أليس كذلك؟

فقال بصوت عذب:

- بل هو أمير كريم.

- إنه يريد أن يستعبدك.

- وأنا أقبل هذه العبودية طائعة مختارة.

- احذريه يا سبيل.

- كيف أحذره وأنا أثق فيه ثقة عمياء، وكيف أتخوف منه بعد أن اتخذت منه صنمي.

- هذا الحب جنون يا سيبيل.

فضحكت سيبيل وأمسكت بذراعه قائلة:

- چيم، يا حبيبي، إنك تتكلم كأنك شيخ طاعن في السن وما أنت إلا حدث صغير. وسوف يأتي يوم تذوق فيه الهوى بنفسك فتعرفه على حقيقته. فدع عنك هذا الوجود يا چيم. ألا يسعدك وأنت راحل إلى أستراليا أن تعرف بأنك ستركني أسعد نفساً مني في أي زمن مضى؟ لقد قست الحياة علينا معاً، بل حطمتنا تحطيمًا. أما الآن فالأمور على خير ما يرام. فأنت نازح إلى عالم جديد، وأنا قد وجدت عالمًا جديدًا. هيا بنا نجلس على هذين المقعدين ونتأمل سراة الناس غادين راثحين.

وجلسا ترقبهما أنظار الناس، وكانت أزهار التوليب في الجانب الآخر من الطريق تهتز في الهواء وتضيء كالجمر الملتهب. واهتزت في الهواء كذلك سحابة معلقة بيضاء وبدت الشمسيات الزاهية الألوان التي يحملها السادة كأنها فراش جسيم.

وحملت سيبيل أباها على أن يتحدث عن نفسه وعن آماله وأمانيه، وكان يتكلم في مشقة وأناة. وتبادل الأخ والأخت الكلام في عناية كأنهما لاعبان يتبادلان الكرة. أما سيبيل فقد اختنقت بأفراحها ولم تستطع الإفصاح عما بها، وكان كل ما ظفرت به من أخيها ابتساماً ارتسمت على فمه الحزين. ومرّت بهما عربة مكشوفة. وفجأة لمحت سيبيل الأمير الساحر ذا الشعر الذهبي والقم البسام داخل العربة. لقد كان دوريان جراي يتنزّه مع سيدتين.

ونفضت سيبيل من مكانها وصاحت قائلة:

- هو ذا! هو ذا!

قال چيم فحين:

- من؟

أجابت وهي تتبع العربية ببصرها:

- الأمير الساحر.

فنهض الفتى وأمسك بذراعها في خشونة وقال:

- أين هو؟ أين هو؟ لا بد أن أراه!

ولكن مركبة الدوق بيرويك مرّت أمامهما في تلك اللحظة وحجبتة عنهما، فلما أخلت أمامهما الطريق كانت عربة دوريان قد انطلقت خارج هايد پارك.

قالت سيبيل في أسف:

- لقد خرج، فليتك رأيته يا چيم.

- نعم، ليتني رأيته، فإني أقسم أمام الله أنني قاتله لو مسك بسوء.

فارتاعت الفتاة ولكن الفتى أعاد عليها كلماته فنفذت كالمدي إلى قلبها، وبدأ الناس يحملقون فيهما، وكانت على مقربة منهما سيدة أخذت تضحك منهما كالأطفال. قالت الفتاة:

- هيا بنا يا چيم. هيا بنا.

وشقّت طريقها بين المتزهين يتبعها أخوها، وأحسّ چيم بالراحة بعد أن أسمعها وعيده، وحين بلغا تمثال أخيل التفتت إلى أخيها تكلمه وقد زخر قلبها بالعطف عليه فضحكت وهزّت رأسها وقالت له:

- إنك لا زلت صبيًا أحمق يا چيم. إنك لا زلت صبيًا شرسًا أحمق لا

أكثر ولا أقل، وأنت لا تفهم معنى ما تقوله. كل ما هنالك أنك تغار منه وهذا سر سخطك عليه. فليتك تجرّب الحب يا چيم، إن الحب يهذّب طبائع الناس، وما قلته الآن يدل على سواد قلبك.

فأجاب چيم:

- بل أنا أفهم معنى ما أقول فأنا في السادسة عشرة من عمري ولقد

لاحظت أن أمانا لا تسهر على سلامتك. إنها لا تفهم كيف تكون التربية

الصالحة وإني لأفضل العدول عن السفر إلى أستراليا لأضع حدًا لهذا الخطر وأحميك من الغواية، ولولا أن أوراقي قد تم توقيعها فعلاً لبقيت معكما.

- لا تغتم كل هذا الاغتمام يا چيم، فالخطر الذي تتحدّث عنه وهم من نسج خيالك، وأنت الآن تبدو كبطل من أبطال تلك المسرحيات العنيفة السخيفة التي كانت أمنا مولعة بتمثيلها، فلن أحاسبك على ما قلت ولن أفسد بالشجار هنائي الآن بعد أن رأيت الأمير الساحر. وأنا أعلم أنك لن تؤذي إنساناً أعزه أنا، أليس كذلك يا چيم؟
فأجابها قائلاً:

- نعم، فلن أمسه بسوء طالما أنك تحيينه.

قالت:

- سأحبه حتى الموت.

- وإلى أي حدّ سيحبك هو؟

- سيحبني حتى الموت كذلك.

- من الخير له أن يخلص لك دائماً.

فنفرت منه خوفاً، ولكنها عادت فضحكت وأمسكت بذراعه، فقد تذكّرت أن چيم لم يكن سوى صبي غريب.

وبلغا ماربل آرتش في ركن هايد پارك ولوحا لأمنيوس فوقف الأمنيوس وحملهما إلى نقطة قريبة من بيتهما المتواضع في طريق يوستون. وكانت الساعة قد تجاوزت الخامسة، وكان على سيبيل أن تستريح نحو الساعتين قبل أن تبدأ التمثيل. وألح چيم عليها في أن تستريح وأراد أن يودعها قائلاً إن تلك اللحظة كانت أنسب لحظة للوداع فأمهما لم تكن حاضرة، ولو قد كانت لجعلت من الوداع مشهداً مؤثراً كعاداتها في كل شيء وهو يمقت المشاهد المؤثرة مقتاً شديداً. وتودع الأخ والأخت في غرفة سيبيل، وكان قلب الفتى يلتهب بالغيرة، وكانت عيناه تومئتان

بشر مستطير فقد توهمّ چيم أن هذا الدخيل ما جاء إلا ليفرق بينهما فثار في نفسه حقد قاتل. ولكنه ضعف أخيراً حين عانقته أخته وراحت تعبث بأصابعها في شعره، ورق فؤاده فقبلها قبلة الحنان الصادق، وحين نزل على الدرج كانت الدموع تترقرق في عينيه.

وكانت أمه تنتظره في الطابق الأرضي فلما رأته بدأت تلومه على تأخره فلم يجبهها بشيء بل جلس إلى المائدة ليتناول زاده القليل. وطنّ الذباب حول المائدة ودبّ على المفروش الملوّث وكان يسمع عجيج الأمنيوس وضجيج العربات الرائحات الغاديات في الخارج فيزداد إحساسه بفوات الزمن، وعلم أنه لا بد راحل بعد قليل.

وبعد لحظة دفع بالطبق بعيداً عنه ووضع رأسه بين يديه، وأحسّ أن من حقه أن يعرف الحقيقة. لقد كان الشك يأكله أكلاً، ولو أن شكه كان في موضعه لوجب على أمه أن تطلعه على الحقيقة من قبل. وكانت أمه ترقبه في خوف عظيم. كانت تتحدّث إليه على نحو آلي دون أن تفقه كثيراً مما تقول، وكانت أصابعها تعبث طيلة الوقت بمنديل ممزق حتى دقت الساعة السادسة فنهض ومشى إلى الباب، لكنه التفت إليها وأنشأ يتأملها وتلاقت عيونهما فقرأ في عينيها معاني الاستعطاف الشديد فغضب غضباً شديداً. قال:

- لدي سؤال أود أن أطرحه عليك يا أمه.

فتاهت عيناها في أنحاء الغرفة لا تستقران على شيء ولم تجب بكلمة. فاستأنف الفتى حديثه قائلاً:

- صارحيني بالحقيقة، فمن حقي أن أعرف كل شيء. أكنّ متزوجة

من أبي؟

فتنهّدت في ارتياح. ها قد جاءت اللحظة العصيبة التي كانت تخشاها طيلة الأيام والليالي. جاءت أخيراً. ولكنها لم تشعر بالرعب القاتل الذي كانت تنتظره. حقاً لقد خاب أملها شيئاً ما، فقد كانت تتوقّع موقعاً موقفاً حرجاً

كمواقف المسرح، وهي وُلُوغٌ بمواقف المسرح. ولكن السؤال جاء بسيطاً لا تنميق فيه، بسيطاً إلى حدِّ الابتذال، وكان لا بد من جواب بسيط كذلك. نعم، لقد كان السؤال خشناً لا يدل على لباقة، جاء بلا تمهيد فذكرها ببروفة غير موفّقة. أجابت في بساطة:
- كلا.

وعجبت لبساطة الحياة. وعجبت لما في هذه البساطة من غلظة. قال الفتى وهو يجمع قبضتيه:
- إذا فقد كان أبي وغداً.
فهزّت رأسها وأجابت:

- لقد كان مقيّداً بامرأة أخرى، وكنت أعلم ذلك عنه، ولكننا تبادلنا الحب ولو أنه عاش لجعل لنا معاشاً منتظماً. لا تقل فيه سوءاً يا بني فهو أبوك على كل حال، ولقد كان فوق ذلك سيّداً كريماً. نعم، لقد كان أبوك من أسرة كريمة.

فخرجت من فمه اللعنات وقال:
- أنا لا أفكر في أمري، ولكن أفكر في أمر سيبيل. فهذا الذي يحبها أو يزعم أنه يحبها سيد كريم كذلك، ولعله من أسرة كريمة. فما أشبه اليوم بالبارحة.

ومرّت لحظات أحست فيها المرأة العجوز بذلّ عظيم، فطأطأت رأسها ومسحت دموعها بيد ترتجف وقالت:
- إن لسيبيل أمّاً تحميها، أما أنا فلم تكن لي أم.
فتأثّر الفتى أيما تأثر، واقترب منها وقبلها ثم قال:

- لقد أَلَمْتُك يا أمّاه بالكلام عن أبي فاصفحي عني، وأرجو أن تدركي أنني اضطررت إلى ذلك اضطراراً. والآن ينبغي أن أرحل فوداعاً، ولا تنسي أنه لم يعد لديك الآن إلا شخص واحد تسهرين عليه، وثقي أنه لو أصاب سيبيل مكروه بسبب هذا الرجل فإني لمطارده في أركان المعمورة

الأربع وإني لقاتله أشنع قتلة. أقسم بذلك أمام السماء.
وانتعث الجو حول مسزفين فقد كانت ترتاح إلى المواقف المسرحية
وها هو ذا ولدها يرغي ويزبد ويهدّد ويتوعّد ويشير بيديه إشارات حانقة.
لقد ألفت هذا الجو على المسرح وكانت تختنق كلما خرجت منه، فلما
سمعت ولدها يتحدث على هذا المنوال عادت إلى حالتها الطبيعية
وأحست نحوه بإعجاب شديد لم تحس به من قبل، ولقد كانت تود أن
يستمر الموقف على هذه الدرجة من التوتر لولا أن ابنها وضع له حدًا.
فالحقائب لا بد من حملها إلى الخارج، والكوفيات والمناديل وما أشبه
ذلك لا بد من البحث عنها، والوقت ضيق، وقد تم كل ذلك فعلاً وأعقبته
مساومة الحوذي على أجره. ولقد منيت مسزفين بخيبة أمل أخيرة. فقد
كانت ترجو أن تكون لحظة الوداع عنيفة بدموعها، عنيفة بالحسرات.
ولكنها وجدت نفسها تلوّح لابنها في النافذة بمنديلها الممزّق والعربة
تبتعد به رويدًا رويدًا، نعم، لقد أفلتت منها فرصة كبرى كانت تستطيع
أن تعرض فيها ملكاتها. ولكنها استعاضت عما فاتها بأن شرحت لسييل
مبلغ وحشتها القادمة بعد أن رحل جيمس. فالآن لم يعد لها سوى
شخص واحد تسهر عليه، ويا لو حشتها. وأعجبت بها الفكرة، فاستظهرت
العبارة استظهارًا، لعل الحاجة تدعو إليها في مناسبة أخرى. ولكنها لم
تشر بكلمة إلى ما سمعته من وعيد. لقد كان الوعيد واضحًا لا ريب فيه،
قويًا، أكيدًا، ولكنها لم تجد ما يبرره وأحسّت بأنه سيكون موضع سمرهم
في يوم من الأيام.

الفصل السادس

كان بين اللورد هنري وبازيل هوورلد ودوريان جراي موعد بمطعم بريستول في ذلك المساء. فلمَّا دخل هولورلد إلى الحجرة الصغيرة التي أعد فيها الطعام لثلاثتهم قال اللورد هنري:

- لعلك سمعت آخر الأنباء يا بازيل.

فأجاب الفنان وهو يسلم معطفه وقبعته لخادم المطعم الذي انحنى أدبًا:

- كلا، يا هاري، ما سمعت شيئًا، فما الخبر؟ أرجو ألا تروي عليّ أخبار السياسة فأنا لا أهتم بها. ولست أجد بين أعضاء مجلس العموم شخصًا واحدًا يستحق أن أرسمه، وإن كانت كثرتهم المطلقة تحتاج إلى ترميم كثير.

قال اللورد هنري وهو يتأمل صاحبه ليرى فعل كلماته في نفسه:

- إن دوريان جراي قد عقد خطبته على فتاة.

ففزع هولورلد وأظلم وجهه وقال:

- هذا مستحيل!

- بل هذا صحيح.

- ومن تكون هذه الفتاة؟

- ممثلة.

- هذا كلام غير معقول، وعهدي بدوريان أنه أرشد من أن يرتكب حماقة كهذه.

- أليس من الرشد أن نرتكب الحماقات بين حين وآخر يا بازيل؟
- ولكن الزواج ليس من الحماقات التي نستطيع أن نركبها بين حين وآخر، يا هاري.

أجاب اللورد هنري في تراخ:

- هذا صحيح، ولكنه لا ينطبق على أمريكا. على أنني لم أقل إنه قد تزوج فعلاً. كل ما قلته إنه قد عقد خطبته على هذه الفتاة، والفرق عظيم بين أن تخطب الفتاة وأن تتزوج منها. فأنا لن أنسى أنني متزوج مع أنني نسيت أيام الخطبة. بل إنه ليخيل إليّ أنني لم أمر في دور الخطبة كسائر الناس.

- ولكن ألا يروّعك أن يتزوج دوريان على نُبلٍ محتدّه وعلوّ مكانته وسعة جاهه من فتاة أقل منه في كل شيء؟

- إذا سمع دوريان منك هذا الكلام فهو لا بد ماضٍ في عزمه. فالحماقة التي نرتكبها تأتي عادة من الدوافع النبيلة فينا.

- أرجو أن تكون هذه الفتاة طيبة القلب، ويسوءني أن أرى دوريان مشدوداً بوثاق من حديد إلى مخلوق بغيض يهوي به إلى الحضيض العقلي والخلقي.

فقال اللورد هنري وهو يشرب بعض الثرموث⁽¹⁾ وعصير البرتقال:

- إنها جميلة، والجمال أعلى من طيبة القلب. نعم. لقد قال لي دوريان إنها جميلة، وهو قلما يخطئ في تقدير هذه الأمور إن الصورة التي رسمتها له كان لها أثر عجيب في تنمية إحساسه بالجمال لا يقل عن أثر تعاليمي. ونحن الليلة ذاهبون لرؤيتها، هذا إذا لم يخلف دوريان ميعاده.

(1) نوع من النبيذ، يستخدم كأساس لعمل الكوكيتيلات.

- أنت جاد في ما تقول؟

- طبعًا يا بازيل. لم أكن أكثر جدًا في أي وقت مني الآن.

وشرع الرسّام يقطع الغرفة جيئة وذهابًا ثم عض شفته ألمًا وقال:

- ولكن أوافق أنت على هذا الزواج يا هاري؟ محال أن توافق فما هو

إلا نزوة عارضة.

- لم أعد أوافق أو أعترض في هذه الأيام يا بازيل، فقد وجدت أن

هذه فلسفة سخيفة نواجه بها الحياة. نحن لم نأت إلى هذا العالم

لنطلع الآخرين على أحكامنا الأخلاقية، صحيحة كانت أم فاسدة. فأنا

لا أكثرث لما يقوله الدهماء وأنا لا أتدخل في ما يفعله الخاصة. فإن

جذبتني شخصية إنسان ما وجدت ما يستهويني في كل عمل يعمله وفي

كل كلمة يقولها، أيًا كانا. فمثلًا إذا أحب دوريان فتاة جميلة تمثل دور

چوليت ورأى أن يخطبها إلى أهلها فلست أجد على ذلك اعتراضًا. ولو

قد تزوّج الإمبراطورة مسالينا⁽¹⁾ لما ارتفع في نظري عمّا هو الآن. أنت

تعرف أنني لست من أنصار الزواج، فالنكبة الحقيقية في الزواج هو أنه

يزيل أثره الإنسان، والأثره شيء لازم يضيف على الشخصية قوة وسحرًا،

ومن خلوا منها خلوا من الشخصية المستقلة، ومع ذلك فإني أقول إن من

الشخصيات ما يزداد بالزواج تعقدًا، فيستعيد أثره المفقودة، بل تصبح

الأثره جملة أنوات⁽²⁾، فلا يكتفي بحياة واحدة يحيها وإنما تتعدّد فيه

الشخصية وتصبح حياته منظّمة متماسكة، وأحسب أن النظام والتماسك

هما هدف الاختبار الإنساني. وأضيف إلى ذلك أن لكل اختبار قيمته

في الحياة، ومها ساء ظننا في الزواج فلن نستطيع أن ننكر أنه اختبار من

اختبارات الحياة. وأرجو أن يتزوج دوريان جراي من هذه الفتاة ويحرق

(1) الزوجة الثالثة للإمبراطور الروماني كلاوديوس، اشتهرت بتعدد علاقاتها الجنسية

وقوتها وسلطتها، قيل إنها تأمرت على زوجها وتم إعدامها جراء ذلك.

(2) جمع «أنا» وفي الأصل الانجليزي Egos

لها الشموع ستة أشهر أو نحو ذلك ثم يزهد فيها ويتحوّل عنها فجأة إلى غانية أخرى. فإن فعل ذلك كان موضوعاً للدراسة شائناً.

- أنت لا تعني كلمة واحدة مما تقول يا هاري، وأنت أول من يعرف ذلك. ولو أن مكروهاً نزل بدوريان جراي لكنت أول من يأسف لحاله فأنت كريم النفس وإن تكلفت القسوة تكلفاً.

فضحك اللورد هنري وقال:

- إن منشأ احترامنا للآخرين هو خوفنا من ألا يحترمنا الآخرون، وأساس التفاؤل هو فزعنا من الكوارث لا أكثر ولا أقل. وإذا أحسنّا الظن بجارنا نسبنا إليه من الفضائل ما قد يعود بالفائدة علينا، فنحن نقرّظ مدير البنك لعله يقرضنا بعض المال، ونصف قاطع الطريق بالبطولة لعله يتجاوز عما في جيوبنا. إنما قصدت كل كلمة قلتها يا بازيل، وأنا أحتقر التفاؤل احتقاراً لا مزيد عليه. أما ما تذكره من أن حياة دوريان قد تتحطّم فيدخل في باب الهراء، لأن الحياة لا تتحطّم إلا إذا توقفت عن النمو. وإذا أردت إفساد نفس فعليك بإصلاحها. أما الرباط المقدّس فغلطة حمقاء، وهو بديل سيئ لروابط أخرى بين الرجال والنساء أجدى عليهم وأعظم سلطاناً على نفوسهم، روابط أويدها أنا بكل ما بي من قوة، لأنها تعبّر عن روح العصر الذي نعيش فيه. ولكن كفى لغواً فهذا هو ذا دوريان قادم بنفسه علينا وسيزودك بما أجهل من أخباره.

قال الفتى وهو يصافح صديقيه الواحد بعد الآخر:

- أمطراً عليّ التهاني يا عزيزي هاري وأنت يا عزيزي بازيل، فما أسعدني الآن. لقد تمّت المسألة كلها فجأة ولكن هذه سنة الحياة فكل ما فيها من متع حقيقة تأتينا على حين غرة منّا، ومع ذلك فإنها تبدو لي كأنها الشيء الوحيد الذي كنت أبحث عنه طوال حياتي.

وفيما كان يتكلّم كان الدم يجري في وجنتيه من فرط السرور فزاده ذلك جمالاً على جمال.

قال هولورود:

- أتمنى لك السعادة المتصلة يا دوريان، ولكني لا أعتذر لك إخفاء خطبتك عني مع أنك أطلعت هاري عليها.

ووضع اللورد هنري يده على كتف الفتى وقال:

- وأنا لا أعتذر لك تأخرك في العشاء. فلنجلس لنرى ماذا أعدّ لنا الطاهي الجديد، وفي هذه الأثناء تسرد أنت علينا كيف تم كل شيء.

قال دوريان وهم يجلسون إلى المائدة الصغيرة المستديرة:

- ليس عندي ما يستحق السرد. وكل ما حدث هو أنني حين تركتك بالأمس يا هاري، عدت إلى منزلي وارتديت ملابس السهرة ثم تناولت عشاءي في ذلك المطعم الإيطالي بشارع روبرت الذي دلتني عليه، ولمّا بلغت الساعة الثامنة قصدت إلى المسرح. وكانت سيبيل تمثل روزاليندا⁽¹⁾ وبطبيعة الحال كانت المناظر بشعة، بل كان كل شيء بشعاً ما خلا سيبيل، فقد تجلّت في أبهى حال. ولما خطرت أمامي في زي صبي بدت آية من آيات الإبداع. كانت سترتها مخملاً أخضر ذا أكمام صفراء؛ وكانت تلبس تزلكاً رقيقاً داكن الصفرة وقبعة خضراء رشيقة عليها رياش مثبتة في جوهرة كريمة، وكان يغطّي كتفيها معطف نصفه مخطّط بالأحمر الداكن، فبدت لي أجمل ما تكون، وأشبهت في دقة تكوينها ذلك التمثال الإيطالي الصغير الذي يحلّي استوديو بازيل. وبدا وجهها وسط شعرها كوردة بيضاء وسط أوراق الشجر الكثيفة، ثم مثلت فأبدعت، ولسوف تريانها الليلة فيتحقّق لكما ما أقول. إنها فنانة موهوبة ملكت عليّ حواسي وأنا جالس في المقصورة الحقيبة، فأنسنتني أنني كنت في لندن وأني أعيش في منتصف القرن التاسع عشر، وحملتني على جناح الخيال مع محبوبتي إلى غابة نائية لم ترها عين بشر. وبعد انتهاء التمثيل قصدت

(1) شخصية رئيسية في مسرحية شكسبير «كما تحبها».

إلى غرف الممثلين وتحدّثت إليها. وفيما نحن جالسان رأيت في عينيها بريقًا جديدًا لم أعهده فيهما، واقتربت شفّتي من شفّتها وقبلتها. أما إحساسي في تلك اللحظة فلا سبيل إلى وصفه. لقد خيل إليّ أن حياتي كلها قد تركزت في ذرة واحدة من السعادة التي ما بعدها سعادة، وأخذت تنتفض بين يدي كأنها نرجسة بيضاء تنتفض أمام ربح خفية، ثم جثت على ركبتها وقبلت يدي. ما كان ينبغي أن أقول لكما ذلك ولكن قوة قاهرة تسوقني إلى أن أفضي بكل شيء. ومهما يكن من أمر فخطبتنا لا تزال سرًا لا يعرفه أحد، حتى أمها ذاتها، ولست أدري كيف يستقبل أوصيائي هذا النبأ، ولكن مما لا شك فيه أن اللورد رادلي سوف يغضب غضبًا شديدًا. فإن غضب فلست مقيمًا لغضبه وزنًا، لأنني سأبلغ سن الرشد بعد عام واحد على كل حال. ألا ترى أنني قد أحسنت صنعًا حين التمسيت فتاة أحلامي من عرائس الشعر واخترت شريكة حياتي من بين بطلات شكسبير؟ إن هاتين الشفتين اللتين علّمهما شكسبير فن الحديث قد همستا في أذني أسرار قلبها العميق، ولقد طوّقتني روزاليند بذراعيها الجميلين ولقد قبلت ثغر جوليت فسكرت على الرحيق.

قال هولورود في تودة:

- نعم يا دوريان أعتقد أنك أحسنت صنعًا.

وسأل اللورد هنري دوريان جراي قائلاً:

- رأيتها اليوم يا دوريان؟

فأجاب الفتى وهو يهز رأسه دلالة النفي:

- كلا. فقد تركتها في غابة آردين وسأجدها في بستان فيرونا.

قال اللورد هنري وهو يشرب كأس الشمبانيا في تدبّر عميق:

- قل لي يا دوريان، متى أشرت إلى الزواج صراحة؟ وماذا أجابت حين

عرضت عليها الزواج؟ أظنك قد نسيت كل ما جرى؟

- كلا يا صديقي هاري ولكنني لم أبحث الزواج معها كما يبحث تاجر

صفقة، بل إنني لم أطلب إليها الزواج بصورة رسمية. كل ما حدث هو أنني ذكرت لها إنني أحبها فأجابت بأنها لا تستحق أن تكون زوجًا لي، فما أشد تواضعها يا هاري! إن العالم كله لا يساوي عندي خردلة إذا قيس بها.

فقال اللورد هنري بصوت خافت:

- إن النساء عمليات إلى حد بعيد. نعم إن تفكيرهن أكثر عملية من تفكير الرجال. ففي مثل هذه المواقف كثيرًا ما ننسى أن نشير إلى الزواج ولكنهن يذكّرنا دائمًا به.

فأمسك هولورود بذراعه قائلاً:

- كفى يا هاري. لا تحرّض دوريان على الغدر فهو يختلف عن سائر الناس. إن طبيعته الصافية تأبى عليه أن يُنزل بأحد ضرًا. وإنك لتغضبه بهذا الكلام.

فأجاب اللورد هنري بقوله:

- إن دوريان لا يغضب مني أبدًا. لقد سألته هذا السؤال بدافع الفضول، وهو الدافع الوحيد الذي يجيز لنا أن نسأل الأسئلة. ومن رأيي أن النساء هن اللاتي يخطبنا، اللهم إلا عند أبناء الطبقة المتوسطة، وتفسير ذلك أن الطبقة المتوسطة طبقة رجعية.

- فضحك دوريان جرائي وهز رأسه قائلاً:

- لا سبيل إلى إصلاحك يا هاري، ولكن قل ما تشاء فلن يغضبني كلامك، ولو أنني أردت أن أغضب منك لما استطعت ذلك. إن الرجل الذي يمس سيبل فين بسوء جبان دنئ ولسوف تشاركني رأيي حين تراها. ثم إنني لا أفهم كيف يلوّث إنسان الشيء الذي يحبه. فأنا أحب سيبل، ولذلك تراني أود أن أضعها على قاعدة من ذهب سيك وأن أشاهد العالم يتعبّد للمرأة التي أملكها. وما الزواج؟ أليس الزواج عهدًا لا ينقض؟ إنك تسخر من الزواج يا هاري، ولكن موقفك موقف خاطئ. أما أنا فأريد أن آخذ على نفسي عهدًا لا ينقض، ولسوف تجعلني ثقتها فيّ

وفياً على الميثاق، وسوف يجعلني إيمانها بي أصفى نفساً وأنقى ضميراً.
لقد بدّلني حبها من حال إلى حال فإن مسّت يدها يدي ألهمتني عن كل ما
في الدنيا، ألهمتني عنك وعن نظرياتك الجميلة السامة.

قال اللورد هنري وهو يتناول قليلاً من السلطة:

- أي نظريات تعني؟

- أعني نظرياتك في الحياة وفي الحب وفي اللذة. بل أعني كل

نظرياتك يا هاري.

فأجاب اللورد هنري بصوت عذب بطيء:

- اللذة هي الشيء الوحيد الذي يستحق أن توجد فيه النظريات. وعلى
كلّ فأننا لا أدعي أن نظرياتني من عملي فهي من عمل الطبيعة. إن اللذة
مقياس الطبيعة ودليل رضاها، فالسعداء دائماً أحياناً ولكن الأحيار ليسوا
دائماً سعداء.

قال بازيل هولورود:

- ولكن ماذا تفهم من كلمة الخير.

وقال دوريان جراي وهو يغوص في مقعده وينظر إلى اللورد هنري

من وراء الأزهار الحمراء التي تزين المائدة.

- نعم. ماذا تفهم من كلمة الخير يا هاري؟

فأجاب اللورد هنري وهو يقبض على كأسه بأصابعه الشاحبة النحيلة:

- الخير هو انسجام الإنسان مع نفسه. والفوضى هي اضطراب الإنسان

للانسجام مع الغير. إن حياة الإنسان هي كل ما له في هذا الوجود، أمّا

حياة الجيران فليست من اختصاصنا وإن كنا نظهر الاهتمام بها من باب

النفاق الاجتماعي أو من باب التدين الشديد. ثم إن للفردية غاية سامية

هي ضمان التقدم، ولقد أصبح المقياس الحديث في الأخلاق قبول

مقاييس العصر الذي نعيش فيه، أما أنا فأقول إن قبول مقاييس العصر

الذي نعيش فيه عمل مناف للأخلاق وخطأ لا يغتفر لأي رجل مثقف.

قال الرسّام:

- ولكن من عاش لنفسه فقط دفع الثمن غاليًا يا هاري.

- نعم، فنحن الآن ندفع ثمن كل شيء غاليًا حتى السلع التي نشتريها.
وأني أعتقد أن المأساة الحقيقية في حياة الفقراء هي أنهم لا يملكون إلا
تضحياتهم يجودون بها للمجتمع. أما الخطايا فهي ترف لا يملكه إلا
الأغنياء.

- لم أقصد أننا ندفع الثمن نقدًا يا هاري.

- إذا فكيف ندفعه يا بازيل؟

- قصدت أن الثمن الذي ندفعه هو تأنيب الضمير والآلام والإحساس
بالانحطاط.

فهز اللورد هنري كتفيه وقال:

- إن فن العصور الوسطى جميل حقًا ولكن أفكار العصور الوسطى
أفكار بالية، وعواطف العصور الوسطى عواطف لا مجال لها في العصر
الحديث. نحن بالطبع نستطيع أن نستفيد منها في القصص الذي نكتبه
ولكن هذا من خصائص القصص، فكل ما ننبذه في الحياة نجد له مكانًا
في القصص. أوكد لك أنه ما من رجل متحضّر يأسف على لذة جناها وما
من رجل متبربر يعرف اللذة كيف تكون.

قال دوريان جراي:

- اللذة عندي هي أن أتعبّد لكائن ما.

فقال اللورد هنري وهو يعبث ببعض الفواكه الموضوعه على المائدة.
- هذا أفضل من أن يتعبد الغير لك، لأن ذلك مدعاة الضجر. إن
النساء يعاملتنا كما نعامل نحن الآلهة، فهن يحرقن لنا البخور ويضايقنا
بمطالبهن التي لا تنتهي.

وبدا الجد على وجه الفتى وقال:

- يخيل إليّ أنهم يأخذن ما أعطين لا أكثر ولا أقل. لقد غرسن في

قلوبنا الحب، وأعتقد أن من حقهن أن يطلبن استرداد هذا الحب.

فقال هو لورورد:

- أنا من رأيك يا دوريان. فهذا صحيح تمامًا.

قال اللورد هنري:

- ليس في الوجود ما هو صحيح تمامًا.

فقاطعه دوريان قائلاً:

- ولكن لا بد أن تعترف يا هاري بأن النساء يعطين الرجال أنفس شيء

في حياتهن ألا وهو ذهب الشباب.

فأجاب اللورد هنري:

- هذا جائز، ولكنهن بلا استثناء يردن استرداد هذا الذهب منا مفكوكًا

وهذا ما يحزن الإنسان. إن النساء كما وصفهن ذكي من أذكيا فرنسا يلهبن

فيها الرغبة في القيام بروائع الأعمال ثم يمنعنا عن تنفيذ هذه الرغبة.

- أنت شخص لا يطاق يا هاري، ولست أدري فيم تعلق بك.

فأجاب اللورد هنري:

- إنك ستعلق بي دائمًا. أتريدان القليل من القهوة؟ هات لنا بعض

القهوة وبعض الشمبانيا وبعض السجائر يا جون. كلا يا جون لا تأت

بسجائر لأن معي منها ما يكفي. لن أسمح لك يا بازيل بأن تدخن السيجار

فخذ سيجارة. إن السيجارة هي أحسن مثل لأحسن متعة، فهي لذيدة وهي

لا تشبع حواسك تمامًا، وهل بين متع الحياة ما هو خير من ذلك؟ نعم يا

دوريان، إن حبك لي لن يفتر أبدًا، فأنا أمثل لك جميع الرذائل التي لا

تجرو على الانغماس فيها.

فقال الفتى وهو يشعل سيجارته من نار قدّمها خادم المطعم له تخرج

من قم تنين صنع من الفضة:

- ما هذا الهراء يا هاري! هيا بنا إلى المسرح، وسوف تتغير أراؤك في

الحياة حين تشاهد سبيل تخطر أمامك على الخشبة، فهي تمثل جانبًا من

الوجود لم يصل بعد إلى علمك.

أجاب اللورد هنري:

- هذا مستحيل لأن علمي أحاط بكل شيء ولكنني نهم إلى كل إحساس جديد، وإن كانت نفسي كذلك لا تتسع لإحساس جديد لأنها جرّبت كل شيء. مهما يكن من شيء فمن الجائز أن تثيرني صديقتك الصغيرة الفاتنة، فأنا أحب التمثيل وأجده أقرب إلى الواقع من الحياة. هيا بنا. اركب معي يا دوريان في عربتي، أما أنت يا بازيل فيؤسفني أن أطلب إليك أن تستأجر عربية وتلحق بنا لأن عربتي لا تتسع إلا لشخصين. ونهض ثلاثتهم وارتدوا معافطهم وشربوا قهوتهم وقوفًا. أما الرسّام فكان صامتًا منشغل الباب على وجهه وجوم. لقد كان يجد في هذا الزواج غلطة كبرى، ومع ذلك فقد أحس أنه أهون شرًا من سواه. وبعد دقائق كانوا جميعًا خارج المطعم وسعت به العربة التي استأجرها تتبع عربة اللورد هنري فأنشأ يتأمل أنوارها الباهرة. وغمره شعور بأنه أضاع شيئًا ثمينًا. أحس بأن دوريان جراي قد خرج من حياته ولم يعد يلهمه بشيء كما كان يفعل في الماضي. لقد حالت بينهما الحياة. وأظلمت الدنيا في عينيه وسبحت أمامه المصابيح الثاقبة، ولم يعد يرى المارة في وضوح. فلمّا أن بلغ باب المسرح أحس بأنه قد كبر أعوامًا وأعوامًا.

الفصل السابع

كانت دار التمثيل في تلك الليلة تعج بالنظارة لسبب لا يعلمه أحد، ووقف اليهودي البدين بباب الدار يستقبلهم وهو منشرح الصدر طافح بالبشر، وقاد ثلاثتهم إلى المقصورة الخاصة بهم في احتشاد عظيم وفي خيلاء معاً، مشيراً بيديه الغليظتين المرصعتين بالجواهر في كل اتجاه متحدثاً إليهم في صوت مرتفع كأنهم صُمُّ لا يسمعون. فأحس دوريان جراي نحوه ببعض شديد. أحس بأنه قدم ليرى ميراندا فلم ير إلا كاليان. أما اللورد هنري فقد ارتاح إليه، أو على الأقل زعم انه ارتاح إليه ولم ينسَ أن يصفحه بحرارة وأكد له أنه فخور بمعرفة رجل مثله أقره الشعر واستطاع أن يستكشف عبقرية مدفونة كسيبيل فين، على حين كان هولورود يسلي نفسه بتصفح وجوه الرعاع المحتشدين في المقاعد الرخيصة، وكان الحر قانظاً وتدقق في المسرح شعاع عظيم بقي من الشمس الغائبة، شعاع بدا كزهرة جسيمة صفراء أوراقها لهب هائلة. وخلع الشبان الذين ملأوا شرفات الدار ستراتهم ووضعوها بجانبهم وأنشأ بعضهم في طرف المسرح يتحدث إلى بعضهم في الطرف الآخر، ويقتسمون ما معهم من البرتقال مع الفتيات ذوات الهيئة الرثة الجالسات إلى جوارهم. ورن ضحك النسوة من أسفل القاعة فجاء حاداً مزعجاً، ومن البار ارتفع صوت الفلين يخرج من زجاجات الشراب. قال اللورد هنري:

- يا لها من مباءة بخسة هذه التي وجدت فيها قدسك!

فأجاب دوريان جراي:

- نعم إنها لمباءة بخسة، ولقد وجدت فيها قدسي. أن سيبييل فين قبس من الله لم يحل بعد في بشر. ولكنك ستنسى هذه المباءة حين تراها تمثّل. ولسوف تبصر هذه الوحوش الآدمية الغليظة الملامح الخشنة الطباع تُستأنس حين تخطر سيبييل أمامها على المسرح، ولسوف تراها تجلس في صمت شاخصة العيون، تضحك وتبكي بإيماءة منها. إن قلوبهم تستجيب لها استجابة الكمان للقوس. إنها تبث فيهم من عندها روحًا وتسمو بهم عن صداً المادة، وحين أراهم في هذه الحالة أحس بأنهم خلقوا حقًا من طينتنا، نحن النبلاء.

فقال اللورد هنري وهو يتفحّص الأوباش في الشرفات بمنظاره المكبّر:

- هذه قسوة منك يا دوريان، فكيف تقول إنهم خلقوا من طينتنا.

قال الرّسام:

- لا تلتقِ إليه بالآ يا دوريان، وأنا أفهم بالضبط معنى ما تقول وأشاركك إيمانك بهذه الفتاة. إن فتاة تختصها أنت بحبك لا بد أن تكون درّة بين النساء، وإن فتاة تترك في نفسك كل هذا الأثر لا بد أن تكون مخلوقًا ساميًا نبيلًا. نعم، إن فتاة تنفخ الروح في هذه الجمادات المتحرّكة، وتودع الإحساس بالجمال في نفوس ممسوخة مظلمة، وتنزع الأثرة من قلوبهم فتستدر دموعهم لفجائع لا تمسهم شخصيًا لخليقة بحبك العظيم، بل لخليقة بأن تقدسها الدنيا بأسرها. لقد عدلت عن رأيي السابق وأني لأوافق على هذا الزواج من كل قلبي. إن الآلهة خلقت سيبييل فين من أجلك يا دوريان، ولن تكتمل نفسك إلا بها.

فأمسك دوريان جراي بيده وضغط عليها في حرارة وقال:

- شكرًا لك يا بازيل. لقد كنت أعرف أنك ستفهمني، أما هاري

فهو يسخر بكل شيء، وهذا يرعيني، ولكن كفى حديثاً الآن فقد بدأت الموسيقى تمهّد للتمثيل، وأرجو أن تحتُملاها في صبر لأن هذه الألحان المزعجة ستتهي في دقائق حين يرتفع الستار، وعندئذ ستريان الفتاة التي سأكرّس حياتي لإسعادها، نعم، ستريان الفتاة التي وهبتها خلاصة نفسي. وبعد ربع ساعة ظهرت سيّيل فّين على المسرح بين دوي من التصفيق يصم الآذان. وقد نجحت في الامتحان الأول نجاحاً باهراً، فقد رأى الرجلان جمالها الرائع وأخذاه به. بل إن اللورد هنري رأى أنها نادرة بين النساء. وبدأت كحورية خجول جفلى، وحين وقع بصرها على الحشد الحاشد المتحمّس في جنبات الدار احمرّ خدها حياءً فبدأ كخيال وردة في صفحة فضية. وتراجعت خطوات وارتجفت شفتاها فنهض بازيل هولورود وأنشأ يصفّق تحية لها، واسترسل دوريان جراي في حلم طويل محملاً فيها كالمحملق في رؤيا عجيبة، أما اللورد هنري فكان يتأملها بمنظاره ويردّد قوله: «ما أبدعها حقاً! ما أبدعها!».

وكان المشهد صحن دار كاپوليت، ودخل روميو مع مركشيو وأترابه في زي زائر الحرم وعزفت الفرقة بعض الألحان الإيقاعية. وبدأ الرقص، ومشت سيّيل فّين بين جمهرة الممثلين ذوي الثياب البالية كأنها مخلوق علوي مُوفد من عالم الأحلام. وتثنّى جسدها أثناء الرقص كعود الخيزان، ولاحت تجاعيد جيدها كطيات السوسن الأبيض، وبدأت يداها الناعمتان كأنهما قُدتا من العاج الأملس المنعش.

ولكن فتورها كان ملحوظاً، وحين وقع بصرها على روميو لم يبدُ عليها الفرح لمرآه، وحين بدأت تقول: «أيها الزائر الحرم، إلاً رفقاً بيدك...» وما أعقب ذلك من كلمات قليلة بدأ حديثها متكلفاً للسامعين. كان صوتها جميلاً حقاً، ولكنه كان زائف التلوين لا إحساس فيه، فأفسد طعم الشعر الجميل، وجعل من عاطفة چوليت الصادقة عاطفة باردة مصطنعة.

وشحب وجه دوريان جراي وهو يتتبع كلماتها واستبد به القلق وحرار

في أمرها. ولم يجسر صديقه على مكاشفته بحقيقة الأمر، بأن سيبييل فين ممثلة ساقطة، بأن سيبييل فين خيبت ظنهما إلى أبعد حد.

ومع ذلك فقد أحسَّ بأن منظر الشرفة في الفصل الثاني هو المقياس الحقيقي لكل جوليت فأزمعا على الانتظار ليصدرا فيها حكماً نهائياً.

وجاء منظر الشرفة فأطلت منها وغمرها نور القمر فكانت آية في الفتنة، ولكن تمثيلها كان مفتعلاً إلى حدٍّ لا يُطاق، بل كان يزداد افتعلاً باطراد حتى أمست اشارتها مضحكة، وكانت تؤكد كل عبارة تقولها بلا داع فمسخت جمال الأبيات التالية:

وإن ما سمعت من كلامي

ألهب فيّ خفر العذارى

لكن كف الليل يا حبيبي

لثم بخمار نكس وجهي

فلم تعد ترى ضرام خدي

ورنت في آذان سامعيها كقطعة من المحفوظات تلقيها تلميذة تولى تدريبها مدرس في الإلقاء لا يتقن فنه، وحين اتكأت على الشرفة وقالت:

أنت ملكت القلب، بيد أني

أضرع لك لا تستعجلني

باغتنا الغرام يا غرامي

كالسيل، أو كالبرق في الجوزاء،

تأكله الظلماء قبل قولي:

«انظر لقد أبرقت السماء!»

إلى الغد المأمول يا حبيبي

عسى براعم الهوى بقلبي

تزهو عند الصبح، فوداعاً!

خرجت الكلمات من فمها ميتة كأنها لا تعني شيئاً، ولم يكن بها أدنى

اضطراب بل كانت تملك زمام نفسها بيدها مما زاد الموقف سوءًا. نعم، لم يكن هناك موضع للاعتذار لها، فلقد كانت تجهل أصول فنّها وهذه خلاصة القول، ولقد كان فشلها ذريعًا. حتى السوق الذين غصّت بهم شرفات الدار ومقاعدّها الرخيصة تمللملوا في أماكنهم، وبدأوا يتحدّثون بأصوات مسموعة ويصفّرون استنكارًا. كل ذلك واليهودي مدير الدار واقف في منتصف الدار يضرب الأرض بقدمه ويفوه بالألفاظ النابية. وكانت سييل فين الشخص الوحيد الذي لم يهتز لشيء مما يجري. ولما انتهى الفصل الثاني ارتفعت صيحات التهكم من كل جانب.

ونهض اللورد هنري وارتدى معطفه وقال:

- إنها فاتنة حقًا يا دوريان، ولكنها لا تعرف شيئًا عن فن التمثيل.

لنصرف الآن، فهيا بنا.

فأجاب الفتى في مرارة شديدة:

- سأبقى أنا هنا لأشاهد الرواية حتى نهايتها ولكم يؤسفني أنني أفسدت عليك المساء يا هنري. أرجو أن تقبلوا اعتذاري.

فقاطعه هولورورد بقوله:

- لا جناح عليك يا صديقي دوريان، فلعل الأنسة فين مريضة، وسوف نأتي لمشاهدتها في ليلة أخرى.

قال دوريان جري:

- ليّتها كانت مريضة، ولكن الحقيقة تخالف ذلك، فقد بدت لي باردة خلّت من كل شعور وأؤكد لك أنها لم تكن كذلك من قبل. لقد كانت بالأمس فنانة من الطراز الأول وهي اليوم ممثلة فاشلة لا تعرف عن صناعتها شيئًا.

قال هولورورد:

- لا تتكلّم بهذه اللهجة عمن تحب يا دوريان، فالحب أسمى من الفن.

بدرجات.

فقال اللورد هنري:

- إنما الحب والفن أسلوبان في التقليد. ولكن هيا بنا يا بازيل. أمّا أنت يا دوريان فلستُ أنصح لك بالبقاء لأن مشاهدة التمثيل الزائف تفسد الأخلاق. ثم إن المسألة ليست ذات بال فأعتقد أنك لن تسمح لزوجتك أن تظهر على المسرح. إنها جميلة حقًا ولو أن خبرتها بالحياة كانت قليلة كخبرتها بالتمثيل لكنت لك فيها دراسة ممتعة. ففي الناس نوعان يخلبان لبي، الناس الذين يعرفون كل شيء والناس الذين لا يعرفون شيئًا. إن من يراك الآن يا دوريان يحسب أنك فجعت في أعز عزيز لديك، فدع عنك هذا الوجوم لأن الأمر لا يستحق كل هذه اللوعة، ولأذكرك بأن سر الشباب هو المرح الدائم تعال معنا إلى النادي حيث نشرب نخب جمال سيبل فين. هي جميلة ما في ذلك ريب، فماذا تطلب أكثر من هذا؟
قال الفتى:

- اتركاني وحيدًا، فإني أريد أن أخلو بنفسي. هيا انصرف يا هنري، وأنت يا بازيل انصرف. ألا تريان أن قلبي يتمزق.
واغرورقت عيناه بالدمع السخين وارتجفت شفتاه وعاد إلى مقصورته على عجل وهناك وقف مستندًا إلى الحائط وقد دفن وجهه في راحتيه.
قال اللورد هنري في حنان ليس من طبعه:
- هيا بنا يا بازيل.
وانصرف الرجلان.

وبعد لحظات أضاءت أنوار المسرح وارتفع الستار وبدأ الفصل الثالث. وأخذ دوريان جرائي مكانه من المقصورة شاحب الوجه بادي الفتور وقد استعاد كبرياءه المجروح. ومرّت الرواية ثقيلة كأنها بغير نهاية. وانصرف نصف الحاضرين وهم يضربون الأرض بأقدامهم الثقيلة ويضحكون ساخرين. وحين جاء الفصل الأخير كانت الدار خاوية فيما عدا رجل هنا ورجل هناك، وانسدل الستار فضحك قوم وتأوه آخرون.

لقد سقطت الرواية.

وما أن انتهى التمثيل حتى بادر دوريان جراي بالذهاب إلى غرف الممثلين وكانت الفتاة واقفة بمفردها هناك وعلى محياها أمارات الانتصار وفي عينيها بريق جميل، وكانت تشع نورًا كأنها ملك من السماء وقد انفرجت شفتاها الباسمتان فلاح أن لديها سرًا تخفيه. وحين دخل دوريان جراي تأملته فسرت في فؤادها نشوة عظمية. قالت:

- ما كان أقبح تمثيلي الليل يا دوريان!

فأجاب وهو يحملق فيها عاجبًا:

- لا حد لشناعته. لا حد لشناعته. أمريضة أنت؟ لا حد لشناعته، لقد أشقيتني شقاء لا مزيد عليه.

ابتسمت الفتاة وقالت وهي تترنم باسمه:

- لقد كان ينبغي أن تفهم يا دوريان، ولكنك تفهم الآن. أليس كذلك؟ فأجابها غاضبًا:

- أفهم ماذا؟

- تفهم السر في سقوطي الليلة، بل تفهم السر في سقوطي من الآن فصاعدًا. لن أستطيع الإجابة بعد اليوم يا دوريان. هز كتفيه وقال في استخفاف:

- أعتقد أنك مريضة، وحين تكونين مريضة تجنبي التمثيل لأنك تضحكين الناس منك. لقد كان معي صديقان فقتلتهما الملل. ولقد قتلتني الملل كذلك.

وبدا عليها أنها منصرفه عنه. لقد غمرتها سعادة عظمية ألقتها عن كل شيء. قالت:

- لقد كان التمثيل عندي شغل الحياة قبل أن أعرفك يا دوريان بل لقد أصبحت الحياة عندي تمثيلًا وأصبح التمثيل الحياة. فأنا الليلة روزاليند وغداً بورشيا وكانت أفراح بياتريس أفراحي وأحزان كورديليا

أحزاني، وكنت أرضى بكل شيء فهؤلاء الممثلون التافهون كانوا موضع إعجابي، وكانت مناظر المسرح هي الدنيا التي أعيش فيها. هذه الظلال ملأت حياتي فخلتها حقائق حتى جئت أنت يا حبيبي وأعتقت روعي من هذا الإسار وعلمتني ما تكون الحقيقة. وهذه أول ليلة في حياتي أحس فيها بأن هذا الموكب الذي أسير فيه زائف أجوف سقيم. هذه أول ليلة أحس فيها بأن روميو الذي يشخص على المسرح أمامي رجل قبيح مزوق بالطلاء، وبأن نور القمر والحديقة زائفان جميعاً وأن الكلمات التي أتفوه بها زائفة كذلك، لأنها لم تكن كلماتي ولم تعبر عن الشعور الذي يخالجنني. أما أنت فقد منحتني شيئاً لا زيف فيه، شيئاً أسمى من الفن، شيئاً ما وجد الفن إلا ليعبر عنه. لقد جعلتني أفهم معنى الحب الحقيقي. أنت حبيبي ومولاي وأميري الساحر، ولقد سئمتُ الظلال يا حبيبي، وإنك عندي لأثمن من فنون العالم جميعاً. فما بقائي بين هذه الدمى التي لا حياة فيها؟ لم أفهم في البدء كيف تبدل حالي وخلتُ أني سأوفق الليلة توفيقاً عظيماً فلماً بدأت أتكلم عرفت أن كل شيء قد ضاع مني وإني الآن مخلوق جديد. ثم أدركت فجأة أن هواك هو الذي بدل نفسي فطربت طرباً شديداً. وحين سمعت الناس يتكلمون بي لم أغضب بل ابتسمت لأنني أعرف ما لا يعرفون. وكيف يعرف هؤلاء السوقة معنى غرامنا العظيم؟ إني أمقت المسرح يا دوريان فخذني معك حيث تشاء، ولنعش في عزلة عن الناس. وكيف أمثل بعد اليوم؟ إني إن استطعت أن أصطنع عاطفة لا أحس بها فلن أستطيع أن أصطنع عاطفة تكوي قلبي وتفري كبدي. أنت تفهم الآن سر سقوطي الليلة يا دوريان. ولو أني استطعت أن أجد بعد اليوم لكان تدنيساً لحبنا أن أمثل دور المحبة وأنا محبة. لقد تعلمت هذا منك يا دوريان.

فارتدى على أريكة الغرفة وأشاح بوجهه قائلاً:

- لقد قتل حبي لك.

فنظرت إليه عاجبة وضحكت ولكنه لم يقل شيئاً فدنت منه وأنشأت
تعبت بشعره ثم جثت إلى جواره وأمسكت يديه وضمتهما إلى شفتيها
فسرت في جسده رعشة قوية وجذب يديه بعيداً. ثم نهض وسعى إلى
الباب وقال:

- لقد قتلت حبي لك. فقد كنت تحركين خيالي أما الآن فأنت لا
تحركين فيّ شيئاً حتى فضولي. لقد ضاع أترك في نفسي، ولم يعد لك
عليها سلطان. لقد أحبتك لأنك كنت صاحبة فن عظيم، لأنك أوتيت
الفطنة والنبوغ، لأنك حققت أحلام الشعراء وجسدت ظلال الفن.
ولكنك تخليت عن كل هذه الأشياء فما أغباك وما أتفهلك. يا إلهي! لقد
كان حبي لك جنوناً مطبقاً فما كان أغباني، ولكنك خرجت من قلبي تماماً،
فلن أسعى لرؤيتك بعد اليوم، ولن أفكر فيك، ولن يرد اسمك على فمي.
لقد كنت لي بهجة الحياة، بل كنت لي قوت الروح فما أشقاني الآن. لقد
أفسدت عليّ جمال الحياة فليتني لم أعرفك مطلقاً. فإن كنت تحسبين أن
الحب يفسد الفن فما أجهلك بالحب! وأنت بغير الفن لا تساوين شيئاً،
ولكنك اخترت سبيل الضلال ولو أنك آمنت بالفن لجعلتك قبلة الأنظار
ورفعتك على سائر النساء ووهبتك اسمي وسموت بك حتى يراك كل من
في الدنيا، ولكنك ركلت كل هذا بقدمك فماذا جنيت من ذلك؟ ما أنت
الآن إلا ممثلة تافهة لها وجه صبح.

فشحب لون الفتاة وارتعدت فرائصها وانطبقت يداها واحتبس
الصوت في حلقها وقالت:

- أنت جاد في ما تقول يا دوريان؟ إنك تمثل دور الحانق لتخيفني.

قال الفتى في مرارة:

- بل أترك التمثيل لك لأنك تحذقينه كل الحذق.

فنهضت الفتاة ومشت إليه في ألم بالغ وأمسكت بذراعه وأنشأت تقرأ
ما تقوله عيناه، فدفعها بعيداً عنه وقال:

- لا تمسيني.

وجئت الفتاة عند قدميه وانبعث منها أنين مكتوم فبدت كزهرة جميلة سحقته الأقدام، وأخيرًا همست قائلة:

- لا تتركني يا دوريان، لا تتركني. لقد كنتُ أفكر فيك طول الوقت فألهاني ذلك عن إجادة عملي، فاغفر لي ذلك وإني لأعدك بأنني سأجتهد في المستقبل أن أتقن دوري ما استطعت إلى ذلك سبيلاً. لقد ملأ حبك نفسي فجأة، ولولا أنك قبلتني لما عرفت الحب. أجل لولا تلك القبله لما استيقظ حبي ولظل نائمًا في صدري، فقبلني يا حبيبي مرة أخرى لتطفئ شوقي إليك. أضرع إليك لا تتركني، إن أخي توعد بأن.. ولكنه لم يكن جادًا في وعيده. ألا تستطيع أن تغفر لي ما حدث الليلة؟ لا تنسَ أن هذه أول مرة أقصّر فيها وسوف أجهد لأتقن عملي ما وسعني الاجتهاد. لا تقس في عقابي لأنني أحمل لك كل هذا الحب، ولكنني أرى الآن أنك على حق في ما تقول، فقد كان خسة فيّ أن أستخف بالفن لأنني عرفت الحب أو أن أجد في الحب ما يصرفني عن الفن. أعترف لك بأن هذا كان حماقة مني، ولكنني لم أكن مختارة في ما فعلت، فأرجو منك الصفرح على ما مضى ولا تتركني، أو اه! لا تتركني!

وخنقتها العبرات فلم تقو على الكلام، وظلّت طريحة على الأرض كأنها حيوان جريح، فأخذ دوريان ينظر إليها في احتقار قاتل ارتسم على شفثيه الجميلتين واضحا قويا وسخر من فيض العاطفة الذي غمرها لأنه كف عن حبها، فبدت سيبيل فبين له مسرحية تسرف في عرض حبها إلى درجة تدعو إلى السخرية، ولم يهتز لدموعها الجارية بل ضاق بها ذرعا. وأخيرًا قال بصوت هادئ واضح:

- سأنصرف الآن في غير رجعة، وما أقصد بهذا إيلا مكي ولكنك خيبت أملي فيك.

فبكت في صمت. ولم تجب بشيء، ولكنها زحفت نحوه وامتدت

يدها كأنها تريد أن تستوقفه ولكنه أولاها ظهره وخرج من الغرفة، وفي دقائق معدودات كان خارج الدار.

وسار على غير هدى لا يعرف لنفسه وجهة أو طريقاً. كل ما ذكره أنه جاب في شوارع قليلة الأنوار ومرَّ بأقبيّة متهاوية قاتمة الظلال وبمنازل مقبضة كأنها أوكار الغدر والجريمة.

كذلك ذكر أنه صادف في سيره نسوة استوقفنه بأصوات خشنة وأرسلن وراءه ضحكات خشنة، وأنه مرَّ بسكارى يترنحون في مشيتهم ويتفوهون بأقذع الألفاظ ويحدّثون أنفسهم كأنهم قرده ممسوخة، وأنه رأى أطفالاً لا كالأطفال تحملهم أمهاتهم على عتبات المنازل، وسمع صرخات تنبعث من أفنية مظلمة يصاحبها سُبَاب شنيع.

وعندما انبلج الفجر وجد نفسه قرب كوفت جاردن⁽¹⁾. ورأى الظلام ينقشع والسماء تبدو كالدرّة الصافية وقد خضبتّها حمرة خفيفة. وسمع ضجيج العربات وهي تسير ببطء في الشارع النظيف الخاوي، وملاً الهواء أريج الأزهار فاستشفت بجمالها نفسه المتعبة. وتبع العربات حتى بلغت السوق وشاهد الحمالين يفرغون حمولتها، وتقدم إليه أحدهم بقليل من الكرز فأخذه شاكرًا وهو يعجب لأن الرجل رفض أن يقبل ثمن ما أعطى. وأنشأ يأكل الفاكهة في غير شهية، وكانت الفاكهة قد قطفت عند منتصف الليل وكان ملمسها رطيباً كأن نور القمر البارد قد نفذ فيها. ومر أمامه صف طويل من الصبيان يحملون صناديق بها شتى أنواع الأزهار وشقوا طريقهم بين أكداس الخضر على حين وقفت بباب دار الأوبرا ذي الأعمدة الشهباء التي لفتحها الشمس جماعة من البنات متسكعات عاريات الرؤوس ينتظرن انتهاء المزاد، ووقفت جماعة أخرى عند أبواب

(1) من أحياء لندن، كان مشهوراً بسوق الخضار والفاكهة وقت كتابة الرواية.

المقهى في البياتزا⁽¹⁾. كل هذا والخيل الضخمة التي تجر العربات تضرب الأرض الخشنة بحوافرها وتهز الأجراس المعلقة في أعناقها، والحمام ذات الرقاب البيضاء والأقدام الحمراء تسعى هنا وهناك تلتقط الحب.

وبعد قليل مرّت عربة فاستوقفتها وعاد بها إلى بيته. وحين بلغ البيت لم يدخل بل وقف ببابه قليلاً يتطلّع إلى الميدان الساكن وما به من نوافذ خشبية جرداء وما به من نوافذ كستها الستائر. وبدت له السماء في تلك اللحظة كفيروزة كبرى نقية من كل وشب ولمعت تحتها سطوح المنازل كما تلمع الفضة، ورأى الدخان يتصاعد في ذوائب خفيفة من مدخنة بيت مقابل فيلوح لرائيه كالشرائط البنفسجية المتطايرة في الهواء الذي تألّق كالصدف المصقول.

ثم دخل الحجرة الأولى ذات الجدران المحلّاة بخشب البلوط فوجد الأنوار لا تزال تضيء من ثلاث عيون مشتعلة داخل مصباح كبير مذهب جيء به قديمًا من البندقية حيث كان يزيّن جندول حاكم تلك المدينة وكان المصباح يتدلى من سقف الحجرة، فأطفأ العيون، وبعد أن قذف بقبعته وعباءته على المائدة دخل إلى مكتبته ووقف بباب حجرة النوم وهي حجرة مثمّنة الأضلاع في الدور الأرضي زين جدرانها حين نما فيه حبه الجديد للبخ ببسط من عصر النهضة غريبة التصميم وجدها بين مجموعة مهمة في غرفة مهمة بمتحف سلبي فابتاعها. وفيما هو يدير مقبض الباب وقعت عينه على الصورة التي رسمها له بازيل هولورود فأخذه عجب شديد، ثم دخل حجرة النوم قلق الخاطر، وبعد أن فك أزرار سترته تردّد قليلاً ثم رجع إلى الصورة وتأمّلها ملياً، فخيّل إليه أن الوجه قد تغيّر قليلاً، فقد كان التعبير المرتسم عليه مختلفاً عمّا كان في الماضي. خيّل إليه وهو ينظر إلى الصورة في الضوء المكبوت الذي تسرّب من بين

(1) بالإيطالية في الأصل وتعني الميدان الواسع.

الستائر الحريرية الصفراء أن شيئًا من القسوة قد ارتسم في موضع الفم فعجب لذلك أيما عجب.

ثم سعى إلى النافذة وأزاح عنها الستار فتدقَّق في الحجرة نور الفجر الوضاء ونسخ الظلال المديدة وجمعها في أركان الحجرة القاتمة، وهناك رقدت الظلال منكمشة ترتعش. ولكن الضوء الغامر الذي ملأ المكان لم يمح ذلك التعبير الغريب الذي شاهده في صورته بل أكدّه وسقط ضوء الشمس على موضع الفم فأظهر له في وضوح أمارات القسوة وخيل إليه أنه يرى وجهه في مرآة بعد أن ارتكب إثماً فاحشاً ترك آثاره في محياه.

فتجهمَّ وجهه وكانت على المائدة مرآة بيضاوية الشكل ذات إطار عاجي زينتها نقوش لكوييد كثيرة كان اللورد هنري قد أعطاه إياها بين ما أعطاه من هدايا كثيرة، فأمسك بها ونظر إلى خياله على عجل فلم يجد أثرًا لذلك الخط الذي شوّه جمال شفثيه في الصورة، فحازَ في الأمر.

وظن أنه ما به خداع حسبي ففرك عينيه واقترب من الصورة ليدرسها من جديد فلم يجد بها أي تبدل، لكنه لم يشك في أن الوجه بأكمله يحمل معنى جديدًا. نعم. إن ما يراه حقيقة لا ريب فيها، وهي تنطق في معالم الوجه بجلاء تام أثار الرعب في قلبه.

وارتمى على مقعد وبدأ يفكر. وفجأة تذكَّر عبارة قالها وهو في استوديو بازيل هولورود يوم أن فرغ الرسَّام من الصورة، وعادت تلك العبارة إلى ذهنه كأنه قالها بالأمس.

لقد صرح صديقيه يومها بأنه يتمنى لو أن شبابه يدوم له وتحمل الصورة عنه عبء السنين، لو أن جماله الناضر يظل ناضرًا ويتحمَّل الوجه المرسوم على اللوحة وزر آثامه وشهواته، لو أن آثار الهم والشقاء تنتقل من محياه إلى الخطوط والألوان فتسكن فيها وتمزِّقها تمزيقًا، حتى يبقى لمحياه غضارة النرجس في مطلع الربيع. فهل تحققت له هذه الأمنية؟ هذا محال لأن مثل هذه الأمانى محال أن تتحقق. بل إن مجرد التفكير في

هذه الأمانى بدا له جرم رهيب. ومع ذلك، ها هي الصورة أمامه تحمل معاني القسوة بعد أن كانت آية في الصفاء.

ولكن كيف كان هجره لسيبيل حين قسوة منه عليها. إنها خيبت آماله فنالت ما تستحق من عقاب. لقد كان يحب فيها الفنانة الموهوبة لا الفتاة صاحبة الوجه المليح. إلا أن الندم عض قلبه حين تذكرها وهي جاثية عند قدميه تذرف العبرات، وتذكر بروده الشديد وهو يتأملها تستجدي عطفه. فبدأ يلوم نفسه على جموده تارة ويعتذر لنفسه بأنه قد ذاق مثل ما ذاق من عذاب. لقد مرت به الساعات الثلاث التي استغرقتها الرواية كأنها ثلاثة قرون، وشقي أثناءها شقاء لا مزيد عليه. وإن حياته لأثمن من حياتها، فإذا كان قد أشقاها دهرًا فما ذلك إلا لأنها أشقته لحظات، وهذا عدل. ثم إن النساء أقدر من الرجال على تحمل الآلام. فالعواطف قوام حياتهن، والعواطف قوام تفكيرهن. ولقد قال له اللورد هنري إن النساء يعشقن الرجال ليتسنى لهن خلق المواقف المؤثرة، واللورد هنري عليم بأسرار النساء. ثم ما كل هذا التفكير في سيبيل حين؟ ألم ينته كل شيء بينه وبينها؟

نعم، ولكن هناك الصورة. فما العمل في هذه الصورة التي تعلن مكنونات نفسه وتسرد قصة حياته دون حاجة إلى ألفاظ؟ لقد علمته الصورة أن يتعشق جمال تكوينه، أفترأها تعلمه الآن أن يمقت بشاعة روحه؟ وهل من الخير له أن يتتبع التغير الجاري فيها في مستقبل الأيام. ما هذا إلا هوس انتابه فهو محطّم الأعصاب تخدعه حواسه. ما هذا إلا أثر الليلة السالفة العصبية التي انقضت وتركت وراءها أشباحها. لقد كادت الخواطر المتضاربة أن تصرعه. لقد كادت الشكوك أن تذهب بلبه. كلا. إن الصورة لم تتغير وجنون أن يظن أنها تغيرت. نعم. إن الصورة قد تغيرت، وها هو ذا الوجه الجميل قد أصابه كدر خفيف وها هو ذا الفم الباسم قد أفسدته قسوة واضحة. ها هو ذا الشعر الذهبي يلمع تحت

شمس الصباح الباكر. والتقت عيناه بعينها فكاد يبكي رحمة بها ورتاء. فقد تغيّرت معالمها فعلاً، ولسوف تتغيّر كل يوم فالشعر الذهبي سوف ينطفئ مع الأيام ويتحوّل إلى فضة شهباء. والورد الأحمر في شفيتها والورد الأبيض في خديها سوف يذبل ثم يموت. وكلما اقترب إثمًا من الآثام سجلته الأيام على صفحة وجهها غضونًا عميقة وخطوطًا ملتوية تشوّه جمالها. لسوف تكون هذه الصورة مرآة نفسه وصفحة ضميره، وهو لهذا سيقاوم الغواية ما أمكنه ذلك ويقتلع من نفسه جذور الخطيئة. ولسوف يتجنّب رؤية اللورد هنري بعد اليوم، فإن رآه لم يستمع إلى نظرياته السامة التي تتسرب إلى عقله كالشراب السحري، تلك النظريات التي سمعها في حديقة بازيل هولورود حرّكت في نفسه لأول مرة رغبة مدمرة في أن يأتي بعجائب الأمور. ولسوف يرجع إلى سيبيل فين ويطلب رضاها ويتزوجها ويجتهد في أن يعيد حبها إلى قلبه. نعم إن هذا واجبه ولا مفر من أداء الواجب. لا بد أنها شقيت أكثر مما شقى فيا لها من فتاة تاعسة. لقد كان لا يفكر إلا في نفسه فيقسو في حكمه عليها وهذه منه أثره لا تغتفر وهو لا بد مكفر عنها. ولا شك أن سلطانها عليه سيعود وأنهما سيعيشان في سعادة مثل سعادة الملائكة الأطهار.

ونهض من مقعده وأسدل على الصورة ستارًا كبيرًا أخضر، وفيما هو يفعل ذلك نظر إلى الصورة فسرت في جسده رعشة. فقال محدثًا نفسه «باللشاعة» ثم مشى إلى النافذة وفتحها. وخرج إلى حديقة بيته وسار على الحشائش وملاً رتيه بنسيم الصباح فطرد نسيم الصباح عنه هو اجسه وبقيت في خياله صورة واحدة هي صورة سيبيل. وعاوده قليل من حنانه القديم إليها، وسمع الأطيّار تغرّد في الحديقة المبلّلة بالندى فخيّل إليه أن الأطيّار تقص على الأزهار قصتها.

الفصل الثامن

وصحبا من نومه بعد الظهر بوقت طويل، وقد دخل عليه خادمه الخاص فكتور أثناء نومه أكثر من مرة على أطراف أصابعه ليرى إن كان قد استيقظ أم لا، وعجب من أمر سيده الشاب الذي لم يعتد أن يأوي إلى فراشه في مطلع الفجر. وأخيراً دق دوريان جراي الجرس فدخل فكتور يحمل الشاي وبعض الخطابات على صينية سيفر⁽¹⁾ قديمة وأزاح عن النوافذ الثلاث العالية ستائرهما الخضراء ذات الحوافي اللامعة الزرقاء. وقال فكتور مبتسماً:

- أرجو أن يكون سيدي قد نام هذا الصباح نومًا هنيئًا.

فسأله دوريان جراي وهو نصف نائم:

- كم الساعة الآن يا فكتور.

أجابه الخادم بلكنة فرنسية:

- الواحدة والرابع يا سيدي.

عرف أنه نام طويلًا فجلس في فراشه، وبعد أن شرب قليلًا من الشاي انصرف إلى خطاباته يقلبها فوجد بينها خطابًا من اللورد هنري جاء به رسول فتردد لحظة ثم وضعه جانبًا. وفتح الخطابات الأخرى في ضيق

(1) سيفر: Sèvres مصنع أواني خزف في مدينة سيفر في فرنسا، تديره اليوم وزارة الثقافة الفرنسية، مشهور بمنتجاته الخزفية المميزة.

واضح فوجدها كالعادة تحتوى على دعوات الغداء ودعوات لزيارة أماكن خاصة وبرامج الجمعيات الخيرية وبرامج الحفلات الموسيقية وما شابه ذلك من رفاق تصل الشباب من الوجهاء خلال الموسم. وكان بين بريده فاتورة ضخمة بمجموعة من أدوات الزينة من طراز لويس الرابع عشر لم يجرؤ بعد على إرسالها إلى أوصيائه لأنهم من أصحاب الآراء البالية الذين لا يفهمون أن ألزم الأشياء لنا هي الأشياء التي لا لزوم لها، كما كان بينهما بعض خطابات من مرابي جرمين ستريت صيغت في لباقة شديدة وأدب جم يعرضون فيها خدماتهم العاجلة مقابل فائدة معقولة.

وبعد عشر دقائق كان يرتدي الروب دي شامبر الصوفي المطرّز بالحرير ويدخل الحمام المرصوف بالفسيفساء. وأنعشه الماء البارد فأحس كأن تباريج الأمس لم تكن. وبين وقت وآخر جاءه هاتف بأنه كان بطل مأساة غريبة ولكنها أشبه ذكرى حلم بعيد. وحين فرغ من ارتداء ثيابه دخل المكتبة وهناك وجد فطوره الخفيف معداً له على مائدة مستديرة بالقرب من النافذة فجلس يتناوله. وأحس بجمال الصباح وبدا له أن الهواء الدافئ محمّل بروائح الطيوب ودخلت من النافذة نحلة طنّت حول إناء أمامه وضعت فيه أزهار صفراء بلون الكبريت فغمرته السعادة. ووقعت عينه فجأة على الستار الذي حجب به الصورة فتملّكه الاضطراب. ولاحظ خادمه اضطرابه فقال وهو يضع أمامه طبقاً من العجّة:

- أشعر سيدي بالبرد؟

قال دوريان جري وهو يهز رأسه:

- كلا، لست أشعر بالبرد.

وعادت إليه شكوكه الأولى فحار في أمر الصورة ولم يدرٍ أتغيّرت حقاً أم تغيّرت في خياله وحده. لقد كان وجهه في الصورة ينطق بأفراح الحياة، وها هو الآن ينطق بشرّ دفين. ولكن من قال إن القماش يتغيّر

والألوان تبدل؟ إن هذه لسفاهة في التفكير، وهي أشبه بالأساطير التي ينسجها الخيال. نعم. إنها لأسطورة سوف يقصها على بازيل هولورود يوماً من الأيام ليدخل على فؤاده السرور. ولكن كيف تكون أسطورة وهو قد رآها بعينه؟ إنه تذكّر بجلاء أمارات القسوة التي أبصرها تشوه جمال الشفتين عندما تمعن في الصورة قبل مطلع الفجر وبعد مطلع الفجر. واستبد به الخوف حتى لقد أحب أن يستبقي خادمه معه في المكتبة، فلو أنه وجد نفسه وحيداً لما تردد في كشف الغطاء عن الصورة. ودخل فكتور بالقهوة والسجائر ثم همّ بالانصراف فأحس دوريان جراي برغبة شديدة في أن يأمره بالبقاء، ولكنه ضبط شعوره، فما أن خرج الخادم من الحجرة وأغلق الباب وراءه استدعاه فوقف الرجل ينتظر أوامره ولكن دوريان رمقه بنظرة طويلة ثم تنهد وقال:

- اصرف كل زائر يجيئني اليوم يا فكتور.

فانحنى الرجل وانسحب من الحجرة.

ثم ترك دوريان جراي المائدة وأشعل سيجارة وألقى بنفسه على أريكة فاخرة أمام الستار. وكان الستار ستاراً قديماً صنع من الجلد الإسباني المذهب عليه رسوم من طراز لويس الرابع عشر فيها شيء من الإسراف، فأنشأ يتأمل ويسأل نفسه كم من الأسرار حجبها ذلك الستار قبل أن يصل إلى يديه.

وبدأ يفكرّ جدياً في إزاحة الستار عن الصورة، ولكنه لم يرَ فائدة يجنيها من وراء ذلك. فلو أن الصورة قد تغيّرت حقيقة لكان ذلك كارثة عظيمة، ولو أنها لم تتغيّر لما كان هناك ما يدعوه إلى القلق. ولكن للمسألة وجهاً آخر، فماذا يكون الأمر لو أن شخصاً آخر استطاع أن يصل إلى الصورة ويطلع على ما جرى فيها من تغير شنيع؟ بل كيف يكون الأمر لو أن بازيل هولورود طلب أن يرى الصورة التي رسمها؟ ما من شك في أن بازيل سيفعل ذلك يوماً من الأيام. وعلى ذلك فالواجب يقضي بفحص الصورة

دون تردّد كيفما تكون النتيجة، فالنتيجة مهما كانت خير من هذا الشك المضمّني.

ونهبض وأقفل بابي الحجرة بالمفتاح، فليس من الخير أن يطلع سواه على سجلّ آثامه. ثم أزاح الستار ووقف يتأمّل صورته فلم يعد لديه أدنى ريب في أن الصورة قد تغيّرت.

كان موقفاً رهيباً حقاً انطبع في ذاكرته فلم ينسه زمناً طويلاً. فقد بدأ يفحص الصورة أولاً كما يفحص عالم أثراً من الآثار كأن الأمر لا يخصه، فعجب لنفسه أشد العجب. لقد كان التغيّر مستحيلاً في نظره ولكن لا جدال في أنه موجود فعلاً. وذهب يفترض الفروض لتعليل ما رأى فزعم أن هناك صلة جائزة لا نعرفها بين روح الإنسان وبين دقائق الذرات التي تتألف منها الألوان والأشكال على اللوحة، وبذلك تسجل دقائق الذرات خوالج النفس وتحقّق للنفس أحلامها. فإذا لم تكن هذه الصلة جائزة فقد يكون هناك تعليل آخر أشفق دوريان جراي أن يفكر فيه. وارتعدت لذلك فرائضه وتملّكه فزع شديد وعاد إلى الأريكة واستلقى عليها وعيناه لا تتحولان عن الصورة.

ولكنه خرج من كل هذا بمغزى واحد، إلا وهو أن الصورة التي رسمها بازيل هولورود له ستكون نبراساً يهتدي به في ظلام الحياة. وها هي قد علمته أن سلوكه مع سيبيل فين كان سلوكاً قاسياً وشائناً. ولعل في إمكانه إصلاح ما أفسده فهو لا يزال يستطيع أن يتزوجها فتصفو بذلك روحه ويتجرّد من أنانيته ويتحوّل غرامه الزائف تحت تأثيرها الصالح إلى عاطفة نبيلة. نعم. سوف يستهدي الصورة إلى الطريق المستقيم، فهي ضميره الحي وهي مقياس الخير والشر وهي تذكرة له من عند الله. إن الضمائر قد تنام ومقاييس الخير والشر قد تختل والتذكرة قد تغيب عن عقل الإنسان. أما هذه الصورة فهي الشاهد القائم على دنس الخطاة وهي الرمز الأبدي للدمار الذي ينزله الإنسان بروحه كلما مال عن نهج

الصالحين. وأين يجد دوريان عذرًا بعد هذا النذير؟

ودقَّت الساعة الثالثة ثم الرابعة والنصف ولكن دوريان جرائي ظل ثابتًا في مكانه من الأريكة. وكان يسترجع ماضيه وما ملأه من أحداث عنيفة وعواطف هوجاء ويحاول أن يخرج من هذه الأحداث والعواطف بمغزى فلم يهتدِ إلى شيء، وأخيرًا قصد إلى المائدة وكتب لسبيل فبين خطابًا طويلًا ملتهب العبارات يفيض بالحزن والوجيع يسألها فيه الغفران عمًا بدر منه ويتهم فيه نفسه بالجنون. فنحن نجد لتأنيب النفس لذة عظمى، وحين نؤنب أنفسنا نحس بأن الغير لا يملك حق تأنيبنا، فالاعتراف هو الذي يغسل خطايانا وليس الكاهن الذي نعترف أمامه. وحين أتم دوريان الخطاب أحس بأن زلته قد غفرت له فعلاً.

وسمع بالباب طرقة وجاءه صوت اللورد هنري في الخارج يقول:
- لا بد أن أراك يا دوريان فافتح لي الباب فورًا، فأنا لا أحتمل أن أراك
تعتزل العالم على هذا النحو.

فلم يجب بادئ الأمر ولبث صامتًا في مكانه فلمَّا توالى الطرق واشتد نهض مسرعًا ليفتح الباب فقد وجد أن من الخير له أن يرى اللورد هنري ويشرح له أسلوب حياته الجديدة، وأن يختصم معه إذا لزم الأمر، بل أن يخاصمه إذا اقتضت الضرورة. وغطَّى الصورة بالستار ثم فتح الباب فدخل اللورد هنري وهو يقول:

- لقد تألمتُ لما حدث أشد الألم يا دوريان ولكنني أوصيك بأن
تصرف نفسك عن التفكير فيه.
وقال الفتى:

- أتقصد ما فعلته سبيل فبين؟

فجلس اللورد هنري على مقعد وأجاب وهو يخلع قفازه الأصفر:
- بالطبع. إنه لشيء مؤلم إلى حد بعيد ولكنك لست مسؤولاً عمًا
جري. هل ذهبت لرؤيتها في غرف الممثلين بعد انتهاء الرواية؟

نعم.

- لقد كنت واثقًا من ذلك. وهل تشاجرتما؟

- لقد عاملتها بوحشية لا مزيد عليها، ولكن نفسي الآن قد هدأت
ولست أسفًا على شيء مما حدث لأن هذا الاختبار علمني الكثير عن
نفسي.

- أحيي فيك هذه الشجاعة يا دوريان، وقد كنت أخشى أن أجدك
مهمومًا تعنف نفسك تعنيفًا وتمزق شعرك الذهبي الجميل هذا.
قال دوريان وهو يتسم ويهز رأسه:

- لقد فرغت من كل ذلك وأنا الآن أسعد ما أكون فلقد عرفت كيف
يكون عذاب الضمير وأرجوك يا هاري ألا تسخر من الضمير بعد اليوم،
فإن كان لا بد لك من أن تسخر منه فلا تسخر منه أمامي، لأنني أريد أن
أحيا حياة صالحة، وأنا لا أحتمل أن تتلوّث روحي.

- أهنتك يا دوريان على اهتدائك إلى هذا المقياس الجميل. ولكن
كيف ستبدأ حياتك الجديدة؟

- سأبدأها بأن أتزوج من سييل فين.

فنهض اللورد هنري ونظر إليه في حيرة بالغة وصاح:

- تتزوج من سييل فين؟ ألم تعرف يا دوريان...

- نعم يا هاري، أعرف ما ستقوله لي. أعرف آراءك القاسية في الزواج
فاحتفظ بها لنفسك. ورجائي إليك هو أن تحتفظ لنفسك بجميع آرائك
الشاذة فلست أحب أن أسمع شيئًا منها بعد الآن. لقد طلبت إلى سييل
منذ يومين أن تتزوجني ولن أحنث بوعدي. نعم إن سييل سوف تصبح
زوجتي.

- ولكن كيف تكون سييل زوجتك؟ أما وصلك خطابي. لقد كتبت

لك صباح اليوم رسالة حملها إليك خادمي الخاص.

- نعم أذكر أنني تسلمت رسالة منك، ولكنني لم أقرأها بعد يا هاري فقد

خفت أن أجد فيها كلامًا يسوءني، فأنت تمزق الحياة إربًا إربًا بأقوالك الغريبة.

- إذا فأنت تجهل ما حدث؟

- ماذا تعني؟

فتقدم إليه اللورد هنري وجلس إلى جواره وأمسك بيديه وشد عليها في قوة قائلاً:

- لا تنزعج يا دوريان. كتبت لك أقول إن سبيل ثين قد ماتت.

فتأوه الفتى تأوه المطعون فنزع يديه من يدي اللورد هنري وقال:

- أتقول إن سبيل ماتت؟ هذا غير صحيح، بل هذه فرية دنيئة. كيف

تجرؤ على هذا الإفتراء؟

قال اللورد هنري مكتئبًا:

- بل ما قلت غير الحقيقة يا دوريان. لقد نشرت النبأ صحف الصباح جميعًا وقد كتبت لك لأطلب إليك ألا تقابل أحدًا حتى أجيئك، فأنت تعرف أن التحقيق سيجري في الحادث ومن المصلحة أن تظل أنت بعيدًا عن كل شيء. إن مثل هذه الأشياء تجعلك قبلة الأنظار في باريس، أمّا في لندن فالأمر يختلف. من الخطأ أن يبدأ الإنسان هنا حياته الاجتماعية بفضيحة، الأنسب أن يؤجلها لأيام شيخوخته حتى يظل اسمه على ألسنة الناس بعد أن يتوارى من الحياة العامة. أظن أنهم لا يعرفون اسمك في المسرح، فإذا كان الأمر كذلك فليس هناك ما يدعو إلى الانزعاج. هل رآك أحد تدخل غرفتها؟ اجتهد أن تتذكر فهذه نقطة مهمة.

مرت لحظات عجز فيها دوريان عن الكلام لأن الرعب قد عقد لسانه، وأخيرًا قال في صوت متقطع يشبه الهمس:

- أتقول إن هناك تحقيقًا يجري يا هاري؟ ماذا تقصد بذلك؟ أتراها ..

أواه! لم أعد أحتمل يا هاري، فعجل وقص عليّ كل ما حدث.

- أنا لا أشك في أن وفاتها لم تكن نتيجة خطأ يا دوريان ولكن يجب

أن تخفي الحقيقة عن الجمهور والمعروف أنها خرجت من المسرح في صبحه أمها نحو الساعة الثانية عشر والنصف ثم احتجت بأنها نسيت في غرفتها شيئاً ما ولما طال انتظارها صعدوا إلى غرفتها فوجدوها مسجاة على أرض الغرفة وقد فارقتها الحياة بعد أن شربت مادة سامة من تلك المواد التي يستعملونها في المسرح لا علم لي بها على التحقيق ولكني أعرف أنها تحتوي إما على حامض البراسيك أو الرصاص الأبيض، والأرجح أنه الأول لأنها ماتت فوراً.

فصاح الفتى قائلاً:

- يا للفجيعة! يا للفجيعة!

- نعم يا دوريان إنها لمأساة أليمة ولكن يجب ألا يدخل اسمك في الحادث. إن صحيفة الاستاندارد تقول إنها في السابعة عشر من عمرها، وقد كنت أظنها أصغر من ذلك سنًا. لقد كانت تبدو كطفلة غريرة ويظهر أن علمها بأصول التمثيل ضئيل. اسمع يا دوريان: يجب عليك أن تحتفظ برباطة جأشك وهذوء أعصابك. تعال لتتعشى سويًا ثم نذهب إلى الأوبرا بعد ذلك. إني أدعوك إلى مقصورة أختي، وستجد هناك بعض مليحات لندن.

قال دوريان جراي وكأنه يحدث نفسه:

- إذا فقدت سيبيل فين، ذبحتها بيدي ذبحًا، ومع ذلك فورود الحديدية الجميلة لا تزال جميلة والأطيار تغرّد فيها ألحانها الطروب كما كانت من قبل تغرّد وأنا الليلة أتعشى معك، ثم أذهب إلى دار الأوبرا. ما أشبه الحياة بمأساة عنيفة! فلو أنني قرأت كل هذا في كتاب لبللت الكتاب بدموعي. أما وقد وقعت هذه الحوادث لي فعلاً فما أنت تراني عصي الدمع من فرط الذهول. وهذا أول خطاب غرامي أكتبه بشعور صادق. أفليس عجيبًا أن أكتب أول رسائل غرامي إلى فتاة ميتة؟ ترى أبحس سكان القبور بما يجري في عالم الأحياء؟ ويلي عليك يا سيبيل! أتراها

تحس بدخيلة نفسي أو تسمع صوتي المتهدج هذا أو تعرف ما أنا فيه من اضطراب؟

كم أحببتها يا هاري قبل تلك الليلة المشؤومة، ولكن هذا كله قد فات وهو الآن جزء من تراث الماضي السحيق؟ لقد ملأت أفق حياتي حتى كانت تلك الليلة المشؤومة فكسرت قلبي بفضاعة تمثيلها. ما بالي أقول تلك الليلة المشؤومة كأنها ليلة من الليالي الخوالي، وما هي إلا ليلة الأمس! ولقد شرحت لي سر سقوطها بعبارات تفتت الحجر الأسم، ولكنني لم أرق لنحيبها بل ظننتها امرأة تافهة لا تحسن شيئاً في الحياة، ثم حدث لي شيء جعلني أحاسب نفسي وأخاف المستقبل فعلمت أنني قد أسأت إليها وعزمت أن أعود إليها طالباً الصفح. ولكن ها هي ذي قد ماتت فماذا أفعل يا هاري، ماذا أفعل؟ الرحمة يا إلهي! الرحمة من عندك يا إلهي! إنني لأسير على شفا هوة عميقة ولا أجد في الدنيا ما أستهديه سبيل الرشاد. ولو أنها عاشت لكانت لي النجم الهادي والمرفا الحنون. إن حياتها لم تكن ملكاً لها فمن الخسة أن تقتل نفسها وتركني هنا أضرب في الأرض بغير رائد.

فقال اللورد هنري وهو يُخرج سيجارة من علبة وعلبة كبريت مذهبة: - إن الطريقة الوحيدة التي تستطيع بها امرأة أن تهدي رجلاً هي أن تدخل الضيق في نفسه حتى يفقد كل رغبة في مباحج الحياة. ولو أنك تزوّجت من هذه الفتاة لشقيت طوال عمرك. أنا لا أشك في أنك كنت ستعاملها معاملة حسنة، ولكن هذا موضوع آخر فنحن نستطيع أن نحسن معاملة من لا نكثر بهم. وقد كان من المحقق أن تستكشف هي هذا بعد فترة وجيزة، وحين يتبين للمرأة أن زوجها لا يكثر بها تراها إما تهمل في مظهرها إلى حد مزر، وإما تسرف في ارتداء الثياب الفاخرة التي يدفع ثمنها زوج امرأة أخرى، كذلك لا تنس أن التفاوت الاجتماعي الهائل بين مكانتك ومكانتها كان كفيلاً بتعقيد الأمور، ولقد كنت عازماً على

تجنبيك هذا الخطأ مهما كلفني هذا الأمر. نعم، لا شك في أن مثل هذا الزواج كان خليقاً بالفشل.

قال الفتى وهو يقطع أرض الغرفة جيئة وذهاباً، وقد بدا عليه شحوب مخيف.

- أرجح أن هذا صحيح، ولكن الواجب كان يقضي عليّ بالوفاء بوعدتي وأنا لا ألام إذا كانت هذه المأساة الأليمة قد منعتني عن أداء الواجب. إنني لأذكر ما قلته لي ذات مرة من أن القدر يكد لنا كلما عزمنا على فعل شيء جميل، فالنوايا الطيبة تأتي دائماً بعد فوات الوقت، وهذا يصف حالتني أحسن وصف.

- إن النوايا الطيبة تَدْخُل لا جدوى منه في سير القوانين العلمية، ومنشؤها الغرور لا سواه، أما نتيجتها فصفر لا أكثر ولا أقل، ونحن نستمد منها بين وقت وآخر بعض اللذة العقيمة التي تستهوي قلوب الضعفاء، وهذا كل ما لها من مسوِّغ. إن النوايا الطيبة لتشبه شيكات يسحبها الناس على بنوك ليس لهم فيها رصيد.

فقال دوريان جراي وهو يجلس إلى جواره:

- ما السر في أنني لم أفجع لهذه المأساة إلى الحد الذي أريد؟ لست أظن أنني شخص ميت الشعور. أعتقد ذلك فيّ يا هاري؟

أجاب اللورد هنري بصوته العذب الحنون:

- كلا، فإن تاريخك الحافل بالحماقات في الأيام القليلة الماضية لا يؤهلك لمثل هذا الوصف.

فعبس الفتى وقال:

- أنا لا أرضى بتفسيرك هذا يا هاري، ولكنني مغتبط لأنك لا تراني شخصاً ميت الشعور، فما أنا كذلك، وإنني لواتق من هذا. ولكني رغم ذلك أعترف بأنني لم أحزن لفقدان سيبيل كما كان ينبغي أن أحزن. فهو يبدو لي الآن كنهاية رائعة لا أكثر، نعم لقد كانت قصتنا مأساة لها ما

لمآسي الأغر يق من جمال مدثر، مأساة كنت أنا فيها البطل الأول.
 - إنها لمسألة تستحق الاهتمام. بل إنها لمسألة تستحق كل الاهتمام وأظن أن تفسيرها الحقيقي هو أن مآسي الحياة الحقيقية تحل بالناس خالية من كل تصميم فني فتؤذينا وحشيتها الساذجة وتناقضها المطلق وقلة مدلولها وافتقارها التام لكل أسلوب. فهي تؤثر فينا تأثير الأشياء المبتذلة فينا أي أنها تسحقنا سحقاً بما لها من قوة غشوم، ونحن نمقت القوة الغشوم. ولكن بين آن وآخر تقع في حياتنا مأساة لها طابع فني، فإذا كانت عناصر الجمال التي نجدها في هذه المأساة عناصر صحيحة لا زيف فيها، تركت فينا أثراً يشبه الأثر الذي تركه فينا مسرحية من المسرحيات، وعندئذ يزيلنا الإحساس بأننا ممثلون في هذه المسرحية ونعتقد أننا من النظارة، أو على الأصح نشعر بأننا من الممثلين ومن النظارة في وقت واحد. بذلك نشاهد أنفسنا كل يقوم بدوره فيسحرنا هذا المشهد. وفي حالتك أنت بالذات كل ما حدث هو أن فتاة انتحرت لأنها تحبك، وهو اختبار ممتع، أو د لو أنه حدث لي، فهو كفيل بأن يجعلني من أنصار الحب بقية حياتي. إن كل من عشقني من النساء وهن قليلات قد حرصن كل الحرص على الحياة بعد أن نضب حبي لهن أو جبهن لي بل لقد زاد وزنهن وأصبحن مصدر ملل دائم لي: فكلما قابلت إحداهن اختلت بي وذهبت تبادلني الذكريات. إن قوة ذاكرة المرأة لشيء مزعج، وهي إن دلت على شيء فهو أن عقولهن لا تشتغل أبداً! إن جمال الحياة في ألوانها الخاطفة، أما التفاصيل فجديرة بالنسيان، فالتفاصيل أشياء مبتذلة.

قال دوريان جراي متنهداً:

- لا بد أن أزرع الخشخاش في حديقتي تحية لذكراها.

فقال اللورد هنري:

- لا داعي لذلك فالحياة تحمل أزهار الخشخاش في يديها دائماً.

ولقد تخلو منها يداها بين الحين والحين فأنا أذكر أنني وضعت البنفسج في عروتي موسمًا بأكمله حدادًا على غرام لا يريد أن يموت، ولكنه مات ولله الحمد آخر الأمر، وإن كنت لا أذكر ماذا قتله. أعتقد أنها قالت لي مرة إنها على استعداد لتضحى بكل ما في الدنيا من أجلي، فأجهز هذا على ما بقي في قلبي من الحب. إن عبارات الوفاء تنشر الرهبة في نفوسنا فنحن نخاف من الإخلاص الدائم خوفنا من الأبدية. ولعلك لا تصدقني إذا قلت لك إنني التقيت منذ أسبوع بهذه السيدة التي حدثتكَ عنها في مأدبة عشاء أقامتها الليدي هامبشير وكان من نكد طالعي أن جلست بجوارها إلى المائدة، فما كان منها إلا أن نبشت الماضي ونبشت المستقبل كذلك، وأنشأت تذكّرني بكل ما حدث بيني وبينها وأكدت لي أنني قد أفسدت حياتها. لقد دفنت غرامي في نعش من أوراق السوسن فاستخرجته من جديد. أجل، زعمت أنني قد أفسدت حياتها، فلما رأيتها تتناول عشاءها بشهية عظيمة زال القلق الذي ساورني بشأنها. أقول هذا لأنه دليل على فساد ذوقها. إن أجمل ما في الماضي أنه مضي، ولكن النساء لا يعرفن متى ينسدل الستار على كوميديا الحياة، وهن دائمًا يرغبن في إطالتها بإضافة فصل سادس لها، بعد أن تكون بهجتها قد نضبت، ولو أننا تركنا الأمر لهن لانتهد كل كوميديا نهاية محزنة ولاستحالت كل مأساة في النهاية إلى مهزلة. إن النساء يتكلفن في كل شيء وهذا ما يحبّهن إلينا، ولكنهن خلون من كل ذوق فني. ولقد كنت أسعد حظًا مني في سوق الغرام يا دوريان. فأنا أؤكد لك أنه ما من امرأة ممن عرفت من النساء كانت لتقتل نفسها بسببي كما قتلت سيبيل حين نفسها بسببك، فالنساء العاديات يجدن دائمًا ما يعزيهن عن الغرام الضائع. ومنهن من يلتمسن العزاء في ارتداء الثياب ذات الألوان المؤثرة، وأنا أحذرك يا دوريان من كل امرأة تلبس ثيابًا بنفسجية أيًا كان عمرها. وإذا صادفت امرأة تحطّت الثلاثين تتزين بالشرائط الوردية فاجتنبها كذلك، فمثل هؤلاء لهن ماض.

ومن النساء من يتعزبن عن غرامهن باكتشاف محاسن أزواجهن فجأة، وتراهن يثرثن في كل مكان عن سعادتهن الزوجية كأن السعادة الزوجية ثمرة محرمة شهية قطفنها وحدهن من دون خلق الله. ومن النساء من يلتمسن العزاء في الدين، ولقد قالت إحداهن لي إن ألباز الدين لها ما للغزل من سحر في النفوس، وأنا أصدقها: ثم إن الناس يجدون في الخطيئة مصدرًا للفخر، ومنشأ الأثرة هو ضمير الإنسان. من هذا ترى أنه لا حد لأسباب العزاء التي تجدها النساء في هذه الأيام، وما ذكرت منها أهمها.

فسأله الفتى في فتور:

- وماذا يكون هذا يا هاري؟

- إن أول ما فعله المرأة حين تفقد عشيقها هو أن تسلب امرأة أخرى عشيقها، وهذا كاف في المجتمع الراقي لأن يرد للمرأة اعتبارها. ولكن لا بد أن سبيل فين كانت تختلف عن سائر النساء اللاتي نعرفهن يا دوريان. إن موتها لفاجعة جميلة وإني لسعيد بأني أعيش في عصر تحدث فيه مثل هذه العجائب، فمثل هذه العجائب تثبت إيماننا بحقيقة الحب والعاطفة والخيال وسائر الأشياء التي نلهو بها في هذه الحياة.

- ولكنك تنسى أنني قسوت عليها قسوة مُرة.

- إن النساء يستطبن القسوة، بل يستطبن القسوة التي تصل إلى حد الهمجية، لأن غرائزن لا تزال في دور الفطرة وهذا ما يفتنني فيهن. لقد منحناهن الحرية ولكنهن بقين كما كن عبيدًا يبحثن عن سادة. وهن يطلبن من الرجل أن يفرض سلطانه عليهن ولست أشك في أنك قمت بهذا الواجب خير قيام، وإني وإن كنت لم أرك قط غاضبًا جارفًا فإني لأتصور منظرًا الجميل حين ثرت على سبيل فين كالبركان. ثم إنك قلت لي منذ يومين شيئًا ظننته إسرافًا منك في الأوهام ولكني أدرك الآن أنه حقيقة لا جدال فيها وهو يفسر كل ما حدث.

- ماذا تعني يا هاري؟

- قلت لي إنك تجدد في سبيل فين جميع بطلات الخيال، فهي يوماً ديدمونة ويوماً أوفيليا وأنت تشيعها إلى مقرها الأخير في صورة جوليت فإذا بها تعود إلى الحياة في شخص إيموجن.

قال الفتى وهو يدفن وجهه في راحتيه:

- ولكنها لن تعود إلى الحياة بعد الآن.

- بلى، لن تعود إلى الحياة بعد الآن فقد لعبت دورها الأخير، ولكن يجب عليك يا دوريان أن تتصور ميبتها الموحشة في غرفتها بالمسرح منظرًا غريبًا عاصفًا من مسرحية جميلة لوبستر أو فورد أو سيريل تيرنر أو أترابهم من كتاب عصر جيمس الأول الذين كلفوا بالعنف والإغراب. فسيبيل لم تنتم يوماً إلى عالم الأحياء ولهذا كان خطأ منك أن تحسب أنها ماتت. فقد كنت تراها في وادي الأحلام فتخالها طيفًا يخطر بين مسرحيات شكسبير ويشيع فيها من سحره سحرًا وتسمعها فتحسبها نايًا شجيًا ييثك ألحان شكسبير فتزداد به الألحان حلاوة وحين أرادت أن تحيا في الحقيقة أفسدت الحياة وأفسدت الحياة فكانت بذلك نهايتها. فابك شباب أوفيليا إذا أحببت، ولطّخ خديك بالتراب حزنًا على كورديليا الأمانة، والعن السموات بأعلى صوتك لأن ديدمونة الطاهرة قد أسلمت روحها، ولكن لا تُرُقْ دمعة واحدة على سبيل فين لأنها طيف من نسج الأحلام أما هن فمن بنات الحقيقة.

ثم أعقب هذا صمت وانتشر الظلام في الحجرة بمجيء المساء، ومن الباب دخلت أشباح الحديدية في هدوء فلم يسمع أحد لأقدامها وقعًا. أما الألوان فتقاربت وتداخلت فلم يعد أحد يميز من بينها لونها.

وبعد قليل رفع دوريان جراي رأسه وقد عاد إليه هدوءه. قال:

- لقد شرحت لي دخيلة نفسي يا هاري، ولقد كنت أحس بكل شيء ذكرته لي ولكني لم أجد الشجاعة الكافية لأصارع نفسي به. فما أصدق

معرفتك بي! ولكن دعنا من الماضي ولنسدل عليه ستارًا وكل ما أقوله فيه أنه كان اختبارًا رائعًا. أظن أن الحياة تخبّي لي الكثير من هذا القبيل؟ - نعم يا دوريان، فالحياة تخبّي لك كل شيء، فليس هناك ما يستعصي على وجهك الجميل هذا.

- ولكن ماذا يكون الحال يا هاري إذا ما ضاع شبابي وشحب لوني وتغضن وجهي؟

قال اللورد هنري وهو يتأهب للانصراف:

- عندما يحدث ذلك يا عزيزي دوريان لن يأتيك نصر إلا بكفاحك، أما الآن فأسباب المجد تُساق إليك سوقًا. نعم، يا دوريان، لا بد لك من الاحتفاظ بجمالك، فنحن نعيش في جيل أسرف في الاطلاع حتى فقد الحكمة، وأسرف في التفكير حتى أضاع الجمال، ولن نجد ما يغنيننا عنك فابق لنا كما أنت الآن. ولكن يجدر بك أن تسرع بارتداء ملابسك وتأتي معي إلى النادي، فقد تأخرنا.

- سألحق بك في الأوبرا يا هاري لأن التعب قد قتل شهيتي للأكل. فما رقم مقصورة أختك.

- سبعة وعشرون، وستجد اسمها على باب المقصوره فلن يطول بحثك ولكن يؤسفني أنك ترفض دعوتي للعشاء.

قال دوريان جراي في فتور:

- اعفني هذه المرة، فلن أستطيع أن آكل شيئًا. ولكن يجب أن أقول لك قبل أن تنصرف أنني مدين لك بالكثير؛ فكللماتك قد طيبت نفسي، ولن أجد بين الناس صديقًا مثلك يخفّف عني الأحمال، فما من أحد نفذ إلى سريرتي نفاذك أنت إليها.

فأجاب اللورد هنري وهو يصفحه:

- ما نحن إلا في بداية الطريق يا دوريان وأرجو أن تقوى صداقتنا على الأيام. أمل أن أراك قبل منتصف الساعة التاسعة، ولا تنس أن پاتي يغني

الليلة في الأوبرا، فالى اللقاء.

وبعد أن أغلق الباب وراءه دق دوريان جراي الجرس يطلب خادمه فدخل عليه فكتور يحمل المصابيح وأسدل على النوافذ ستائرهما، وبدا لدوريان جراي أنه يتلکأ في عمله فنقد صبره. ولكن فكتور خرج أخيراً فأسرع إلى الصورة وأزاح عنها الغطاء ليستطلع مدى التغيير الذي حل بها في الفترة الأخيرة فوجدها كما كانت قبل أن يزوره اللورد هنري، فعرف أنها علمت بموت سيبل فين قبل أن يعلم هو، وعرف أنها تستجيب لكل ما يحدث في الحياة وقت حدوثه. فإذا كان الأمر كذلك فأمارات القسوة التي طالعتها في موضع الفم لا بد ظهرت لحظة أن قتلت سيبل فين نفسها. ثم خطر له أن الصورة إن هي إلا مرآة روحه، فهي لا تتأثر بما ينجم عن مسلكه من نتائج وإنما تسجل كل تغير يتتاب روحه ولم يجد جواباً شافياً على مزاعمه المضطربة ولكنه تمنى أن يرى بعينه التغيير يجري في الصورة يوماً من الأيام، وفيما هو يفكر في هذا الأمر اقشعر بدنه من هول الفكرة.

يا لسيبل من فتاة تعسة ويا له من غرام فاجع! كم ذاقت على المسرح كأس المنية حتى قبضت المنية روحها وخطف الموت السر من بين جنبيها. أتراها أتقنت آخر منظر في مأساة حياتها؟ أتراها لعنته وهي تموت؟ ولكن كيف تلعنه وهي قد ماتت في هواه؟ كلا. لقد أصبح الحب طريقة للخلاص فلقد مسحت عنه بموتها آثامه. فليس إذا ما أنزلت به من عذاب في ليلة الفراق، وليذكرها كعذراء أرسلتها المقادير إلى مسرح الحياة لتثبت للناس حقيقة الحب، ويالها من عذراء تبهر الناظرين! وترقرقت الدموع في عينيه حين استحضر في خياله محياها البريء وحياءها الخلاب، وطباعها العجيبة، فجفف عينيه لفوره وعاد يتطلع إلى الصورة من جديد.

وأحس بأنه يقف في مفترق الطرق ليختار من السبل ما يشاء، ولكن

كيف يختار من السبل ما يشاء وقد اختارت له الحياة السبيل الذي يسلكه؟ أجل إن الحياة قد فصلت له في أمره نيابة عنه لأن به شغفًا بالحياة لا يحد بحدود. فالشباب الدائم النضرة ملك يديه والعواطف الجارفات كالسيول، واللذات الخفية واللذات التي لم تعرفها نفس أبدًا، والأفراح المجنونة والخطايا المجنونة، كل هذه من نصيبه، وما على الصورة إلا أن تحمل وزر حياته النكراء.

وعندما تصوّر المسخ الذي سيصيب وجهه الجميل على اللوحة اقشعر بدنه مرة أخرى. لقد أراد ذات مرّة أن يقلّد الإله الذي عشق نفسه في أسطورة النرجس فقبّل تلكما الشفتين اللتين تكايدانه في اللوحة بما تحملان من قسوة، ولكم جلس يومًا بعد يوم قبالة الصورة يتغزلّ بجمالها. أتراها الآن تسجل عليه كل ما يجري في دخيلة نفسه؟ أتراها تزداد كل يوم بشاعة حتى تصبح في النهاية مسخًا رجيماً يجب إخفاؤه عن العيون وإقصاؤه إلى حجرة محكمة الإيصاد بعد أن كانت تغتسل كل يوم في ضوء الشمس ويبرق شعرها المتموج فيه كسباتك النضار؟ وأها ثم وأها.

وأراد أن يسجد ضارعًا للسماء أن تضع حدًا لهذا التجاوب المقيت بينه وبين الصورة. وبعد، ألم تتغير الصورة إجابة لصلاته الأولى! فليس مستحيلًا إذا أن تثبت على حالها إجابة لصلاة ثانية. ولكنه لم يقوَ على ذلك لأن الإغراء كان عظيمًا. فهل بين الأحياء الذين ذاقوا طعم الحياة من يرفض أن يشتري الشباب الدائم مهما غلا ثمنه؟ ثم من يدرية أن الصورة رهينة برغباته؟ من يدرية أنها تغيرت لأن صلاته قد أستجيبت؟ أليس جائزًا أن هناك تفسيرًا علميًا لكل ما يحدث؟ أليس جائزًا أن الفكر الذي يؤثر في الكائنات الحية يستطيع كذلك أن يؤثر في الكائنات الجامدة؟ ثم أليس جائزًا كذلك أن أشياء العالم الخارجي تستجيب لخواطرنا وأهوائنا دون فكر أو وعي فتجذب ذرة فيها ذرة بقانون الحب المخبوء

في كل شيء. ولكن كيفما كان التعليل فهو لا يغير من الأمر شيئاً، وهو لن يثير بعد اليوم بصلواته القوي الرهيبة في هذا الوجود. وكفاه ما كان. فتتغير الصورة إذا كان مقدرًا لها أن تتغير. فما له في ذلك حيلة، ولا داعي للتفكير في العلل والناتج.

لسوف يجد لذة في مشاهدة التطور الذي ينزل بها، ولسوف يقف على مكنونات عقله التي لا يعرف عنها شيئاً يوماً بعد يوم. لسوف تكون الصورة مرآته السحرية التي تعكس له تلافيف نفسه كما عكست له ثنايا جسمه. وحين يحل عليها الشتاء فيذويها يختال هو بين الربيع الناضر والصيف القوي. وحين يغيض الدم في وجنتيها ويترك وراءه صفحة شاحبة بيضاء ومقلة أطفأتها السنون يبقى له سحر الصبا. أجل. لن تذوي زهرة واحدة في بستانه اليانع ولن يهدم فيه عرق ينبض الآن بالحياة. ولسوف تبقى له فتوته أبداً وخفته أبداً ومرحه أبداً كأنه إله من آلهة الإغريق. فماذا يهم لو تبدلت الصورة أو شأهت أو تهشمت؟ إنه في حصن حصين لا تصل إليه يد الزمن، وهذا كل ما يصبو إليه.

وغطى الصورة بالستار مرة أخرى وابتسم في رضا ثم دخل حجرة النوم حيث كان خادمه ينتظره، وبعد ساعة كان دوريان جراي في الأوبرا وكان اللورد هنري يتحدث إليه بصوت مهموس.

الفصل التاسع

وفي الصباح التالي جلس دوريان جراي ليتناول فطوره، وفيما هو كذلك دخل عليه بازيل هولورود وقال مكتئبًا:

- أنا سعيد الحظ لأنني وجدتك أخيرًا يا دوريان، وقد مررت بك ليلة أمس فقيل لي إنك في دار الأوبرا، فلم أصدق ذلك. ولقد كنت أودُّ لو أنك بعثت إليَّ ببرقية عقب علمك بالحادث مباشرة أما أنا فقد طالعت النبا في طبعة متأخرة من صحيفة الجلوب عثرت عليها في النادي بمحض المصادفة، فجتتك فورًا وأحزنتني أنني لم أجدك، فقد أشفقت أن تردف أنت هذه المأساة بمأساة أخرى، وأقضت هذه الفكرة مضجعي طول الليل فلم أذق للنوم طعمًا. كان يجدر بك يا دوريان أن تترك كلمة تعين فيها المكان الذي قصدته، فقد أشقاني القلق عليك شقاء ما بعده من شقاء كما أحزنتني موت سيبيل حزنًا ما بعده من حزن، وإني لأحسّ بأثر الفجيعة فيك فتجمل بالصبر. ولكن أين كنت ليلة أمس؟ أذهبت لتواسي أم الفتاة؟ لقد خطر ذلك ببالي وكدت أن أتبعك إلى بيتها ببوستون رود الذي قرأت عنوانه في الصحيفة، ولكنني خفت أن تكون زيارتي لهذا البيت الحزين فضولاً يضر أكثر مما ينفع، فهذه فجيرة فريدة لا يفيد فيها عزاء وكيف تتعزى من رزئت في وحيدتها، فيا لأمرها الثكلى من امرأة منكودة الطالع. ما من ريب في أن قلبها قد مزقته الأحزان. قل

لي، كيف تراها استقبلت الحادث يا دوريان؟

قال الفتى وهو يرشف بعض النيذ الأصفر من كأس دقيقة التكوين مزخرفة بالذهب صنعت من زجاج البندقية وقد بدا عليه الملل الشديد:
- كيف أعلم ذلك وقد كنت في الأوبرا؟ ليتك جئت معنا، فقد كانت ليلة ممتعة تعرّفت فيها لأول مرة على الليدي جوندولين، أخت هاري، وقد كنت في مقصورتها فوجدتها امرأة فاتنة حقاً، وكان يأتي يغني فأجاد الغناء. لا تتحدّث يا بازيل عن الموضوعات المحزنة، فالشيء الذي لا نتحدّث عنه لم يحدث البتة، لأن التعبير كما قال هاري هو الذي يكسب الأشياء صفة الحقيقة. ولكنني أحب أن أذكر لك عرضاً أنه لمسز ثين ابناً لا يشتغل بالتمثيل بل يعمل كبخّار وأعتقد أنه فتى لطيف. والآن فلتحدّثني عن نفسك وما ترسمه في هذه الأيام.

قال هولورود في ببطء وكان صوته ينمّ عن ألم بالغ:

- أتقولك إنك ذهبت إلى الأوبرا؟ أتقول إنك ذهبت إلى الأوبرا حين كانت سييل ثين مسجاة في بيتها المقبض؟ أتحدّث بجمال غيرها من النساء وبروعة غناء يأتي قبل أن تجد حبيبك القبر الذي تستريح فيه. أنسيت أن الدود ينتظر جسدها البض الصغير في شوق ولهفة؟
فنهض دوريان من مكانه وصاح به قائلاً:

- كفى يا بازيل، ولا تذكر هذه الأشياء أمامي مرة أخرى، وانس ما فات فليس لأحد سلطان على الماضي.
- أتسمّي الأمس بالماضي؟

- وما دخل الزمن في كل هذا؟ إنما يحتاج السذج إلى أعوام طويلة ليبرأوا من عاطفة ما، أما من تعود أن يكون سيد نفسه فأحزانه تخضع لإرادته يصرفها حين يشاء، ولذاته طوع بنانه يخلقها متى أحب، وأنا لا أريد أن أدع عواطفني تستبد بي بل أريد أن أستخدمها وأنعم بها وأسيطر عليها.

- هذه قسوة منك يا دوريان، ولا بد أن شيئاً قد بدّل من طباعك تمامًا.
أنت لا زلت كما كنت دائماً ذلك الفتى الصبوح المحيا الذي كان يجيئني
في الاستوديو يوماً بعد يوم لأرسمه، ولكنك كنت في الماضي ساذجاً
طيب القلب تسير على سجيّتك، بل كنت أنقى من عرفت من الناس،
أما الآن فأنت تتحدث حديث شخص ميت الإحساس وهذا لا ريب أثر
هنري فيك.

فاحمرّ وجه الفتى ومشى إلى النافذة وأنشأ يتأمّل حشائش الحديقة
الخضراء التي تلمع في ضوء الشمس لحظات ثم قال:
- إن دَيْني لهنري أثقل من ديني لك يا بازيل، فأنت لم تعلمني إلا أن
أغترّ بنفسي.

- إذا كان الأمر كذلك فقد حلّ بي غضب السماء أو سيحل يوماً من
الأيام.

التفت الفتى إليه وقال:

- لست أفهم ما تقول يا بازيل. ماذا تريد مني. أجب.

فأجاب الفنان بنفس حزينة:

- أريد منك أن أرى فيك دوريان جراي الذي اعتدت أن أرسمه.

فسعى الفتى إليه ووضع يده على منكبه قائلاً:

- لقد جئت متأخراً يا بازيل، فحين سمعت البارحة أن سييبيل فين قد

انتحرت...

حملق هولورود فيه فزعاً وصاح مقاطعاً:

- انتحرت! يا إلهي! أهذا مقطوع به؟

- بالطبع انتحرت. هل انطلى على ذكائك الوقّاد يا عزيزي بازيل أن

موتها كان نتيجة حادثة عادية.

فدفن الرّسام وجهه في كَفّيه وقال وهو يرتجف:

- يا للفضاعة!

قال دوريان جراي:

- ليس في الأمر فظاعة فلقد كان مصرعها مأساة من أجمل مآسي العصر. فأنت تلاحظ أن المشتغلين بالتمثيل يعيشون كعامة الناس عيشة مملة لا خيال فيها رغم أنهم يتجرون بالخيال ويبيعون الأحلام فتجد منهم الأزواج الأفاضل والزوجات الوفيات وما شاكل ذلك من الفضائل التي تميّز بها الطبقة المتوسّطة. أما سيبيل فقد كانت تختلف كل الاختلاف. فقد كانت تلعب دور البطلة في مآسي المسرح وفي مآسي الحياة. وفي آخر ليلة مثّلت فيها، وهي ليلة أن رأيتها، سقطت في التمثيل لأنها لمست حقيقة الحب فكشفت لها حقة الحب عن زيف الفن. فلما أدركت زيف الفن ماتت، ولكنها لم تمت كما تموت بنات الحياة بل ماتت كما تموت بنات الخيال، ماتت ميتة جوليت، فدخلت حرم الفن من جديد بعد أن خرجت منه. وهي في عداد الشهداء لأن لموتها كل ما للاستشهاد من جمال ضائع وتضحية لا طائل وراءها. ولا تحسبني لم أحزن لوفاتها، فلو قد جئتني بالأمس نحو منتصف الساعة السابعة لوجدتني أبكي. وهنري ذاته الذي حمل إليّ نبأ وفاتها لم يعرف مبلغ شقائي ساعتها. نعم، لقد حزنت عليها حزناً كثيراً ثم زال الحزن عني ولن أستطيع أن أسترجعه فما تعودت أن أكرّر عواطفني، لأن هذا خليق بأصحاب العواطف الزائفة، ولست منهم. فأنت كما ترى يا بازيل تظلمني ظلماً فاحشاً إذا تقول بأني ميّت الإحساس. لقد جئتني لتعزيني وهذا جميل منك، فتجدني متعزياً فيغضبك أن أكون كذلك. فهل أنت من أصحاب العواطف الزائفة؟ أنت تذكرني بقصة رواها لي هنري عن رجل من أولئك الرجال الذين أتعبهم حب البشر أضع من عمره عشرين عاماً في إصلاح قانون ظالم فلما وفق أخيراً إلى ذلك وارتفع الظلم أصيب بخيبة أمل شديدة، فقد وجد نفسه عاطلاً تماماً لا يجد ما يعمله حتى كاد الملل أن يقتله فانقلب من محب للبشر إلى ناقم على البشر. ثم إنك لو أردت أن تواسيني يا

عزيري بازيل فلخير أن تعلمني كيف أنسى ما حدث من أن تذكّرني به،
لخير أن تعلمني كيف أستقبل هذه المحنة استقبال الفنان من أن تطلب
إليّ أن أستقبلها استقبال الإنسان العادي. أليس جوتيه⁽¹⁾ هو القائل بأن
الفن يواسي النفس؟ هذه عبارة قرأتها في كتاب له وجدته مصادفة أيام
كنت أزورك في الاستوديو. ولست كذلك الشاب الذي ذكرت لي عنه
حين كنا معاً في مارلو أنه يقول إن ملمس الأطلس الناعم ينسبه كل ما
في العالم من أحزان، فأنا أتعشق الأشياء الجميلة ولا أقنع منها بالقليل.
أنا أحب التماثيل البرونزية والتماثيل العاجية والقماش المزخرف القديم
وأدوات الترف وأسباب البذخ، وبالجملة أحب أن يكون كل ما تقع عليه
حواسي جميلاً فيه أثر الفن. مثل هذه الأشياء تجعل الحياة بهيجة ولكن
قيمتها الأولى عندي هي أن تلهمني بالخواطر الفنية أو تعرض عليّ
ما فيها من فن على أقل تقدير. فاجتناب آلام الحياة لا يكون إلا بعلو
الذات ووقوف الإنسان موقف المشاهد من نفسه كما قال هنري. أعلم
أن حديثي هذا يذهلك لأنك لم تتعوده مني، ولكنك تنسى أنني قد أموت.
لقد عرفني حين كنت تلميذاً لا خبرة لي بالحياة، أما الآن فأنا رجل كامل
النمو وأفكاري اليوم غير أفكارني بالأمس وعواطفني اليوم غير عواطفني
بالأمس، وإذا كنت قد تغيّرت فهذا لا يستتبع أن تخفّف من حبك لي بل
ينبغي عليك أن تظل كما كنت دائماً صديقي الوفي رغم أنني قد تغيّرت.
وأنا أحب هنري حباً لا شك فيه ولكنني أعتقد أنك أطيّب منه نفساً. نعم
أنت أطيّب منه نفساً رغم أنه أقوى منك شخصية وأقل خوفاً من الحياة.
تذكر يا بازيل كيف كنا سعيدين معاً في الماضي فأرجوك ألا تقاطعني
أو تتشاجر معي. وإذا كنت ترجو مني أن أعود كما كنت فأنت مخطئ،
وواجبك أن تقبلني على علاتي. هذه وجهة نظري قد بسطتها لك وليس

(1) ثيوفيل جوتيه (1811-1872) شاعر فرنسي، كتب المسرحية والرواية والنقد الأدبي.

لدي ما أضيفه إليها.

وتأثر الرسّام لهذا الكلام فقد كان يحب الفتى أيّما حب ويعلم أن شخصيته قد ألهمته بأسلوب في فنه جديد. ولهذا لم يحتمل أن يترسل في لومه. وقد كان يعرف فيه النبل وكرم النفس فظن أن فتوره في الأيام الأخيرة ليس إلا نوبة عارضة.

فقال أخيراً وهو يتسم ابتسامة حزينة:

- لن أحدثك مرة أخرى في هذا الموضوع الفظيع يا دوريان، وكل ما أرجوه ألا يرتبط اسمك بالحادث على صورة ما. إن التحقيق سيجري عصر اليوم فهل استدعتك النيابة؟

فهزّ دوريان رأسه دلالة النفي وبدا عليه الاستياء من ذكر التحقيق، فقد كان يرى في أشباه هذه الأشياء أنها تصلح للرعاع لا للسادة. قال:

- إنهم يجهلون اسمي.

- ولكن الفتاة كانت تعرفه بلا شك.

- كلا. إنما كانت تعرف اسمي الأول فقط، وأنا واثق من أنها لم تبج به لمخلوق، فقد ذكرت لي مرة أنهم كلما سألوها عني أجابتهم بأن اسمي الأمير الساحر، فأحسنت بذلك صنعاً. أرجوك يا بازيل أن ترسم لي صورة من سيبيل لأنني أحب أن يبقى لي منها شيء يذكّرني بها غير القبلات القليلة التي تبادلناها والكلمات الحزينة التي سمعتها منها.

- إذا كان هذا يرضيك يا دوريان فسأحاول أن أرسم صورة منها. ولكنني أطلب إليك أن تعود إليّ لأرسمك من جديد فقد انقطع عني الوحي منذ أن غبت عني.

فجفل الفتى وأجاب:

- هذا مستحيل يا بازيل. فلن أستطيع أن أقف أمامك مرة أخرى

لترسمني.

فحملت الرسّام فيه وقال:

- ما هذا الهراء يا عزيزي؟ أفهم من هذا أن الصورة التي رسمتها لك لم تعجبك؟ ولماذا تحجبها بهذا الستار؟ دعني أرها فهي خير ما أنتجت في حياتي أرجوك أن تنزع عنها الستار يا دوريان، واعلم أن خادمك قد تجاوز حدود الذوق حين حجب هذه الصورة عن الأنظار. لقد لاحظت أن منظر الحجرة غير مألوف لديّ لحظة أن دخلتها.

- إن خادمي لا صلة له بهذا الأمر يا بازيل. أتحسب أنني أسمح له بأن يتصرّف في حجرتي كما يشاء؟ إن كل ما أسمح به لفككتور هنا هو ترتيب الأزهار من وقت إلى آخر. لقد غطيت الصورة بنفسي لأن الضوء الساقط عليها قوي فخفت أن يفسدها.

- من أين جئت بهذه النظريات يا عزيزي؟ إن هذا أنسب مكان لها. دعني أرها.

وسار هولورود إلى ركن الحجرة قاصداً الصورة، فشحب وجه دوريان جراي وانبعثت منه صيحة فزع وأسرع ليعترض سبيله قائلاً:
- أنا أمنعك عن رؤية هذه الصورة يا بازيل.
فقال هولورود ضاحكاً:

- وكيف تمنعني عن رؤية عمل من أعمالي؟ إنك لا ريب تهزل.
- كلا، فأنا جاد في ما أقول تماماً. وإذا أنت حاولت رؤيتها يا بازيل فإني أقسم بشرفي أنني لن أكلّمك ما حييت. لا تطلب إلى إبداء أسباب فإن فعلت فلن تظفر مني بشيء، ولكن تذكر أنك لو جذبت هذا الستار فإن كل صلة بيننا تنتهي.

نزلت هذه الكلمات على هولورود نزول الصاعقة ونظر إلى دوريان جراي في عجب شديد، فرأى الدم قد غاض من وجهه غضباً، ورأى قبضتيه معقودتين وفي عينيه اشتعلت نيران زرقاء، وأبصر كل جارحة فيه تنتفض انتفاضاً. قال:

- ما لك يا دوريان!

فتركه الرسّام ومضى إلى النافذة وقال ببرود:

- ماذا انتابك يادوريان؟ إذا كنت تكره أن أرى الصورة فلن أراها بطبيعة الحال، ولكن من السخف أن يُحال بيني وبين عملي على هذا النحو وخاصة لأنني أنوي عرضها في باريس في الخريف القادم، وأحسب أنها ستحتاج إلى طبقة جديدة من الورنيش قبل عرضها، فإذا كنت سأراها في يوم من الأيام فما الفرق بين رؤيتها الآن ورؤيتها غدًا؟

فتملّك الفزع دوريان جراي وصاح به:

- أتريد أن تعرضها؟ أتريد أن تعرضها؟

إذا فسيقف العالم كله على سره ويعجب الناس لهذا اللغز العظيم. ولكن هذا مستحيل، لأن دوريان جراي لن يسمح بذلك. نعم لا بد من عمل شيء أيا كان ليحول دوريان جراي دون ذلك. قال الرسّام:

- نعم، أريد أن أعرضها، وأحسب أنك لا تمنع في ذلك. إن جورج پتي سوف يجمع أجودّ صوري ويرسلها إلى معرض خاص بشارع سيز بباريس وهذا المعرض سيفتح أبوابه في الأسبوع الأول من أكتوبر، ولن تغيب عنك الصورة أكثر من شهر واحد، ولن تخسر بذلك شيئًا كثيرًا لأنك ستغادر لندن إبان ذلك الشهر على أية حال، وإذا كنت تحجب الصورة دائمًا بهذا الستار فيستوي لديك وجودها وعدم وجودها.

ومر دوريان بيده فوق جبينه ليمسح العرق المتصبب منه، وأحس بخطر هائل يحدق به. قال:

- أما قلت لي منذ شهر إنك لن تعرض الصورة قط؟ فلم عدلت عن قرارك هذا؟ إنني لأرى أن أمثالك من الناس الذين يتمسكون بالمعقولة لا يقلّون تقلبًا في أهوائهم عن غيرهم، وكل ما هنالك أن نزواتكم سفيهية لا معنى لها. أنسيت أنك أكدت لي بكل ما تملك من قوة أنه لن يحملك على عرضها شيء في الوجود. ألم تقل لهنري نفسه هذا الكلام؟

ثم توقّف فجأة عن الحديث ولمع في عينيه بريق. فلقد تذكّر أن اللورد هنري قال له ذات مرة بين الجد والدعابة، «إذا أردت أن تقضي ربع ساعة من أعجب ما مرّ بك فاجعلُ بازيل يدلي إليك بالأسباب التي تمنعه من عرض الصورة، ولقد أدلى إليّ بهذه الأسباب فعلمتني عنه شيئاً لم أكن أعرفه فيه». نعم. من الجائز أن لبازيل كذلك سرّاً يريد أن يحتفظ به لنفسه، فليحاول إذا أن ينزع منه هذا السر.

ومشى الفتى إليه ثم نظر إليه نظرة ثابتة وقال:

- اسمع يا بازيل، إن لكل منّا سرّاً يود أن يحتفظ لنفسه به، فلو بحث لي بسرك بحث لك بسري. لماذا كنت ترفض عرض الصورة في بادئ الأمر؟

فارتجف الرّسام رغم أنه حاول أن يضبط شعوره وأجاب:
- لو أنني ذكرت لك السبب يا دوريان لجاز أن ينقص ذلك من حبك لي ولسخرت مني بغير شك، وأنا حريص على حبك حريص على احترامك. وإني لراضٍ بما يرضيك، فإذا كان يرضيك ألا أرى الصورة أبداً فإنني بذلك راضٍ. ويكفيني أن أراك دائماً أمامي فلا حاجة لي إذا بالصورة. وإذا كان يرضيك أن تحجب أجمل صورة رسمتها عن أنظار العالم. فهذا يرضيني كذلك لأن صداقتك أعزّ عندي من كل شهرة أو صيت.

فقال دوريان ملحقاً في سؤاله:

- بل يجب أن تذكر لي السبب فمن حقي أن أعرفه.
وزال عن دوريان جراي إحساسه بالفزع وحل محلّه الفضول، وصحّ عزمه على انتزاع هذا السر من بازيل هولورود مهما كلفه ذلك. وبدا على الرّسام القلق وهو يقول:

- فلنجلس يا دوريان، فلنجلس. ولكن قبل أن أعترف لك بشيء أجبني على هذا السؤال: هل لاحظت في الصورة شيئاً غريباً، شيئاً لم تره

فيها أولاً. ثم ظهر فيها فجأة؟

فحملت الفتى فيه في رعب وذ هول وارتجفت يداه وقبضتا على ذراعي مقعده وصاح:

- وكيف عرفت يا بازيل؟

- أرى أنك لاحظت في الصورة شيئاً غريباً كما قلت، فلا تقاطعني يا دوريان وتريث حتى تسمع أقوالي كلها. لقد كان لشخصيتك سلطان عظيم على نفسي منذ أن تقابلنا يا دوريان فامتلكت روحي وعقلي وسائر ملكاتي وصرت أرى فيك صورة المثل الأعلى الذي يأتينا معشر الفنانين من وادي الذكريات ولا يفتأ يلم بنا إمام الحلم الجميل. ولقد عبدت هذا المثل الأعلى في شخصك حتى بت أغار من كل من تحدّث إليه وأحسب أنه سيصرفك عني وأردت أن أستحوذ على كل ما فيك وحدي وكانت السعادة تجيئني بمجيئك وتغيب عني بغيبتك، ولكنك كنت حاضرًا في فني دائماً أبداً كلّما غاب شخصك عني. ولم يكن في استطاعتي بطبيعة الحال أن أبوح لك بهذا السر فما كنت لفهم معناه فأنا صاحبه لم أكن أفهم معناه، وكل ما فهمت منه أنني رأيت الكمال رؤية العين وأني أحسست ببهجة الحياة بعد أن كنت شقياً. ولعلي أسرفت في ابتهاجي بالحياة فقد لازمني الإحساس بخطر محدّق، فقد كنت أخاف من فقدانك وكنت أخاف من إبقائك، وهذا من خصائص الحب المدمّر، وكلما مرّت الأيام زاد اندماجي فيك. ولقد رسمتك في صورة أدونيس حاملاً رمحاً مصقولاً لابساً بزّة الصيادين، ورسمتك في زورق هادريان توجت رأسك أزهار اللوتس الثقيلة وامتد بصرك وراء مياه النيل المضطربة الخضراء، ورسمتك في صورة إله النرجس تتأمّل وجهك الجميل في غدير صافٍ ساكن بين أدغال اليونان. وقد لزمتم حدود الفن الصحيح في كل ذلك فكان عملي مثاليًا بعيداً عن الحياة لا دخل للوعي فيه. ثم جاءت نقطة تحول. عزمت ذات يوم على أن أرسم صورة منك عظيمة، بل صورة لك

كما أنت في الواقع وفي ملابس العصر الذي تعيش فيه. ولست أدري ماذا دفعني إلى ذلك أهو جمال الأسلوب الواقعي أم جمالك أنت يا دوريان وقد ظهر شخصك لي مجردًا عن أساطير الفن. ولكنني أحسست وأنا أرسمك بأن كل خط أمدته وكل طبقة من اللون أضعتها على اللوحة تفضح سري، وأشفت أن يرى الناس هذه الوثنية الجديدة في عملي. أحسست يا دوريان بأني قد بحث للناس بأكثر مما ينبغي لي أن أبوح به، وإني قد وضعت في الصورة من نفسي أكثر مما ينبغي أن أضع. وهذا ما جعلني أقرّر ألا أعرض الصورة، وقد أحقتك كلماتي قليلاً ولكنك لم تفهم وقتئذ معنى الصورة عندي. أما هنري فقد صارحته بهذه الحقيقة فضحك مني ساخرًا، ولكنني لم أكرث لسخريته لأنني أفهم أسلوب تفكيره. فلما أن تمّت الصورة وجدت نفسي على انفراد معها فتبيّنت صدق إحساسي. ولكن الصورة انتقلت من الاستوديو إلى بيتك بعد بضعة أيام فزال سحرها في نفسي وخلت أني تركت نفسي فريسة للأوهام حين رأيت في الصورة شيئاً غير عادي ولم أعد أرى فيها إلا أنها صورة شاب جميل رُسمت بيد رسّام ماهر. بل أنا الآن أحس أن من الغباوة أن يحسب إنسان أن العواطف التي تصاحب عملية الخلق عند الفنان تتجلّى في الأثر الذي يخلقه. فالفن شيء مجرد على عكس ما نعتقد. والقالب واللون لا يدلان إلا على القالب واللون، وكل ما خرج عن هذا هو من نسج الخيال. وكثيراً ما يجول ببالي أن الفن يطمس شخصية الفنان ولا يظهر منها إلا القليل. وهذا ما جعلني أقرّر أن أجعل من صورتك اللوحة الأساسية في معرضي حين وصلتني هذه الدعوة من باريس، ولم يخطر ببالي قط أنك سترفض، ولكنني أرى الآن أنك على صواب والصورة لا يمكن أن تعرض وأرجو ألا تغضب لما قلت يا دوريان، فأنت لم تخلق إلا لتُعبد. هذا رأيي، وقد صارحت به هنري ذات مرة.

تنفّس دوريان جراي الصعداء، وتورّدت وجنتاه من جديد وهَمَّ بأن

يبتسم. فلقد زال عنه الخطر وأحس أنه بمأمن في تلك الساعة، واختلج فؤاده بالرتاء للرَّسَام الذي فزغ منذ لحظة من هذا الاعتراف الغريب، ثم انصرف إلى التفكير في نفسه واستبعد أن يحدث له ما حدث لبازيل هولورود استبعد أن يكون لأحد عليه كل هذا السلطان مهما بلغ حبه له. إن اللورد هنري كان يفتنه لأنه رجل خطر، ولكن هذا كل ما في الأمر. إن ذكاء اللورد هنري شديد إلى الحد الذي يخيفه وسخريته من كل شيء في الحياة تقف سدًّا حائلًا بينهما، ولهذا كان مستحيلًا أن يحب دوريان جراي اللورد هنري كل هذا الحب العميق. هناك شخص تخبئه له المقادير سيفعل به ما فعله هو بالرَّسَام ويملؤه بهذه الوثنية العجيبة؟ قال هولورود.

- عجب أن ترى هذا في الصورة يا دوريان. أضحك أنك رأيت؟
فأجاب الفتى:

- لقد رأيت في الصورة شيئًا، شيئًا بدا لي عجيبيًا.

- والآن وقد عرفت كل شيء أسمح لي برؤية الصورة.
فهز دوريان رأسه قائلاً:

- كلا يا بازيل، وأرجوك ألا تسألني ذلك مرّة أخرى فلن أسمح لك بأن ترى الصورة.

- ولكنك ستسمح لي بذلك في المستقبل، أليس كذلك؟
- كلا لن أسمح لك بذلك أبدًا.

- ربما كنت مصيبًا في هذا يا دوريان. والآن لا بد لي من الانصراف فإلى اللقاء. لقد كنت الشخص الوحيد الذي ترك في فني أثرًا دائمًا، وإني لمدين لك بكل ما في إنتاجي من جمال. ولكنك لا تعرف كم كلّفني الإفضاء إليك بهذا الكلام.
فقال دوريان:

- ولكنك لم تفضِ إليَّ بشيء يا عزيزي بازيل سوى أن إعجابك بي قد استبد بك، وهذا ليس شيئاً مذكوراً فهو لا يصلح حتى أن يكون مجاملة.
- أنا لم أقصد به أن يكون مجاملة، وإنما قصدت به أن يكون اعترافاً.
والآن وقد اعترفت على يدك أراني أحس بأنني قد فقدت شيئاً. لعل الصلوات تفسد العبادات.

- إذا كان ذلك اعترافاً فقد خاب أمني فيه.

- وكيف كان ذلك يا دوريان، أكنت تتوقَّع شيئاً آخر؟ رأيت في الصورة شيئاً آخر؟ أجبني. أجبني.

- كلا، ولكن لِمَ تسأل هذا السؤال؟ لا تتحدَّث عن العبادة بعد الآن يا بازيل، فما نحن إلا صديقان وصداقتنا يجب أن تدوم.

فقال الرسَّام بقلب حزين:

- ولكن ماذا يهمك من أمري؟ إن لك في هنري ما يؤنس وحشتك.
فأجاب الفتى ضاحكاً:

- إن هنري يقضي أيامه في قول الغرائب، ويقضي ليليه في فعل العجائب، وهذا ما يحببني فيه، ولكني لا أعتقد أنني ألتجئ إلى هنري إذا أصابني مكروه، فأنت أدنى إليَّ منه.
- أنا أنتظر منك أن تأتيني لأرسمك مرة أخرى.
- هذا محال.

- أنت تفسد حياتي الفنية برفضك هذا يا دوريان بعد أن عثرت فيك على مثلي الأعلى فقليل من الناس من يجد المثل الأعلى. أما أنا فقد أوتيت مثلين: أنت وفني، وهذا ما لم يحظَّ به إنسان.

- لا تطلب مني تفسيراً يا بازيل، ولكن محال أن أسمح لك برسمي مرّة أخرى. يخيل إليَّ أن للأقدار يداً في كل صورة تُرسم، وكأني بالصور تحيا كما يحيا الإنسان. نعم، محال أن أسمح برسمي مرّة أخرى ولكني سأزورك لأتناول معك الشاي وفي هذا المتعة نفسها.

- ربما وجدت أنت فيه المتعة نفسها أما أنا فلا. إلى اللقاء يا دوريان.
كم يحزنني أنك لا تأذن لي برؤية الصورة مرة أخرى، ولكن لا بد مما
ليس منه بد، وإني لأقدر شعورك حق قدره.

ثم انصرف فابتسم دوريان ابتسامة الراضي عن نفسه. إن بازيل
المسكين قد مضى وهو يحسب أنه وقف على سِرّ دوريان جراي وما
وقف على شيء البتة. ثم أليس عجيبيًا أن ينجح في انتزاع ذلك الاعتراف
من صدر بازيل بعد أن كان على أهبة الاعتراف بسرّه له؟ ولقد فسّر
اعتراف بازيل هولورود له الكثير مما كان خافيًا عليه، فسّر له نوبات
الغيرة الحمقاء التي كانت تعترى الرّسام فلا يستطيع لها كبتًا، وفسّر له
تفانيه الكامل في حبه، وفسّر له إسرافه في اطرائه، فسّر له الصمت الطويل
الغريب الذي كان يلازمه بين وقت وآخر. كل هذه الأشياء اتضحّت له
بعد إبهام، فتألم لحاله ألمًا عظيمًا، وأحس بأن صداقة كهذه اصطبغت
بالوان الخيال تنذر بفاجعة أكيدة.

وتنهّد ثم دق الجرس. لقد عزم على شيء، وليس هناك ما يشنيه عن
عزمه. يجب أن تخفي الصورة عن الأنظار مهما كانت النتائج، فلن
يعرّض سرّه للافتضاح بعد الآن. لقد كان جنونًا منه أن يترك الصورة ولو
لساعة واحدة في حجرة تطوؤها كل قدم.

الفصل العاشر

دخل فكتور فنظر دوريان جراي إليه نظرة فاحصة لعله يرى إن كان قد جال بباله أن يكشف الحجاب ليرى الصورة المخبوءة خلفه، لكن وجه الخادم بدا له كالقناع الخالي من كل تعبير، وظل الرجل ثابتًا في مكانه ينتظر أوامره. وأشعل دوريان سيجارة ومشى حتى بلغ المرأة وأنشأ يتأمل خياله فيها. كذلك أبصر خيال فكتور فيها، وبدا الخادم له كمثال للخنوع فرال عنه خوفه منه ولكنه لم ينزل عن رغبته في الحذر.

وطلب دوريان من خادمه في لهجة بطيئة أن يرسل إليه المدبّرة ثم يقصد إلى النجار ويسأله أن يوفد إليه رجلين من عنده فورًا. وحين انصرف فكتور خيّل إلى دوريان أنه ألقى نظرة على الستار، ولكن لعله كان واهمًا.

وبعد دقائق دخلت مسز ليف المكتبة في جلبة واضحة، وكانت تلبس ثيابًا حريرية سوداء انقرض زيتها منذ زمن. وطلب دوريان منها أن تعطيه مفتاح الحجرة التي كان يستعملها أيام الدراسة. فقالت المدبّرة:

- ولكن حجرة الدراسة قدرة يكسو الغبار كل ما فيها يا مستر دوريان، ولا بد أن أتولى تنظيفها وترتيبها أولاً قبل أن تدخلها فهي في حالة سيئة جدًا.

- ولكني لا أريد أن أراها نظيفة ومرتبة، وكل ما أريده هو المفتاح يا مسز ليف.

- إذا دخلتها سيدي فسوف يتساقط عليك التراب وتتراكم العناكب، فقد ظلت مدة منذ وفاة سيدي اللورد.

فعبس دوريان جراي حين سمع اسم جده فقد كان يبغض ذكره. وقال:

- هذا لا يهم، فكل ما أريده هو أن ألقى نظرة على المكان فهاتي المفتاح.

فأنشأت السيدة العجوز تبحث بيدين مضطربتين عن المفتاح بين مجموعة من المفاتيح مربوطة في حلقة وهي تردّد:

- ها هو المفتاح، يا سيدي. ها هو المفتاح يا سيدي. تريث حتى أخرجه من الحلقة ولكن أرجوك يا سيدي ألا تنتقل إلى حجرة الدراسة فأنت هنا في أتم راحة.

وأخذ منها المفتاح وهو يقول في ضيق:

- كلا يا مسز ليف، لن أنتقل إلى حجرة الدراسة، وأشكرك على المفتاح. لن أحتاج إلى شيء آخر.

ولكنها لم تنصرف فوراً بل طفقت تشرح له بعض الشؤون المنزلية التافهة، فابتسم لها وأفهمها أنه قد أطلق يديها في الأمر تتصرف فيه كما تشاء فانصرفت مغتبطة بهذه الثقة.

ولما أغلقت الباب خلفها وضع دوريان المفتاح في جيبه ثم نظر في أنحاء الحجرة فوقعت عينه على غطاء حريري في لون البنفسج موشى بالذهب في كثير من أجزائه، وكان هذا الغطاء تحفة في فن النسيج صنع في البندقية في نهاية القرن السابع عشر وقد عثر عليه جده في دير من أديرة النساء بالقرب من بولونيا. ووجد دوريان في هذا الغطاء ستاراً مناسباً يستر به الصورة البغيضة. ولعل الغطاء كان في الماضي كفنّاً يغطى به الميت، وهو اليوم يستر شيئاً لا يقل عن الجيف تعفنّاً، شيئاً تقشعر الأبدان لمراه ولا سبيل إلى زواله. إن خطاياها قد أصبحت تفعل باللوحة فعل الديدان

بالجثث ولسوف تذهب بجمالها وتشوه فنتتها وتدنسها تدنيس شديدًا، ومع ذلك فلن يضع شيء لحياتها حدًا لأنها خالدة.

وارتجف وعضه الندم على إخفاء الحقيقة عن بازيل، فلو أنه فعل لساعده بازيل على التخلص من نفوذ اللورد هنري عليه، بل لساعده على كبح جماح نفسه التي كانت تميل بفطرتها للشر. فالحب الذي يكتنه بازيل له لم يكن مجرد إعجاب بجمالها نشأ في الحواس ومنتظر أن ينطفئ بانطفائها بل كان شوقًا عقليًا، شوقًا نبيلًا، شوقًا كذلك الشوق الذي ملأ حياة ميكل أنجلو ومونتيني وفنكلمان وشكسبير نفسه. نعم، كان في استطاعة بازيل أن ينقذ روحه من الهلاك الذي ينتظرها، لو كان لقد فات الأوان وهو يستطيع أن يتنكر لماضيه ويمحقه محققًا إما بنسيانه أو بإنكاره أو بالندم عليه، ولكن المستقبل لا مفر منه فهو أسير نفسه ونفسه أمانة بالسوء وهو عبد رغباته وهي شريرة.

ونزع دوريان جراي من الأريكة ذلك الغطاء البنفسجي الكبير الموشى بالذهب الذي كان يكسوها وسار به حتى بلغ الستار المنشور على الصورة وجذبه عنها، وتأمل وجهه في اللوحة فلم يدر إن كانت ملامحه قد ازدادت بشاعة. إن مظهر الوجه يدل على أنه لم يتغير ومع ذلك فقد اشتد كرهه له. فالشعر الذهبي والعينان الزرقاوان والشفتان الورديتان كل هذه كانت تطالعه في الصورة كما كانت تفعل قبلاً، ولكن التعبير قد تغير، وهذا ما حزَّ في فؤاده حزًا شديدًا. إن الصورة لتؤنِّبه على أفعاله، ولغتها الصامته أقسى من تأنيب بازيل ألف مرة. لقد أطلت روحه من اللوحة لتذكره بسوء المصير. فلما أن غلبه الألم نشر الغطاء البنفسجي المزخرف على الصورة فحجبها، وفيما هو يفعل كذلك طرق الباب طارق. وابتعد دوريان جراي حين لمح خادمه يدخل الحجرة. قال الخادم.

- لقد حضر الرجال يا سيدي.

وأحس دوريان جراي بأن خادمه مصدر إزعاج فرأى أن يتخلَّص منه،

إذ ليس من الحكمة أن يعرف مقر الصورة الجديد. لقد كان فكتور ماكراً شيئاً ما، كما أن في عينيه ما ينم عن الخبث، ولذا وجب استبعاده. بذلك جلس دوريان جراي إلى مكتبه وخطّ سطوراً معدودات إلى اللورد هنري يسأله فيها أن يسعفه بكتب يقرؤها ويذكره بأن مواعدهما في الثامنة والرابع من ذلك المساء. ثم سلّم الرسالة إلى خادمه قائلاً:

- جثني برد اللورد هنري، وقبل أن تذهب أدخل الرجال.

ومرّت دقائق قليلة سُمع بعدها بابهُ طرّقاً، ثم دخل عليه مستر هبارد صانع الإطارات المعروف في شارع سوث أودلي بشخصه وفي معيته مساعد له كرية المنظر. وكان مستر هبارد رجلاً ضئيل الجسم أحمر السوالف ممتلئاً بالحيوية يحب الفن حقاً ولكن حماسته للفن قد خفّف منها أن أغلب عملائه من الفنانين مفلسون، وهو حريص على أن يتقاضى ثمن ما يصنع من إطارات. ولم يكن مستر هبارد لينتقل إلى بيت عميل مهما علا شأنه، ولكنه كان يستثنى دوريان جراي من هذه القاعدة. فلقد كان دوريان جراي يجذب كل عارفيه، وكان مستر هبارد كسائر الناس يغبط لرؤيته. وقال هو يفرك يديه اللتين بدت عليهما آثار الجدي:

- أي خدمة تريدها مني يا مستر جراي؟ إنه ليسرّفني أن أحظى برؤيتك ولذلك تراني جثتك بشخصي. لقد ابتعت اليوم فقط إطاراً بديعاً عثرت عليه في مزاد من الطراز الفلورنسي القديم وأعتقد أنه آت من فونتهيل، وسوف تجد أنه يناسب صورة موضوعها ديني.

- يؤسفني أنك قد أزعجت نفسك بالحضور شخصياً يا مستر هبارد فالمسألة ليست ذات بال. ولا شك أنني سأزورك لأرى الإطار بنفسي رغم أنني في هذه الأيام لا أكثرث كثيراً للفن الديني. وكل ما أريده الآن هو نقل صورة عندي إلى غرفة بأعلى المنزل، وقد رأيت أن أطلب رجلين من رجالك لهذا الغرض.

- ليس في مجيئي أي إزعاج لي يا مستر جراي بل إن فيه سروراً عظيماً

لي، فأبي صورة تريد نقلها يا سيدي.

فقال دوريان وهو يزيح الغطاء عن الصورة:

- هذه الصورة يا مستر هبارد، أتستطيع أن تنقلها كما هي بغطائها؟
أرجو ألا تصاب الصورة بخدش أثناء نقلها.

فأجاب الرجل الطيب مستر هبارد:

- هذا شيء يسير يا سيدي.

ثم شرع يخلع السلاسل النحاسية التي كانت الصورة معلقة بها في الحائط بمساعدة زميله ثم أردف:

- والآن يا مستر جراي إلى أين تريد نقلها؟

- اتبعني يا مستر هبارد إذا سمحت. إن الغرفة التي أريد نقل الصورة إليها في أعلى البيت وسنستخدم السلم الأمامي فهو أعرض من السلم الآخر. وبيدولي أن من الأفضل أن تتقدمني أنت. وأمسك الباب المفتوح حتى نفذ الرجلان منه إلى القاعة وشرعا في الصعود. ثم لحق بهما، وكانت الصورة أضخم من المعتاد لأن إطارها المزخرف كان أضخم من المعتاد، لذلك كان دوريان جراي من وقت لآخر يساعدهما على الرغم من اعتراضات مستر هبارد الكريم الذي كان يعز على نفسه أن يرى أي «جنتلمان» يشترك في عمل نافع. وحين بلغوا آخر قاعدة في السلم مسح مستر هبارد العرق المتصبب على جبينه وقال وهو يلهث:

- إنها لحمل ثقيل يا سيدي.

فأجاب دوريان قائلاً:

- نعم يا مستر هبارد، إنها حمل ثقيل.

ثم فتح لهما باب الغرفة التي أراد أن تحجب سرّه عن عيون الناس. لم يكن دوريان قد دخل غرفة الدراسة منذ زمن طويل وكان آخر عهده بها أيام كان يلعب فيها طفلاً ثم أيام كان يستذكر دروسه فيها صبياً. وكانت الحجرة واسعة متناسقة بناها اللورد كاسو خصيصاً لحفيده دوريان

ليقصيه عنه ما أمكن ذلك، فقد كان يشبه أمه إلى حد غريب واللورد كلسو كان يكره كل ما يذكره بأمه التي فرّت مع ذلك الصعلوك الفقير وجعلت اسمه مضغة في أفواه الناس. وحين دخل دوريان الحجرة وجدها على حالها القديم ورأى الصندوق الكبير المذهّب الحواشي المصنوع في إيطاليا ذا الجوانب الخرافية النقوش، ذلك الصندوق الذي اعتاد أن يختبئ فيه أيام كان صبيًا يلهو. كذلك رأى حمّالة الكتب تحمل كتبه الدراسية ومن ورائها تدلّت على الحائط رقعة بالية من القماش الفلمنكي المشغول تحمل صورة ملك وملكة يلعبان الشطرنج في وسط حديقة وبجوارهما كوكبة من الصيادين على أفراسهم يحملون على معاصمهم صقورًا رؤوسها مغطاة، وقد انظمت على الرقعة الألوان. وعادت إليه ذكريات الحداثة جميعًا وهو يتفحص محتويات الحجرة وتذكر طفولته الموحشة وصباه الظهور فاستنكر أن يكون هذا المكان الأمين مخبأ لتلك الصورة البشعة، وتحسّر على أيامه الفاتتات.

ولكنه لم يجد بالبيت حجرة أصلح من هذه الحجرة لإخفاء الصورة، فهو يحمل مفتاحها ولا سبيل لأحد غيره أن يقتحمها دون علم منه. وهنا يستطيع الوجه المختبئ وراء الغطاء البنفسجي أن يتحوّل كما يشاء فما من عين تراه. يستطيع أن يمتلئ بالدنس والقساوة والوحشية، ولن يكثرث هو لذلك فهذه آخر مرة يرى الصورة فيها فما به حاجة إلى أن يتتبع انحطاط روحه درجة درجة. ولقد بقي له شبابه وهذا يغنيه عن كل شيء في الوجود. أما روحه التي ضاعت منه فقد يستردها من جديد. نعم. فما أدره أن المستقبل مظلم كالماضي؟ أو ليس جائزًا أن تصفو روحه وتخلص من أوشاب الشر؟ أليس جائزًا أن يذوق الحب من جديد فيطهّر الحب روحه ويقيه من الخطايا التي تعبت الآن بنفسه ويجسده على السواء. أجل، يعصمه من الخطايا الخفية التي زينها له ولعه بالعجائب. جائز إذاً أن تختفي دلائل القسوة من الشفتين الدقيقتين الجميلتين،

وعندئذ لن يجد حرجًا في أن يعرض هذا العمل الفني الخالد على أنظار الناس.

ولكنه عاد فعدل عن هذه الأوهام فقد تذكَّر أن الصورة تكبر في العمر كما يكبر الإنسان وتسجل الخطوط التي ترسمها السنون على صفحة الوجه شهرًا فشهرًا، بل ساعة فساعة. ولقد تنجو الصورة حقًا من آثار الخطيئة ولكن هل من الزمن نجاة؟ لسوف يغور خداه أو يترهلان. لسوف يتسع فمه كما يتسع فم الأبله أو يسترخي. لسوف تذبل عيناه وينطفئ وهج شعره الذهبي ويتجعَّد وجهه وتبرد يده المعروقة وتنحني قامته وتلتوي سائر أعضائه كما التوت أعضاء جده القاسي من قبل. نعم يجب أن تُحجب الصورة عن الأنظار. وأخيرًا التفت دوريان جراي إلى الرجلين وقال في إعياء:

- أرجوك أن تدخل الصورة يا مستر هبارد، وإني لآسف لإهمالي إياكما طول هذا الوقت فقد تحوَّلت أفكارني إلى شيء آخر.
وكان مستر هبارد لا يزال يلهث من الإجهاد فأجاب:

- بل لقد أتحت لنا أن نستريح يا مستر جراي ونحن نشكرك على ذلك.
والآن أين تريدنا أن نضع الصورة يا سيدي؟
- أينما تحب. ضعها هنا مثلاً واسندها إلى الحائط فلست أرغب في أن أراها معلقة. أشكرك.

- أياذن لي سيدي في رؤية الصورة؟
قال دوريان في ارتياح:

- ليس في الصورة ما يثير اهتمامك يا مستر هبارد. ولقد انتهى عملي بهذا، وإني لأشكرك مرة أخرى على مجيئك بشخصك.
ولم تتحوَّل عيناه عن الرجل، ولو أنه اجترأ على كشف الغطاء الجميل الذي يستر أسرار روحه لانقضَّ عليه وأدبته تأديبًا.
- لا شكر على واجب يا مستر جراي، لا شكر على واجب. وإني رهن

إشارتك دائماً يا سيدي.

ونزل مستر هبارد يعبر قدميه على السلم جرّاً ومن ورائه مساعده.
والتفت هذا الأخير إلى الخلف كأنه يتزوّد بنظرة أخيرة من دوريان
جراي، وارتسمت على وجهه الغليظ دلائل الخجل والدهشة معاً، لأن
جمال دوريان جراي قد هزّ أوتار قلبه.

واختفى وقع الأقدام فأوصد دوريان الباب ووضع المفتاح في جيبه،
وأحس بالطمأنينة لأن عيون الناس لن تقع على هذا الوحش الممسوخ
وتعرف منه جرائم روحه الآثمة.

ودخل المكتبة فوجدها على حالها ووجد الشاي في انتظاره. كذلك
وجد رسالة من اللورد هنري بجانبها كتاب أصفر الغلاف ممزق مبتل
الأطراف، وجدهما على مائدة صغيرة من الخشب الأسمر الزكي
الرائحة المطعم بالصدف أهدتها إليه الليدي رادلي زوجته وصيه وهي
امرأة وسيمة الطلعة تحترف السّقم لتقضي شتاءها في القاهرة وصيفها
في الريفييرا. وعلى صينية الشاي رأى الطبعة الثالثة من صحيفة سانت
جيمس، فعلم أن فكتور قد عاد وخطر له أن يكون خادمه قد التقى بمستر
هبارد وصاحبه أثناء انصرافهما، واستخلص منهما سر مجيئهما. ولا شك
أنه سيفتقد الصورة، بل لا شك أنه افتقدها فعلاً وهو يضع آنية الشاي على
المائدة، وهذا مكانها في الحائط ظاهر في وضوح، فلقد نسى دوريان
أن ينشر عليه الستار ليخفيه. وبدأت الهواجس تلعب برأسه فتصوّر
فكتور متسللاً ذات ليلة إلى الطابق العلوي محاولاً أن يفتح باب الحجرة
عنة. لقد كان يسمع بكثير من سراة القوم الذين قاسوا طول حياتهم من
تهديد خدمهم، لأن خدمهم قرؤوا خطاباً من خطاباتهم الخاصة أو عثروا
على ورقة تحمل عنواناً مريباً أو وجدوا زهرة ذابلة أو قطعة من الدنتلا
المتكسّرة تحت وسادة من وسائدهم. ودار بخلده أن فكتور يتجسّس
عليه فأحس بأن الحياة على هذه الشاكلة لا تحتمل.

وتنهَّد ثم صبَّ لنفسه فنجاناً من الشاي ثم فض رسالة اللورد هنري فإذا اللورد هنري لا يقول فيها إلا أنه قد أرسل إليه صحيفة المساء وكتاباً لعله يجد فيه متعة، وأنه سيكون بالنادي في الساعة الثامنة والنصف. وفتح دوريان الصحيفة فلفتت نظره فقرة في الصفحة الخامسة جرى تحتها القلم الأحمر وقرأ فيها ما يلي:

«التحقيق في مصرع ممثلة: أجرى مستر دانبي مأمور قسم هوكستون صباح اليوم في بل تافرن بطريق هوكستون التحقيق في مصرع سييل فين، وهي ممثلة صغيرة السن تعاقبت أخيراً مع دار التمثيل الملكية بحى هوبورن. وقد أسفر التحقيق عن أن الوفاة كانت نتيجة خطأ وقد عبَّر المحقِّق عن ألمه الشديد لوالدة القتيلة التي غلبتها أحزانها أثناء ادلائها بشهادتها وعند سماعها شهادة الدكتور بيريل الذي قام بفحص الجثة».

وبعد أن فرغ من تلاوة هذا النبأ تجهمَّ وجهه ومزق الصحيفة إرباً ثم ألقاها في ركن الغرفة. لقد عادت إليه بشاعة الموقف وأحس بشاعة الحياة ذاتها، واغتاز من اللورد هنري لأنه أرسل إليه تقرير المأمور، ورأى في إشارته بالقلم الأحمر إلى سطور الخبر غباوة كبرى، لأن إمام فكتور باللغة الإنجليزية يكفيه لفهم مضمون الفقرة، ولعل هذه الإشارة أغرته بقراءتها فعلاً. وإذا كان فكتور قد قرأها فلا شك في أنه بدأ يشك في أمره ولكن ما أهمية شكه ودوريان جراي لا صلة له بموت سييل فين. ووقع بصره على الكتاب الأصفر الذي أرسله اللورد هنري إليه وأراد أن يعرف موضوعه فسار حتى بلغ الحامل الثماني الأضلاع اللؤلؤي اللون الذي كان يبدو له دائماً كخلية فضية جسيمة الأطوال بنتها جماعات من النحل العجيب، وتناول الكتاب ثم جلس في مقعد كبير وأنشأ يتفحص المجلد. وفي دقائق معدودة كان دوريان جراي يقرأ الصفحات في نهم شديد، فقد كان الكتاب أعجب كتاب وقع في يده، ومرت أمام عينيه الخطايا السبع في موكب جميل راقصات على إيقاع

ناي سحري متسرבלات بأفخر الثياب. وبدأت أحلامه الغامضة تأخذ أشكالاً محسوسة أما خفايا اللذة فقد طافت بعقله كالأحلام.

كان الكتاب قصة لا عقدة لها، وليس فيها غير شخص واحد، أو بمعنى آخر كان دراسة نفسية لشاب باريسي من أبناء القرن التاسع عشر تنكّر للقرن الذي يعيش فيه وحاول أن يجرب العواطف التي جربتتها القرون الأخرى ويعتق المبادئ التي آمنت بها تلك القرون، وبالجملة حاول أن يركز في نفسه سائر الأطوار التي مرّت بها الروح الإنسانية منذ القدم، فهو أنا يقبل على الزهد الذي يلقيه الحمقى بالفضيلة لما فيه من خروج على الطبيعة، وأنا يُقبل على المعاصي التي يلقيها العقلاء بالرديلة. وكان أسلوب الكتاب أسلوباً غريباً منمّقا واضحا وغامضا في وقت واحد، اجتمع فيه اللفظ الدارج واللفظ القديم والتعبير العقلي والتعبير العاطفي مما يميز كتاب المدرسة الرمزية في فرنسا. وكانت به من الكلمات النابية واللطيفة معاً وظهرت فيه الشهوات في صورة فلسفة صوفية، فاختلط عليه الأمر حتى أمسى لا يدري أيطالع وصفاً لرؤيا قديس من أهل العصور الوسطى أم يقرأ اعترافات فاسق أصيل من أهل جيله. لقد كان كتاباً مسموماً، ما في ذلك شك، ومن صفحاته سعدت عطور ثقيلة هيجت ذهن دوريان جراي، وأخذته غيبوبة من أثر التنغيم اللفظي وإيقاعه الرتيب الممل الذي كان قائماً على التكرار المدروس، واستغرق في ما يشبه الحلم وهو يطوي فصول الكتاب فصلاً فصلاً فلم يشعر بزوال النهار ودنو الليل.

وفي المساء بدت قبة السماء لا هي بالخضراء ولا هي بالحمراء ولمع فيها نجم ثاقب واحد استضاء بنوره دوريان جراي حتى تعبت عيناه ولم يعد يستطيع أن يمضي في القراءة. وبعد أن دخل خادمه عليه جملة مرات ليذكّره بتأخر الوقت نهض من مكانه ودخل الغرفة المجاورة ووضع الكتاب على مائدة فلورنسية صغيرة كانت تلازم فراشه باستمرار، ثم بدأ

يستبدل ثيابه تأهبًا للعشاء.

وحين بلغ النادي كانت الساعة قد بلغت التاسعة أو ما يقرب من ذلك، وفي النادي وجد اللورد هنري يجلس بمفرده في صالون الصباح وقد بدت عليه أمارات الملل القتال فقال له:

- أرجو أن تصفح عني يا هاري فما تأخرت إلا لأن الكتاب الذي أرسلته لي قد سحرني حتى ألهاني عن الوقت.
فأجاب اللورد هنري وهو ينهض من مكانه:
- لقد توقعت أنك ستجبه.

- لم أقل إنني أحبه يا هاري، وإنما قلت إنه سحرني والفرق بينهما عظيم.

قال اللورد هنري بصوت خافت:

- أراك قد اكتشفت هذه الحقيقة بنفسك.

ثم دخل الرجلان حجرة الطعام.

الفصل الحادي عشر

كان لهذا الكتاب سلطان عظيم على دوريان جراي لازمه سنوات عديدة، أو بتعبير أدق، لم يسع دوريان جراي إلى التخلص من سلطان هذا الكتاب على نفسه وقد بلغ من افتتانه به أنه ابتاع من باريس جملة نسخ من طبعته الأولى لا تقل عن تسع، كلها من القطع الكبير، وجلدها في ألوان مختلفة تستريح إليها نفسه في أطوارها المتقلبة وترتاح إليها طبيعته التي باتت تحكمها الأوهام ولم يعد لإرادته عليها سلطان. فلقد وجد في ذلك الشاب الباريسي العجيب بطل القصة الذي اجتمع فيه الولوج بالخيال والولوج بحقائق العلم مرآة لنفسه المعقدة، بل لقد وجد أن الكتاب بأكمله ليس إلا ترجمة لحياته كُتبت قبل أن يخرج هو إلى الوجود.

ولكنه كان ينعم بشيء واحد لم ينعم به بطل القصة العجيب، ذلك أن دوريان جراي قد نجا من ذلك الرعب الشديد الذي كان يستولي على الشاب الباريسي كلما وقعت عينه على مرآة أو لوح من المعدن المصقول أو صفحة من الماء الصافي، ذلك الرعب الشديد الذي لازمه وهو لا يزال في شرح الشباب، فقد كان في مستقبل عمره آية من آيات الجمال ثم زال عنه جماله قبل الأوان فبات لا يقوى على مجابهة الحقيقة. وكان دوريان جراي يقرأ القسم الأخير من الكتاب وهو القسم الذي يصور أحزان هذا الفتى الباريسي وقد فقد جماله في لذة ما بعدها لذة مصدرها الشماتة،

وهي قسوة تلازم اللذة أيا كان نوعها.

إن جمال دوريان باقٍ لا يذبل كجمال الرياحين في شاطئ الكوثر الموعود، وهو يلهم بازيل هولورد بآيات الفن وهو الذي رَقَّق لدوريان قلوب عارفيه، ولقد يطلق فيه شائوه هجر القول في مجتمعات لندن ونواديها فما أن يروه حتى يضعفوا أمام شوكة جماله ويكذبوا أنفسهم لظنها أن مثل هذا الجمال الفريد تلوّثه الآثام. فلقد بدا دوريان دائماً كمن صان نفسه من أقدار الحياة، وكانت براءة الملائكة تنطق في محيائه. وكان الناس يفتابونه اغتياً بما أن يدخل عليهم حتى تخرس ألسنتهم ويحسوا بأن طهارة وجهه تؤبّهم تأنيباً شديداً على سوء ظنهم به فكأنما يذكرهم محضره بالجمال الذي دنسوا والحرمة التي انتهكوا. ويعجبوا لهذا الشباب النضير كيف نجا من أوحال الحياة في عصرهم عصر الفجور والشقاء.

وكانت له غيبات طويلة لا يعرف أحد عنها شيئاً تحمل أصدقاءه وعارفيه على تفسير اختفائه بأعجب التكهّنات. وكان دوريان جرای يصعد بعد عودته من هذه الرحلات العجيبة إلى الغرفة المغلقة ويدخلها حاملاً في يده مرآة، ويقف أمام الصورة ناظراً تارة إلى الوجه المغضن الشيرير المظل من اللوحة وتارة إلى الوجه الصبوح المعكوس في المرآة، وكان يجد في ذلك لذّة كبرى لأن الاختلاف الكبير بينهما كان يطمئنه على شبابه وجماله، حتى لقد بدأ يتعشّق نفسه ويرتاح إلى تدهوره الروحي. وكان بين وقت وآخر يفحص الخطوط البغيضة التي يرسمها الزمن على الجبين بعناية عظيمة تدل على اغتباطه الشديد بهذا العمل، ليعرف أيهما أفتك بالصورة، آثار الزمن أم آثار الشر وما أكثر ما كان يضع يديه الجميلتين بالقرب من يدي الصورة الشائھتين ويبتسم ابتسامة الرضا. وما أكثر ما كان يهزأ بالجسم البشع والأعضاء الضامرة التي يراها على اللوحة.

ولكنه كان في قليل من الأحيان يقضي الليل مؤرّقاً تارة في غرفته العاطرة وطوراً في غرفة قذرة بحانٍ صغير سيئ السمعة كان يقصد إليه مستخفياً تحت اسم مستعار حيث يفكر في ما أنزله بروحه من دمار وينتحب لمصيره الأليم في ندم صادق لا زيف فيه، وكيف لا يكون ندمه صادقاً وهو محض أثره فيه. على أن هذه الأوقات كانت نادرة لأن الانغماس في اللذات زاد فضوله للمعرفة، ذلك الفضول الذي كان اللورد هنري أول من ألهمه فيه وكلما زاد اختباره في الحياة زادت رغبته في الاختبار، وكلما أشبع نهمه للحياة اشتد جوعه إليها.

ولكنه رغم ذلك كله كان يبالي برأي المجتمع فيه وقد دأب على أن يقيم في كل موسم حفلات منتظمة في يوم الأربعاء من كل أسبوع. كذلك كان يقيم الحفلات في الشتاء مرّة أو مرتين كل شهر. وكان يفتح أبواب بيته الجميل لأبناء البيوتات ويستخدم العازفين ليضطربوا ضيوفه. وكلما أقام حفلة عشاء كان اللورد هنري يساعده في اختيار المدعوين وفي ترتيب مكانهم في المائدة وفي انتقاء الأزهار التي تزين مائدته الفاخرة. ولقد كان دوريان جراي عند كثير من الإيفاع النموذج الكامل لما يجب أن يكون عليه فتیان إيتون أو فتیان أكسفورد، وهو عندهم مزيج من الشاب الذي ثقفته الكتب، والشاب الذي ثقفته الحياة، وقد كان دوريان جراي عندهم أحد أولئك الذين وصفهم دانتي⁽¹⁾ بأنهم يسعون «لتكملة نقصهم بعبادة الجمال» أو قال فيهم تيوفيل جوتيه «إن العالم المحسوس قد خلق ليشبع حواسهم».

ومهما يكن من شيء فلا جدال في أن أول فنّ تخصص فيه دوريان جراي هو فن الحياة، وما كانت بقية الفنون المعروفة في نظره إلا تمهيداً

(1) دانتي الجييري (1265-1321): شاعر وكاتب إيطالي، أشهر أعماله «الكوميديا الإلهية».

لهذا الفن الجليل. لقد كان تطور الذوق مع الأيام يفتنه حقًا، لأنه يزين غير المعقول لعقول الناس، ولو إلى أجل قصير. كذلك كان التألق يفتنه لأنه وجد فيه ما يثبت على وجه ما أن الجمال ليس من تراث الماضي بل من عمد العصر. وقد كان للأزياء التي اصطنعها اصطناعًا أثر ملموس على رواد المراقص الراقية بحي مايفير وما شاكل ذلك من المجتمعات المترفة، لأنهم تأثروا بخطاه في كل ما فعل واجتهدوا في أن ينقلوا عنه ابتكاراته الرشيقة التي كان يلهو بها في أوقات فراغه رغم أنه لم ينظر إليها في يوم من الأيام على أنها عمل جدي، فدوريان جراي كان حريصًا كل الحرص على المكانة التي خصَّصها المجتمع له منذ أن بلغ سن الرشد وأحب أن يلعب في لندن الحديثة الدور الذي لعبه مؤلف ساتيريكون في روما القديمة أيام قيصيرية نيرون، ولكنه رغم ذلك كان يتمنى من صميم قلبه أن يكون شيئًا أسمى من مجرد قائد من قادة الأناقة يُحتكم إليه في طرق لبس الجواهر ويُستشار في طرق عقد أربطة الرقبة ويُحتذى في طرق حمل العصا. كان يحلم بأن يبتكر أسلوبًا في الحياة جديدًا له فلسفة تبرّره وأسس متماسكة تقوّمه، أسلوبًا في الحياة غايته العليا التصوف عن طريق الحواس.

فلقد وجد دوريان جراي الناس يستنكرون عبادة الحواس ووجد هذا فيهم أمرًا طبيعيًا فالناس يفزعون بالغريزة من الشهوات الجارفة والإحساسات التي تضعف أمامها نفوسهم وهم يدركون أنهم يشتركون فيها مع الأحياء الأخرى التي تقل عنهم رقيًا وانسجامًا. ولكنه رأى أن طبيعة الحواس لم تُفهم قط على حقيقتها، وأن الحواس ما بقيت على حالها الحيواني الأول إلا لأن المجتمع أجاجها وأذلّها وسامها سوء العذاب، بدلًا من أن يجعل منها سبيلًا إلى روحية جديدة قوامها تذوّق الجمال بالفطرة، وكان يرى أن تاريخ الإنسانية لا يبشّر بالخير فهو سلسلة من الهزائم التي أضاع الإنسان فيها إنسانيته ليظفر بأشياء لا نفع فيها. فلقد

نزل الإنسان عن سعادته برضاه وعدَّب نفسه برضاه وأنكر ذاته برضاه، وكان حافزه إلى ذلك كله هو الخوف، وما جنى من ذلك كله إلا الانحلال التام الذي لا يُقاس به ذلك الانحلال المزعوم الذي يسعى الناس، جهلاً منهم، للنجاة منه. فالطبيعة تسخر منه سخرية لاذعة حين تسوق الناسك إلى المفازة الجرداء ليأكل مع وحوشها وتؤلف بينه وبين بهائم الحقول.

نعم سيكون لعبادة الجمال بعث قريب كما تنبأ بذلك اللورد هنري، وحين تُبعث عبادة الجمال من جديد سوف تُجدد الحياة على الأرض وتنشلها من التطهر المتلف البشع الذي ينخر في شجرة الحياة في عصرنا هذا. وسيخدم العقل هذا المذهب الجديد بغير ريب ولكن في الحدود التي تصون العاطفة، ولسوف يكون الهدف الأول لعبادة الجمال هذه الاختبار ذاته بحلوه ومره وليس ثمرات الاختبار. أما الزهد الذي يطفئ الحواس والتهتك الرخيص الذي يميتهما فلن يتسع لهما هذا الدين الجديد لأنه سيذكر الناس بأن العمر برهة ويحثهم على اقتناص هذه البرهة.

نحن نصحو قبل انبلاج الفجر في بعض الأحيان بعد ليلة هادئة تنقطع فيها الأحلام فتشبهنا في الموت وهدوئه أو بعد ليلة مزعجة تزدحم فيها الأشباح الممسوخة والرغبات المحرمة فتملاً كهود الخيال وتززم كأنها العواطف الهوجاء، وتعصف بها كأنها وحي فنان قوطي، فما الفن القوطي إلا تجسيد هواجس الخيال المحموم. وهذا الاختيار يمر فيه أغلب الناس وقلماً ينجو منه أحد. نستيقظ قبل الفجر فيخيل إلينا أننا نرى أصابع شاحبة تعبت بالستائر فتتهتز الستائر، وتزحف أمامنا الظلال القائمة الماردة الأطوال في صمت عند أركان الحجرة وتقع هنالك. وفي الخارج تتحرك الطيور بين أوراق الشجر فنسمع حفيفها، أو يدب الناس ساعين إلى أرزاقهم فنسمع وقع أقدامهم أو تعوي الرياح بين التلال وتنزل بمضاجعنا الساكنة بخطى خفيفة كأنها تشفق أن توقظ النيام، ولكن عليها أن تناشد النوم أن يخرج من كهفه الأحمر. وترتفع الحجب الرقيقة

الغشاء حجابًا حجابًا وتعود إلى الأجسام ألوانها وأشكالها رويدًا رويدًا ونرى الفجر يبني الطبيعة على نسقها القديم. وتمشي الحياة من جديد في المرايا فتعكس الكائنات. وتلقت حولنا فنجد القنديل المطفأ كما تركناه ليلة الأمس وإلى جواره الكتاب الذي لم نفرغ بعد من قراءته أو الزهرة التي كانت في عروتنا ونحن في المرقص أو الخطاب الذي لم نجد الشجاعة لفضه وتلاوته أو الخطاب الذي قرأناه عشرين مرة. ومن ظلال الليل تخرج حقائق النهار التي نعرفها فنستأنف الحياة حيث تركناها ويغمرنا إحساس بوجود المضي في ما تعودناه من أعمال راتبة مملة، أو نرجو أن نفتح الأجفان ذات صباح فنجد عالمًا جديدًا يحقق أحلامنا، أعدته لنا المقادير في ظلام الليل، عالمًا ألوانه زاهية وأشكاله جديدة وأسواره غير ما ألفناه من أسرار، عالمًا لا أثر فيه للماضي أو لذكراه فواجبات الأمس وآلامها قد طمستها يد النسيان، حتى أفراح الأمس تشقينا وسعادته تحيي فينا الأحزان.

كان دوريان جراي يرى أن الحياة لا قيمة لها إلا إذا فتحت أمام النفس هذه الدنيا الجديدة. ولطالما خرج عن طبيعته الحقيقية واستسلم لمثل هذه الأفكار لا لشيء إلا لأنه يبحث عن الإحساسات الجديدة والإحساسات السارة والإحساسات الشاذة وبعد أن يرضي فضوله العقلي بها تراه ينبذها في استخفاف غير متظر. ولم يكن هذا الاستخفاف نتيجة نقص العواطف بل نتيجة اتقادها.

لقد أرجف عنه المرجفون ذات مرة أنه أزمع على اعتناق الكاثوليكية ولم يكن هذا غريبًا لأن طقوس الكنيسة الكاثوليكية كانت تلهب خياله. فالقربان اليومي فيها كان في نظره أشد رهبة من قرابين الوثنية الأولى. والقربان اليومي كان عنده إنكارًا جميلًا لماهية الحواس. وقد اهتز فؤاده لفكرته الفطرية الساذجة وتأثرت نفسه للمأساة البشرية التي يرمز لها ذلك القربان. وكان يحب السجود على الدرج الرخامي البارد ليرى

القيس وهو يزيح عن الهيكل الحجاب في أناة بيد شاحبة تكسوه مسوحة الكنسية السميقة المزركشة، أو يرفع وعاء السر المقدس الشبيه بالمصباح المرصع بالأحجار الكريمة، وفيه الرقاق الذي يبدو حقاً كأنه زاد الملائكة، أو يدق صدره ندمًا على خطاياها وهو يحمل كأس الاعتراف في زي من أزياء المسيح. كذلك كانت المباخر المتقدمة التي يحملها صبية المقبرة ذوو الأردية الحمراء الموشاة ويطوحونها في الهواء بين المصلين تفتن خياله. وكان دوريان جراي كلما خرج من كنيسة كاثوليكية ينظر إلى كرسي الاعتراف الأسود عاجبًا ويتمنى أن يختبئ خلفه لسمع النسوة خلسة يروين تاريخ حياتهن الحقيقي من وراء القضبان.

ولكنه رغم ميله الشديد إلى هذه المراسم لم يبتدئ تفكيره بقبول مبادئ الكتلثة أو ينسى أن هذا الخان الروحاني لا يصلح للسكنى وإنما يصلح لقضاء ليلة أو ساعات معدودات في جو خلت سماؤه من النجوم واكتمل القمر. فالتصوف تسلط عليه فترة من الزمن لما فيه من غرابة ولما فيه من نقض خفي للأوضاع الخلقية. والمادية الداروينية كما بشر بها الألمان تسلطت عليه فترة من الزمن لأنها فسرت له الأفكار والعواطف تفسيرًا عضويًا وقد سره فيها أنها تجعل النفس خاضعة لظروف الجسم ما صح منها وما سقم. ولكن النظريات في الحياة لم تلهه عن الحياة ذاتها وأحس بأن التفكير مجهود عقيم ما لم يقترن بالاختبار العملي، وأدرك أن الحواس لها ما للنفس من وظيفة روحية.

ودفعه ذلك في وقت ما إلى دراسة العطور وأسرار صناعتها وأخذ يجري عليها تجاربه الخاصة فكان يمزج الزيوت وطيوب الشرق النفاذة الرائحة، وكان يرى أن كل حالة من حالات العقل لها ما يقابلها في عالم الحواس وأنشأ يبحث في العلاقة القائمة بين الحس والتفكير وأراد أن يستقصي السر الذي يجعل البخور يثير التصوف في الإنسان والعنبر يثير فيه الشهوات وأزهار البنفسج تثير فيه ذكريات الغرام الدفين والمسك

يشوش العقل والشنيق يشوش الخيال، وأراد أن يضع لفلسفة العطور أساسًا علميًا فيصف تأثير الأعشاب والأزهار والزيوت والأشجار زكية الرائحة وصفًا تجريبيًا صحيحًا.

كذلك دفعه في وقت آخر إلى دراسة الموسيقى، فكان يدعو أصحابه إلى حفلات موسيقية لم يألّفها أحد في غرفة مستطيلة سقفها برتقالي وجدرانها خضراء كالزيتون نوافذها ذات عوارض، وهناك كان المدعوون يسمعون همجي الأنغام فكنت ترى العجر المجانين يعزفون ألحانًا هائجة على آلات وترية صغيرة وكنت ترى التونسيين في عبااتهم الصفراء يعزفون على عيدان جسيمة قبيحة المنظر والزواج العابسون يقرعون طبولًا نحاسية قرعًا راتبيًا يجلب النعاس إلى العيون على حين كان الهنود المعمّمون نحاف الأجسام يجلسون على حصر حمراء وينفخون في مزامير طويلة بعضها من الغاب وبعضها من النحاس وكانهم يسحرون بها الثعابين الطوال النحيلة والثعابين القصار الغليظة.

وكان فؤاده في بعض الأحيان يهتز لهذه الأنغام الهمجية ولا يتحرّك لعذوبة شوبرت أو جمال شوپان الحزين أو قوة بيتهوفن الدفّاقة، وألّف مجموعة وافية من الآلات الموسيقية العجيبة جاءت من كل بقعة من بقاع العالم، بعضها من مخلفات الحضارات البائدة وبعضها من بلاد المتوحشين الذين أبوا أن يحتكّوا بالرجل الأبيض ويجزّبوا مدنيته. وكان في مجموعته آلة چورپار العجيبة التي يستعملها آل ريو المولّدون من هنود وزنوج، تلك الآلة التي حرّمت على النساء رؤيتها وفرض الصوم وضرب السياط على كل فتى يريد أن يراها، كذلك جاءت من بيرو آنية من الصلصال لها صوت حاد كصوت العصافير، كما جاءت نايات صنّعت من عظم البشر كتلك التي سمع الفونسو دي أوقالي نداءها في بيرو، وأحجار اليشم الخضراء الحلوة الصوت التي توجد بالقرب من كوزكو. وكانت لديه جوزات مطلية بالألوان بداخلها حصى يخشخشن حين تُهز

وألة مكسيكية طويلة تعرف بالكلارين لا ينفخ العازف فيها بل يمتص الهواء، وأخرى خشنة من عند قبائل الأمازون تعرف بالتورا ينفخ فيها الديدبان الجالس طيلة النهار في قمة الشجرة فيقطع نداؤها ثلاثة فراسخ كما يزعم القوم، وثالثة هي التبونازلي لها لسانان من الخشب يترددان تردد الأوتار يضربها العازف بعصي يغطي أطرافها المطاط وهو عصارة الشجر المتجمدة، ورابعة هي أجراس مجتمعة في هيئة عنقود واسمها اليوتل تستخدمها قبائل الأزتيك، ثم خامسة هي طبل عظيم الحجم أسطواناني الشكل تكسوه جلود الثعابين كالطبل الذي رآه برنال دياز حين دخل المعبد المكسيكي في صحبة كورتيز، ووصف لنا دقائق الحزينة أبلغ وصف. لقد كانت غرابة هذه الآلات تفتنه وجعلته يعتقد أن للفن وحوشه ذات الخلقة الممسوخة والأصوات المنكرة، كما أن للطبيعة وحوشها ذات الخلقة الممسوخة والأصوات المنكرة، ولكنه بعد أن جمع من هذه الوحوش ما جمع زهد فيها وعاد إلى مكانه في الأوبرا، آناً وحيداً وأنا برفقة اللورد هنري يستمع إلى تانهاز في نشوة تشبه الوجد، ويلتمس في مقدمة هذه الأوبرا الخالدة ترجمة صادقة للمأساة التي نزلت بروحه.

وكما درس دوريان جراي العطور والموسيقى درس كذلك الأحجار الكريمة. وقد ظهر مرة في حفلة تنكرية في زي آن چواينز أميرال فرنسا وكانت ترصع ثوبه مائة وستون درّة، وقد تحكّمت فيه هذه الهواية سنوات طويلة بل لازمته بقية حياته. وكان في بعض الأحيان يقضي اليوم بأكمله في تصنيف ما جمع من حلي كل في علبته. وكان لديه منها أنواع نادرة كالزبرجد الأخضر الذي يستحيل أحمر في نور المصباح والزبرجد الأحمر الذي يضرب فيه خط من الفضة كأنه سلك ممدود، والزبرجد الأصفر الذي يميل إلى لون الفستق والياقوت الوردية والياقوت الأصفر والياقوت الأحمر الدموي الذي يختلج نوره في هيئة نجمة رباعية والأماتوس المشتعل كاللهب، والأماتوس البنفسجي والأماتوس

البرتقالي المطعم بالياقوت الأحمر والياقوت الأزرق. وكان شديد الكلف بحجر الشمس وضيائه الذهبي وبحجر القمر وضيائه اللؤلؤي وبعين الهر اللبني الذي تتجمع فيه ألوان الطيف وتتكسر. وقد اشترى من امستردام ثلاث زمردات جسيمة الحجم لونها يسحر الناظرين، وكان في مجموعته فيروزة من «الصخرة القديمة» يحسده عليها هواة الأحجار الكريمة.

وقد وقع أثناء اشتغاله بجمع الأحجار الكريمة على طائفة من القصص التي تدور حول الجواهر. فقرأ في كتاب «تعاليم الكهنة» لألفونسو⁽¹⁾ عن ثعبان له عين من الياقوت الأصفر الحقيقي وعرف عن ألكسندر فاتح إثميا⁽²⁾ ذي التاريخ العجيب أنه وجد في وادي الأردن حيات تكسو ظهرها طبقة من الزمرد الصافي. وقرأ في فيلوسترات⁽³⁾ عن تينين في فمه درة، إن رأى رداءً أحمر وحرفاً ذهبية غلبه نوم سحري وأمکن للناس قتله. كذلك عرف من مطالعته في أعمال الكيمياء العظيم الذي اشتغل بالسحر بيير دي بونيفاس أن في الماس قوة تخفي الإنسان وفي عقيق الهند قوة تزيد من فصاحته، أما عقيق كورنيليا فيزيل الغضب والياقوت الزعفراني يجلب النعاس والأماتوس يوقظ المخمور من نشوة الخمر والعقيق الروماني يطرد الشياطين وجوهرة الماء تطفئ لجين القمر والباذر المستخرج من قلب الطيب العربي ترياق للسم ودواء للطواعين وجوهرة الطير التي تضعها طيور العرب الأصيلة في أعشاشها وقاء

(1) بطرس ألفونسو: طيب ومنجم وكاتب أندلسي، وُلد يهودياً وتحول للمسيحية، عاش في القرن الحادي عشر الميلادي.

(2) الاسم القديم لمقدونيا.

(3) فيلوسترات (170-247): سفسطاني يوناني، من كتبه «عن الأبطال» و «حياة السفسطانيين».

لحاملها من النيران كما روى ديموقريط⁽¹⁾ الحكيم. ودرس الأساطير التي تتواتر عن الأحجار الكريمة وفعلها العجيب، فقرأ أن ملك سيلان طاف في موكب حافل يوم تتويجه بأرجاء مدينته حاملاً في يده ياقوتة حمراء، وأن أبواب قصر يوحنا الراهب «مصنوعة من حجر السرد وقد نُحت فيها قرن الثعبان ذي القرن المسموم حتى لا يدخل القصر رجل يحمل السم». وفوق سطح القصر «تفاحتان من ذهب وفي التفاحتين ياقوتتان بلون الجمر» فالذهب يضيء نهارًا والياقوت يضيء ليلاً. وفي رواية لودج⁽²⁾ الغربية «مرغريت الأمريكية» قرأ أن في غرفة الملكة «تماثيل من فضة لملكات العفاف في التاريخ يتأملن وجوههن في مرايا من الياقوت الأحمر والياقوت الجمري والياقوت الأزرق والزمرد الأخضر». كذلك عرف عن ماركو پولو أنه رأى سكان زيبانجو يحشون أفواه موتاهم بذرّ وردي اللون، وقرأ عن وحش من وحوش البحر يعشق درة استخراجها عَوَاص من بطن الماء وأعطائها للملك بيروز⁽³⁾ ففتك الوحش بالغواص الغاصب وبات في حداد على معشوقته حتى غاب القمر السابع. وفي رواية بروكويوس أن الملك بيروز قذف بالدرّة حين استدرجه أمراء الهون إلى الهوة الكبرى فصاعت الدرّة ولم يعثر عليها أحد رغم أن الإمبراطور انتاس وعد من يجدها بخمسمائة سبيكة من الذهب. كذلك قرأ عن ملك ملبار أنه كشف لتاجر من تجار البندقية عن مجموعة من اللآلئ تبلغ الثلثمائة والأربع عددًا، كل لؤلؤة منها تمثل معبودًا من معبوداته.

وفي رواية برانتوم أنه لما زار الدوق فالنتينو ولد إسكندر السادس

(1) ديموقريط أو ديمقراط (460-370 ق.م.): أشهر فلاسفة عصر ما قبل سقراط.

(2) توماس لودج (1558-1625): طبيب وكاتب انجليزي عاش في عصر الملكة إليزابيث.

(3) الملك الساساني الثامن عشر، حكم في الفترة من 459 إلى 484.

ملك فرنسا لويس الثاني عشر كان جواده محملاً بأوراق الذهب وكان في قبعته يومئذ صفاً من الياقوت يسطع منهما بريق هائل. كذلك رُوي عن شارل الأول ملك إنجلترا أنه كان يملك جواداً تدلّت من مهمازه واحدة وعشرون وأربعمائة قطعة من الماس، ورُوي عن ريتشارد الثاني أنه كان يملك سترة قُدّر ثمنها بثلاثين ألف مارك عليها عدد عظيم من اليواقيت. وفي كتابات هول⁽¹⁾؛ أن هنري الثامن ذهب قبل تنويجه إلى برج لندن «عليه سترة من صفائح الذهب صدرها محلىّ بالماس وغيره من الأحجار الكريمة وحول عنقه بنية عالية مزينة بضخم اليواقيت» وكانت خليعة جيمس الأول تلبس قرطاً من الزمرد في إطار من سلوك الذهب، وقد أهدى إدوارد الثاني إلى جافستون درعاً من الذهب الأحمر مرصعاً بالياقوت وبنية نقشت عليها ورود ذهبية مطعمة بالفيروز وخوذة مزينة بالدر. وكان هنري الثامن يلبس قفازاً يبلغ المرفقين تحليه الجواهر، ويملك قفازاً آخر عليه اثنا عشرة ياقوته، واثنتان وخمسون لؤلؤة من لآلئ المشرق يرتديه كلما أراد حمل صقوره، أما شارل الجسور، آخر من تقلّد دوقية بورغونيا من أسرته المجيدة، فقد كانت قبعته التي يرتديها في المراسم تزدان بالياقوت الأزرق فيتدلّى منها درر تشبه الكمشى في هيئتها.

كل هذا حَبَّبَ إلى دوريان جراي الحياة في تلك العصور ولقد كان يجد في قراءة تلك الحقائق والأساطير عن ترف الملوك الغابرين لذة ما بعدها لذة.

لكنه لم يكتفِ بدراسة العطور والموسيقى والأحجار الكريمة بل انصرف كذلك لدراسة الأقمشة الموشاة والأقمشة المنقوشة التي

(1) إدوارد هول (1497-1547): محامي وبرلماني ومؤرخ انجليزي، أشهر أعماله «وقائع هول».

يكسو أهل الشمال بها جدران منازلهم الباردة كما يكسو أهل الجنوب جدران منازلهم المشرفة بالرسوم الملونة. وخصص دوريان جراي كل وقته كعادته حين ينصرف إلى هوية ما لجمع بدائع النسيج هذه وأحزنه أن يرى يد الزمن تعبت بكل شيء جميل. ولكنه وجد بعض العزاء في أن شخصه أفلت من هذا المصير فما هو الصيف يتلو الصيف والنسرين يتفتّح ثم يذبل حولاً بعد حول وليالي الفسق تأتي وتروح فليس فيها خزي جديد ولكنه باقٍ على حاله مبقٍ على جماله. فلا رياح الخريف عصفت بعوده البض ولا ثلوج الشتاء شوّهت وجهه النضير. ولكنه حي يتمتع بنعمة الحياة، أما الجماد فيذهب مع الريح، ترى أين يذهب؟ أين ذلك الثوب الذي نسجته الفتيات السمرارات ليرضين الربة أئينا فأخذه الآلهة واستخدموا ليقاتلوا عليه العمالقة؟ أين الخيمة الكبرى التي ضربها نيرون فوق الكوليزيوم بروما، تلك الخيمة الأرجوانية التي رُسمت عليها السماء ذات النجوم الثواقب وفيها أبولو يسرع بعربته ذات الجياد البيضاء، بجياده ذات الأعتة المذهّبة؟ أين المناديل العجيبة التي نسجت لكاهن الشمس ورُسمت عليها أطايب المائدة جميعاً فكان رائيها في وليمة زاخرة؟ أين أكفان الملك شلبريك التي رُسمت عليها ثلاثمائة نحلة ذهبية؟ أين تلك الثياب التي أثارت غضب أسقف بونت «بسباعها وفهودها ودبيتها وكلابها وغاباتها وصخورها وصياديتها وكل ما يمكن لرسام أن ينقله عن الطبيعة»؟ أين سترة شارل دوق أورليان التي نُقش على أكمامها أغنية مطلعها «لقد غمرني الفرح يا سيدتي» ومع الألفاظ علاماتها الموسيقية مكتوبة بسلوك من ذهب رؤوسها دُرّ؟ لقد قرأ دوريان جراي عن تلك الغرفة التي أعدت بقصر رينس خصيصاً لحنة ملكة بورغونيا وزُيّنت «بأقمشة مطرزة رُسم عليها بالخيوط ألف وثلثمائة وواحد وعشرون بيغاء تحمل جميعاً شعار الملك نقوشاً بالذهب وخمسائة وأحدى وستون فراشة تتحلّى أجنحتها جميعاً بشعار الملكة منقوشاً بالذهب كذلك».

كذلك قرأ عن كاترين دي مدسيس أنها كانت تملك سريراً يُعرف بسرير الأحزان صُنع من مخمل أسود رُسمت عليه أهلةٌ وشموس، وكانت للفراش أستار من الدَّمقس موشاةً بأكاليل الزهر رُسمت على أرض مذهبة وأرض مفضضة والأستار تنتهي بأطراف تتدلَّى منها اللآلئ، والسرير قائم في غرفة جدرانها مكسوة بقرع من النسيج مصففة تحمل شعار الملكة مرسومًا على القماش المفضض بالمخمل الأسود المقصوص. وقرأ أن لويس الرابع عشر كانت لديه أعمدة عالية مرسومة على بسط صنعت على هيئة النساء ارتفاعها خمس عشرة قدمًا كلها موشاة بالذهب. وقرأ عن سوبيسكي ملك بولندا أن فراشه الملكي كان مغطىً بحرير وذهب من أمير حُطت عليه آيات من القرآن بالفيروز، أما عمدته فكانت قشرتها من فضة عليها نقوش ماهرة رُكبت فيها أوسمة لا عد لها مرصعة بالجواهر مطعمة بالخزف، وقد كان هذا الفراش قبلاً في معسكر الترك خارج فيينا ترفرف عليه راية المسلمين.

وظل دوريان جراي يسير على هذا النهج عامًا بأكمله يكُدس أجمل ما تقع يده عليه من الأقمشة المطرزة والأقمشة ذات الرسوم فمن موسلين دلهي البديع المفوف بالخیوط الذهبية المكسو بأجنحة الجعلان البراقة، إلى غلائل دكا التي بلغ من شفافها أن عُرفت بين أهل المشرق بالهواء المنسوج، وبالماء الصافي وبندی المساء، إلى أقمشة من جاوة عليها رسوم غريبة، إلى أستار صينية صفراء دقيقة الصنع، إلى كتب مجلدة بالحرير الأسمر النحاسي اللون أو الحرير الأزرق الجميل محلاة بالزنبق والطير وما أشبه ذلك من الصور، إلى أقنعة من الحرير موشاة على طريقة المجر، إلى دمقس صقلية وأثواب المخمل الإسباني السميك، إلى منسوجات جورجيا ذات الأركان المذهبة، إلى حرائر اليابان الخضراء ذات العصافير البديعة الأجنحة.

كذلك استهواه جمع الأزياء الكنسية وقد كان هذا مظهرًا من مظاهر

كَلَّفَه بِالكنيسة وكل ما يتعلَّق بها. وفي الصناديق المستطيلة المصنوعة من خشب الشربين التي اصطفت في شرفة بيته الفريدة، كدَّس دوريان جراي عددًا عظيمًا من الثياب الجميلة النادرة التي تلبسها الكنيسة «عروس المسيح» كما يسميها الكاثوليك، وهي ثياب فاخرة تحلِّيها الجواهر قصد بها أن تخفي جسد هذه العروس الشاحب الذابل الذي برته البرحاء وأدمته الآلام، وما أنزل أحدٌ بها هذه البرحاء ولا تلك الآلام ولكنها سعت إليها اختيارًا. كذلك كان في مجموعته معطف كبير من الحرير القرمزي والدمقس ذي الخيوط الذهبية نُسجت فيه حلية متكرِّرة على صورة رَمَان كثير نبتت كل رمانة منه في زهرة سداسية الأوراق وعلى يمين الرَمَان وعلى يساره رُسمت ثمار الأناناس بالدرر الصغيرة. وكانت الشرائط الموشَّاة بالذهب المتدلِّية من المعطف مقسَّمة إلى أجزاء عليها نقوش تصور مناظر من حياة مريم العذراء من بينها تنويج مريم وقد رُسم تاجها بالحرير الملون فوق الأزار الذي يغطِّي رأسها، وهو من عمل فنان إيطالي عاش في القرن الخامس عشر. وكان في مجموعته معطف آخر من المخمل الأخضر موشَّى بباقات من أوراق الأكانتا الشوكية رُسمت على هيئة قلوب، ومن هذه الأوراق خرجت أزهار بيضاء طويلة السيقان رُسم تصميمها الداخلي بالخيوط الفضية والبلورات الملونة، وعلى الأبريزم رأس ملاك منسوجة بخيوط ذهبية بارزة، أما الشرائط فكانت منسوجة من الحرير الأحمر والحرير الذهبي ومرصعة بالأياقين التي تصوِّر الشهداء والقديسين، ومن بينهم القديس سباستيان. كذلك كانت في حوزته حلَّة كنسية من حرير لونه عنبر وحرير لونه أزرق وحرير لونه ذهبي، ودمقس لونه أصفر، ونسيج من ذهب، وعلى الحلَّة الكنسية صور تمثل آلام المسيح وصلبه ثم صور تمثِّل السباع والطواويس وغيرها من الرموز. وكانت لديه عباءات كنسية من الحرير الأبيض والدمقس الوردي محلَّاة بأزهار التوليب وأزهار الزنبق وحوار الماء، وكان لديه عدد من

كسّي الهياكل المصنوعة من المخمل والكتان الأزرق، وعدد من أغطية القربان وأقنعة الكأس المقدّسة والمناديل التي تحمل صورة المسيح. وكان يجمع هذه الأشياء لأنها ترمز لطقوس دينية تذكّي خياله.

وكان يتخذ من هذه النفائس التي جمعها في بيته الجميل وسيلة لنسيان مخازيه والهرب ولو إلى حين من مخاوفه القاتلة. وفي داخل الغرفة الموحشة الموصدة التي قضى فيها الشطر الأكبر من صباه كانت الصورة الرهيبة تستند إلى أحد الجدران حيث وضعها هنالك بنفسه وأسدل عليها الستار الملون بأرجوان وذهب، ومعالمها المحجوبة تتغير يوماً بعد يوم وتسجّل التدهور الذي ينزل بحياته. وكان يحجم الأسابيع الطويلة عن دخول الغرفة، بل ينسى الصورة الممسوخة وينسى معها العذاب الذي يفتك بروحه ويسترد مرحة الأول وشوقه إلى الحياة. ثم يخرج من داره فجأة ذات مساء ويقصد إلى وكر من تلك الأوكار الموبوءة وهناك يقضي أياماً متصلة حتى يقصيه أهلها فيعود إلى داره ويجلس قبالة الصورة حزيناً كاسف البال يمتلئ قلبه بالمقت للصورة ولنفسه معاً أو يجلس قبالتها مغتبطاً بخطاياها الفريدة لأنها فريدة، راضياً بالمسح الذي يحيق بخياله الشائه لأن المقادير كتبت عليه أن يحمل أوزار حياته النجسة.

وبعد أن مرّت أعوام شقّ عليه أن يطيل من أسفاره إلى الخارج فنزل عن الفيلا التي كان قد كراها ببلدة توفيل مع اللورد هنري كما نزل عن البيت العربي الأبيض الذي كان قد كراه بمدينة الجزائر مع اللورد هنري أيضاً وقضى فيه الشتاء بعد الشتاء. شقّ عليه أن ينفصل عن الصورة طويلاً لأن الصورة صارت جزءاً متمماً لحياته، واستبدّ به الخوف من أن يقتحم الغرفة أحد أثناء غيبته رغم أنه أحكم إصاها بالقضبان.

وكان يعلم أن سره الرهيب لن يطلع عليه إنسان لأن ملامحه قد أوشكت أن تنطمس من الصورة ولم يبقَ منه فيها إلا شبه ضئيل لا يزال ملحوظاً تحت الوجه القبيح الممسوخ. ولكن هذا لن يدل أحداً على

شيء مما جرى، ولن يعيّرهُ أحد بأنه صاحب الوجه القبيح الممسوخ فما هو بالذي رسم الصورة، ولا جناح عليه أن يكون الوجه قبيحاً وممسوخاً، بل أن يكون الوجه آية في القبح والمسوخ. ولو أنه صرح الناس بالحقيقة لكذبوه.

ومع ذلك فقد كان فزعاً واجفأ. تاه في بيته الكبير بمقاطعة نوتجهام يؤنس أصفياءه من الشباب الوجهاء ويعرض عليه ما يذهلهم ويذهل جميع الناس من ألوان البذخ ومظاهر السخاء، وفيما هو كذلك تراه يترك ضيوفه فجأة ويعود إلى لندن على استعجال ليتحقق من أن باب الغرفة ما زال سليماً والصورة ما زالت في موضعها. وكان العرق البارد يتصبّب من جسده كلما تصوّر أن الصورة قد سُرقت، فقد كان يخشى أن يطّلع الناس على سره الرهيب بل لقد كان يحس أحياناً أن الناس قد بدأوا يشكّون في حقيقة أمره.

لقد كان معجبه كُثْر ولكنّه نجح كذلك في إثارة الريب في قلوب البعض. وهو يذكر كيف أنه أراد ذات مرة أن يلتحق بناي من نوادي لندن يؤهله نسبة الكريم ومكانته في المجتمع للعضوية فيه فأوشك طلبه أن يُرفض. وقد قيل عنه إن صديقاً له استصحبه مرة إلى نادي تشرشل فما أن دخل قاعة التدخين حتى نهض الدوق بيرويك وسيد آخر في استياء واضح وانصرفا. وحين تجاوز الخامسة والعشرين من عمره كثرت عنه الأقاويل الغريبة. قيل عنه إنه رؤي في شجار مع بعض الملاحين من الأجناب في بؤرة قدرة بمجاهل حي هويت تشابل الوضع، وقيل عنه أنه كان متصلاً بعصابة من اللصوص ومزيفي النقود وأنه درس على أيديهم فنون اللصوصية والتزييف. وكان في كل مرة يخفي لا يعلم أحد مقره أو علة غيابه فتكثر الشائعات على ألسنة الناس وما أن يظهر في المجتمع من جديد حتى يتهاوس عنه الناس في أركان الغرفات أو يتجاهلونه في احتقار أو يلقون عليه نظرات باردة فاحصة لعلهم ينفذون إلى سره الخبيء.

ولكنه كان ثابت الجأش لا يعبأ بشيء من هذه الإهانات وكان أكثر الناس يعتقدون أن حاسديه ينفسون عليه مرحة الدائم الذي لم تعكّره الأحزان يوماً وابتسامته الساحرة الساذجة وشبابه الناضر الذي تحدّى الزمن فيطلقون عنه هذه التهم النكراء التي تردّها الألسنة. ولكن الناس كانوا يلحظون أن بعض أخصّائه يجافونه من وقت إلى آخر وأن بعض النسوة اللاتي عشقنه عشقاً لا مزيد عليه وكسرن من أجله أقدم التقاليد وتعرّضن في هواه لأفحش أنواع النقد كن يشجن لوتاً من فرط الخزي أو من فرط الرعب كلما حلّ دوريان جراي.

غير أن هذه الفضائح زادت فتنة في نظر الكثيرين وأحاطته بجو من الرهبة والغموض. وقد كانت له ثروته الطائلة مكانته الاجتماعية. لأن المجتمع، المتحضر على الأقل، لا يبادر إلى قبول الأقاويل التي من شأنها أن تحطّم من اجتمعت لهم الفتنة والجاه، وهو يرى بغريزته أن السلوك الاجتماعي أهم شأنًا من الأخلاق، فخير للمرء ألف مرّة أن يكون له طاهٍ ماهر من أن يكون له وقار المحافظين، فلو قدّم لك رجل عشاء مؤلماً أو نبيذاً تافهاً فكيف يعزبك أن تعرف أن حياة مضيفك الخاصة نقية لا غبار عليها؟ لقد قال اللورد هنري مرّة إن أسمى ما في العالم من فضائل لن تعوّض على الإنسان خسارته إن هو أكل لحمًا لم يتم تسخينه، ولعل في قوله شيئاً كثيراً من الصواب. فمقاييس المجتمع السليم هي مقاييس الفن السليم، فإن لم تكن وجب أن تكون كذلك، لأن الشكليات جوهرية في كل مجتمع راقٍ، والواجب يقضي بأن تنال منا ما تستحقه من حفاوة واحتفال وأن نسرف فيها حتى تتعد بنا عن الواقع؛ والواجب يقضي بأن يجتمع فيها كل ما في التمثيليات الغرامية من نفاق وكل ما في هذه التمثيليات من سحر وذكاء يحيبانها إلى قلوبنا. فما النفاق برذيلة، وما النفاق إلا وسيلة تتعدد بها شخصياتنا.

مهما يكن من شيء فقد كانت هذه فلسفة دوريان جراي. وكثيراً ما كان

يعجب لتفاهة القائلين بأن الأنا شيء بسيط ثابت جوهرى يصح الاعتماد عليه، لأنه كان يرى أن الإنسان مخلوق مركّب متعدّد الشخصيات لا حصر لإحساساته، تراكم في نفسه تراث من الأفكار والعواطف على تراث من الأفكار والعواطف ودنّست جسده أسقام الموتى وهي محزنة بشعة. وكان يشناق كثيرًا إلى استعراض صور أسلافه في القاعة الموحشة الباردة بيته الريفي ويتفحص وجوه أولئك الذين جرت في عروقه دماؤهم. فهذا فيليب هربرت الذي وصفه فرنسيس أوزبورن في مؤلفه «مذكرات عن عهدي الملكة اليزابيث والملك جيمس» بأنه «كان صفي رجال البلاط لحسن طلّعه وجماله الذي ذوى قبل الأوان». لقد كان يخيل لدوريان جراي أحيانًا أن حياته ما هي إلا صورة من حياة هربرت الشاب، وأن سم الرذيلة انتقل هكذا من جسد إلى جسد عبر القرون حتى مشى في عروقه. أترى صلّاته العجيبة إلى الآلهة أن تبقي له على شبابه وتفعل ما بدا لها بالصورة، صلاة المخبول كما وصفها بازيل هولورد، أترى تلك الصلاة التي غيرت مجرى حياته تمامًا نبتت دون وعي منه من حسرته الغامضة على أطلال هذا الجمال القديم؟ ثم هذا السير أنتوني شيرارد يقف أمامه مرتديًا صدره الأحمر الموشى بالذهب وسترته المرصّعة بكريم الجواهر مذهبة الكمين حول المعصمين وقد ارتاح درعه الأسود المفضض عند قدميه. ترى ماذا ورث عن هذا الرجل؟ لقد كان السير أنتوني شيرارد خليل جيوفانا غانية نابولي، أفتراه أورثه الميل إلى الفجور أليس جائزًا أن مغامرات دوريان جراي إن هي إلا الأحلام التي لم يجسر هذا الميت على تحقيقها؟ ثم هذه الليدي اليزابيث ديفيرو تظل عليه من اللوحة الباهتة في إشراق وقد كست رأسها بغلالة شفافة وزينت وسطها باللالئ وجرت في كميتها عروق خضراء. إنها تحمل بيمنها زهرة وتمسك بيسراها إناء مطعمًا بالخزف فيه ورود حريرية بيضاء وبجوارها مائدة على المائدة تفاحة وماندولين وعلى حذائهما الدقيقين وردتان

كبيرتان خضراوان من نسيج. لقد كان يعرف قصة حياتها والأقاويل التي تُروى عن عشاقها الكثيرين. أترأه ورث عنها طبعها؟ إن عينيها البيضاوين عليهما جفنان ثقيلان وهما ينظران إليه نظرة لا يفهم لها معنى. ثم هذا جورج ويلبوي يلبس شعره المستار المغطى بالمسحوق وثيابه العجيبة الألوان. لقد كان منظره جهنمياً، فوجهه قاتم عابس حزين وشفته الشهوانيتان قد ارتسم عليهما احتقار الناس، وعلى يديه الصفراوين سقط سواران من حرير دقيق الصنع فأوشكا أن يخفيا الخواتم الكثيرة التي تزين أصابعه. لقد كان أميراً من أمراء الأناقة في القرن الثامن عشر وكان في شبابه من أصفياء اللورد فيرارز. وغير هؤلاء جميعاً كان هناك اللورد بيكنهام صديق جورج الرابع أيام أن كان وصياً على عرش إنجلترا ونديمه أيام دعارته وأحد شهود زواجه بمسز فترزبرت. لقد بدا آية في الملاحظة بشعره الكستنائي المجعد ووقفته التي تنبئ بالصلف. ترى ماذا ورث عنه؟ لقد ساءت سمعة اللورد بيكنهام في كل مكان، وكان يترأس الحفلات البوهيمية الحمراء في كارلتون هاوس، ومع ذلك فقد رصّعت صدره نجمة وسام ربطة الساق، وهو الوسام الأول في المملكة، كأنه بطل قومي. وهاهي صورة زوجته قائمة إلى جوار صورته، وهي امرأة صفراء الوجه دقيقة الشفتين متشحة بالسواد. إن دمها يجري كذلك في عروق دوريان جراي، فيا للعجب لهذا الخليط! ثم ها هي أمه تطل عليه من لوحها بوجه يشبه وجه الليدي هاملتون محبوبة نلسون وكان شفتيها مبللتان بالنيبذ. إن دوريان جراي يعرف ما أخذه عن هذه المرأة. لقد أخذ عنها جماله وعشقه لجمال الآخرين. وها هي تنظر إليه في إشراق وهي في ثوبها المحلول الذي يشبه أثواب العذارى السكارى في أساطير اليونان، وعلى شعرها انتشرت أوراق العنب، وفي يدها كأس سال منه النبيذ الأرجواني، لقد ذبلت أزهار القرنفل التي زين بها الرسام صورتها ولكن بريق عينيها لا يزال قوياً وشفاء عينيها لا يزال عميقاً. نعم، إن

عينها تتبعاعانه أينما توجّه.

لكن دوريان جراي لم يكن له أسلاف في الدم فحسب بل كان له أسلاف في الأدب كذلك أسلاف لعلهم أوثق به رباطا مع أصلابه وأقرب إليه منهم في الطبع والشخصية، وهؤلاء تأثيرهم واضح في النفس لا خفاء فيه. بل لقد كان يتوهم أحيانا أن تاريخ الإنسانية ليس إلا ترجمة حياته هو، لا حياته الواقعة بأحداثها وظروفها ولكن حياته كما رسمها له خياله وصورتها له عواطفه. وكان يحس بأنه يعرف الأبطال الذين زينوا الرذيلة لعيون الناس وتفننوا في الشر، يعرفهم واحداً واحداً، وبدا له أن حياتهم لم تكن إلا نسخاً متكررة من حياته.

فبطل القصة العجيبة الذي كان له سلطان عظيم على نفسه كان يشاركه هذا الاحساس بأن الدنيا قد اجتمعت فيه. وهو يقول في الفصل السابع إنه جلس جلسة الإمبراطور تايريوس في حديقة بجزيرة كابرّي تغطي رأسه أوراق الغار لتمنع عنه الصواعق مطالعاً كتاب اليفانتيس المخزي، على حين كانت الأقزام والطواويس تختال من حوله، ويرقص أمامه عازف الناي كما يرقص حامل المبخرة. وهو يقول إنه ثمل وعربد مع ساسة الخيل ذوي القمصان الخضراء في مزادهم ثم أكل في صحيفة عاجية مع جواد على صدره كسوة رصّعتها الجواهر، كما فعل القنصل كاليجولا وهو يقول إنه جال كما جال دوميتيانوس شاحب الوجه في دهليز على جانبه مرايا من رخام، باحثاً في صفحاتها عن خيال الخنجر الذي اعتزم أن يقضي به على نفسه وقد أتلّف روحه الملل، ذلك الداء الذي يصيب من حبتهم الحياة بكل شيء ولم تبخل عليه بشيء. وهو يقول إنه نظر إلى حوانيت القصابين في سوق المدينة خلال زمردة شفافة صافية ثم وجد نفسه محمولاً في عربة من أرجوان ودُرّ تجرها بغال فضية الحدوات والعربة تجري في شارع الرمان قاصدة إلى قصر الذهب وسمع الناس بطول الطريق ينادون: يا نيرون، يا نيرون! كذلك يقول إنه صبغ وجهه

بالألوان كما فعل الأجابال⁽¹⁾ وجلس بين النساء يغزل كما يغزلن وأتى بالقمر من قرطاجنة وزوجه بالشمس زواج الروح بالروح.

كم قرأ دوريان جراي هذا الفصل وما بعده من فصول! لقد قرأ في الفصل الثامن والفصل التاسع وصفاً عجيباً ساحراً لأولئك الأشقياء الذين هاموا بالرزيلة وكلفوا بالدماء وضاقوا بالضجر فاستحالوا وحوشاً ضارية أو ضاع صوابهم فدخلوا في زمرة المجانين. قرأ عن فيليبو، دوق ميلان الذي ذبح زوجته وبلل بالسم شفيتها لعل عشيقها يلعبه فيموت. قرأ عن بيترو باربي عاهل البندقية الذي عُرف باسم بولس الثاني، وكيف دفعه الغرور إلى أن يلقب نفسه ببولس الجميل، وكيف باع تاجه بشهوة أثيمة نكراء وهو يقدر بمائتي ألف فلورين، كذلك قرأ عن چان ماريا فسكونتي الذي كان يستخدم كلاب الصيد لتطارده الأدميين وكيف وُجدت جثته بعد قتله مغطاة بأزهار نثرتها عليه بغية كانت مميّمة بحبه. وقرأ عن بورچيا قاتل أخيه وعن جواده الأبيض وعن معطفه الملطخ بدم بيترو. وقرأ عن بيترو رياريو كاردينال فلورنسا الصغير وولد البابا سيكستوس الرابع المفضل لديه، وهو الذي أذهل الناس جماله وفجوره معاً، وهو الذي استقبل ليونورا ملكة أراجون في خيمة من الحرير الأبيض والحرير القرمزي ملأى بالبحور ووحوش الأساطير وطلّى صبيّاً من الصبيان يقوم بخدمته في هذه الوليمة بماء الذهب لعله يبدو كهيلاس أو كغانيميد ساقى الآلهة. وقرأ عن الطاغية عزلين الذي أصيب بداء الكآبة ولم يفرّج عنه إلا مرأى القتلى وطعم الدماء حتى لقد قيل عنه إنه ولد شيطان من الشياطين راهن أباه على روحه وغشه في اللعب. وقرأ عن چان باتستا تشيبو⁽²⁾ الذي لقب

(1) Elagabalus أو ماركوس أوريليوس أنطونيوس (203-222): امبراطور روماني حكم وهو في الرابعة عشرة، قام أثناء حكمه بأمور اعتبرت إهانة للتقاليد الدينية والجنسية الرومانية، في عام 222 تم اغتياله مع والدته.

(2) جان باتيستا تشيبو (1432-1492): بابا الكنيسة الكاثوليكية الثامن.

نفسه بتشيبو البريء وهو الذي حقنه طيب يهودي بدم ثلاثة من الصبية. وقرأ عن سيجيسموندو مالاتستا⁽¹⁾ عاشق إيزوتا وسيد ريميني وهو الذي أحرقت في روما صورته ولقبه الناس بعدو الله والناس لأنه خنق پوليسينا بمنديل كبير ووضع السم لجيزفا ديستي في كأس من الزمرد وبنى كنيسة وثنية ليتعبد فيها المسيحيون تخليدًا للجريمة من جرائمه المخزية. وقرأ عن شارل السادس⁽²⁾ الذي عشق زوجة أخيه عشقًا قويًا مدمرًا حتى لقد تنبأ له رجل أبرص بالجنون فلمَّا أن ذهب عقله لم يكن يهدئ من هياجه إلا مرأى رقاع غريبة رُسمت عليها صور ترمز للحب والموت والجنون. وكذلك قرأ عن جريفونيثو باليوني ذي الشعر المجعد والقبة المرصعة باللالئ والسترة المحبوكة وهو الذي فتك بأستورّي وبعروسه وبسيمونيتو وخادمه فلمَّا أن حضرته الوفاة بقصر بيروجيا الأصفر بكاه أعداؤه لفرط جماله وباركته أتانًا بعد أن صبَّت عليه اللعنات.

كل هؤلاء قرأ دوريان جراي عنهم فسحرتهم فظاعتهم وكان يراهم في اليقظة والمنام. حقًا لقد رأى عصر النهضة الأوربية من فنون السم عجبًا. عرف الخوذة المسمومة والمشعل المسموم والقفاز المسموم والمروحة المسمومة والمسبحة المسمومة والمعطرة المسمومة.

أما دوريان جراي فقد فتك بروحه كتاب مسموم، فلقد كان يجد في الشر أحيانًا ما يحقق فكرته عن الجمال.

(1) مالاتستا (1498-1553): Sigismondo Malatesta مرتزق وزعيم عسكري

إيطالي.

(2) شارل السادس (1368-1422): ملك فرنسا، لُقّب بالمجنون.

الفصل الثاني عشر

في ليلة التاسع من نوفمبر، وهو اليوم السابق لعيد ميلاده الثامن والثلاثين، حدثت أحداث جسام جعلت دوريان جراي يذكر ذلك اليوم طويلاً.

خرج دوريان جراي حول الساعة الحادية عشر من بيت اللورد هنري. بعد أن تناول معه العشاء وسار قاصداً بيته. وكان يلبس الفراء السميقة ليتقي بها شر تلك الليلة الباردة التي انتشر فيها الضباب. وفي منعطف ميدان جروثنور وساوث أودلي ستريت خرج من الضباب رجل يسرع في المسير وقد رفع ياقة سترته الرمادية وكان يحمل في يده حقيبة. ومر هذا الرجل بدوريان جراي فإذا به بازيل هولورود. واعترى دوريان فزغ غريب لم يفهم له سبباً، فتجاهله واستأنف المسير نحو بيته على استعجال، ولكن بازيل هولورود تبينته فتوقف عن المسير أولاً ثم استدار وأسرع ليلحق به، وبعد لحظات قليلة كان الرسام قابضاً على ذراعه يقول:

- ما أعجب هذه الصدفة يا دوريان لقد انتظرتك في مكتبك منذ الساعة التاسعة، فلما طالت غيبتك أشفقت على خادمك الذي أنهكه السهر فطلبت إليه أن يأوى إلى فراشه ثم انصرفت. إني ذاهب إلى باريس بقطار منتصف الليل ولقد كان يهمني أن أراك قبل رحيلي. فلماً أن لمحتك في الضباب عرفتك أو على الأصح خيل إليّ أن هذا الفراء

فراؤك. ألم تعرفني يا دوريان؟

- وكيف أعرفك في هذا الضباب يا عزيزي بازيل! إنني لا أستطيع أن أتبيّن ميدان جروفتور نفسه فكيف تنتظر ذلك مني؟ بل إنني أحس بأن بيتي في هذه المنطقة ولكنني لا أعرف مكانه على التعيين. يؤسفني أن أسمع برحيلك يا بازيل فلقد مضى زمن طويل لم نلتق فيه، ولعلك لن تغيب طويلاً.

- بلى. سوف أقيم في الخارج ستة أشهر، وقد صحت عزمي على استئجار استوديو بباريس أعتزل العالم فيه حتى أفرغ من رسم صورة عظيمة تصميمها يملأ رأسي. ولكن دعنا من هذا الآن فما جئتك لأتحدث عن نفسي. ها قد وصلنا إلى بابك فهلا أذنت لي بالدخول حتى أفضي إليك بحديث هام؟

قال دوريان جراي في تكاسل وهو يصعد الدرج ويدير المفتاح في ثقب الباب:

- يسرني أن أدعوك يا بازيل، ولكن ألا يعطلك هذا عن قطارك؟
نظر هولورود إلى ساعته على نور المصباح الذي خنقه الضباب ثم قال:

- لا تزال أمامي فسحة من الوقت، فالقطار لا يغادر المحطة إلا في الثانية عشرة والربع والساعة الآن لا تزال الحادية عشرة. والواقع أنني حين لقيتك كنت في طريقي إلى النادي لأبحث عنك، ومن هذا ترى أنني لن أحتاج إلى وقت لجمع أمتعتي فقد سبقتني القطع الثقيلة منها إلى المحطة، وكل ما سأحمله هو هذه الحقيبة ومحطة فكتوريا لن تحتاج إلى أكثر من عشرين دقيقة.

فابتسم له دوريان وقال:

- ما أعجب منظرك في هذه السترة العريضة الياقة وبهذه الحقيبة المنتفخة! هيا ادخل وإلا دخل قبلك الضباب. ولكنني أنهارك عن الكلام

في أي شيء ذي بال، فنحن نعيش في عصر خلا من كل شيء ذي بال، أو على الأقل يجب أن يخلو.

تبع هولورود دوريان إلى المكتبة وهز رأسه حين سمع هذا الكلام. وكانت النار تتقد بشدة في المدفئة المكشوفة والمصابيح تشتعل، وفي الغرفة مائدة صغيرة عليها صندوق مفتوح من الفضة الهولندية اصطفت فيه زجاجات الشراب وبجوارها بعض زجاجات الصودا وأكواب زجاجية ضخمة.

قال هولورود مشيرًا إلى الخمر:

- من هذا ترى يا دوريان أن خادمك قد جعلني أحس بأني في بيتي، وأعطاني كل ما طلبته بما في ذلك سجائر المذهبة، فهو رجل كريم هو يفضل خادمك الأول الفرنسي ألف مرة. وبهذه المناسبة قل لي: ماذا حدث لخادمك الفرنسي؟
فهز دوريان كتفيه قائلاً:

- أعتقد أنه تزوج بوصيفة الليدي رادلي وفتح لها محلًا بباريس لتفصيل الملابس على الأزياء الإنجليزية، وقد بلغني أن التطور الأخير في الذوق الفرنسي هو الجنون بكل ما هو إنجليزي. أليس هذا غباوة من الفرنسيين؟ ولكن فكتور كان خادمًا مرضيًا على عكس ما تظن. صحيح أنني كنت أنفر منه شخصيًا ولكنه لم يدع لي مجالًا للشكوى حين كان في خدمتي. وكم شككت فيه ولكن شكوكي كانت على غير أساس فقد كان في الواقع شديد الإخلاص لي وبدا عليه التأثير العميق حين ترك خدمتي. أترغب في كأس آخر من الكونياك مع الصودا يا بازيل أم تفضل نبيذ الرين مع الغازوزة؟ إن نبيذ الرين مع الغازوزة هو شرابي المفضل ولا بد أن لدي منه بقية في الغرفة المجاورة.

أجاب الرسام وهو يخلع عنه قبعته ومعطفه ويلقيهما فوق الحقيبة التي وضعها في ركن الغرفة:

- أشكرك، وكفاني ما شربت. والآن فإنني أرغب في أن أحدثك حديثاً
جدياً يا دوريان وأرجوك ألا تعبس هذا العبوس فهو لا يشجعني على
المضي في الحديث.

فقال دوريان في جفاهه المعهود وهو يرتمي على الأريكة:
- عمّ تريد أن تحدثني؟ أرجو ألا تحدثني عن نفسي فأنا برمّ بنفسي
هذه الليلة، وأود أن أكون شخصاً آخر.

فأجاب الرسّام بصوت حاد عميق:
- بل أريد أن أحدثك عن نفسك يا دوريان، ولا بد لي من الإقضاء
إليك بهذا الحديث ولن أقطع من وقتك أكثر من نصف ساعة.

تنهد دوريان ثم أشعل سيجارة وقال:
- نصف ساعة بأكملها!

- أنا لم أطلب منك شيئاً مذكوراً يا دوريان ثم إني أتوخّى مصلحتك
بهذا الكلام. فاعتقد أن من الصائب أن تعرف أن الناس في لندن يتناقلون
عك أشنع الأقاويل.

- لست أحب أن أعرف شيئاً عما يقال فيّ. فأنا أحب الفضائح إذا
رُويت عن الآخرين أما الفضائح التي تُروى عني فلا يهمني أمرها، لأنها
لا تأتي بجديد وهي كذلك خالية من الطلاوة.

- ولكن الواجب يقضي عليك بأن تهتم لها فأنت چنتلمان والچنتلمان
تهمه سمعته. أنت بالطبع لا تحب أن يسط الناس ألسنتهم فيك
ويصوروك في صورة المجرم الأثم. لست أشك في أن مكانتك عالية
وثروتك ضخمة، ولكن المكانة والثروة لا تغنيان عن المرء شيئاً إن هو
ساءت سمعته. وأنا أؤكد لك أنني لا أصدّق من وشايتهم شيئاً أو على
الأقل أراني أرفض تصديقها كلما رأيتك، فالرذيلة تطبع على وجوه
الناس أثراً لا يُمحى ولا يُخفى ووجهك مثال الطهر والنقاء. أسمع الناس
يتحدّثون أحياناً عن الرذائل المستورة وفي رأيي أن الرذيلة المستورة

شيء لا وجود له فإذا ما ابتلي أحد برذيلة رأيت آثارها واضحة في خطوط فمه وفي تهذُّل جفنيه بل وفي هيئة يديه كذلك. لقد جاءني في العام الماضي رجل من معارفك لن أذكر لك اسمه يطلب إليّ أن أرسم صورته ولم أكن قد رأيته أو سمعت به من قبل ولكنني عرفت عنه الكثير بعد ذلك. وقد عرض عليّ أجرًا سخياً مسرفاً في السخاء، ولكنني رفضت لأنني شاهدت في هيئة أصابعه ما كرهت، وقد تحقّق لي الآن إنني كنت على صواب في ظنوني وعلمت أن حياته دنسة إلى حد مفرّج. أما أنت يا دوريان فلست أصدق كلمة واحدة مما يقال فيك لأن وجهك الناضر ينطق بالبراءة. ولكنني لا ألقاك إلا غرازا، وأنت لم تعد تأتي إلى الاستديو، وحين أسمع الناس يتهامون عنك بجهر القول لا أعرف ماذا أقول. ماذا جعل الدوق بيرويك ينصرف من النادي حين حللت به أنت يا دوريان؟ ما الذي حمل عدداً كبيراً من وجهاء لندن على مقاطعتك. لقد كنت صديقاً للورد ستافلي ولكنني لقيته في حفلة عشاء في الأسبوع الماضي وانتهى بنا الحديث إليك بمناسبة الصور المصغرة التي أعرتها لمعرض ددلي، فلوى ستافلي شفته امتعاضاً وقال إنك قد تكون من أصحاب الذوق الفني النادر ولكنك رجل لا يجوز لفتاة طاهرة أن تتعرّف إليه ولا يجوز لإمرأة عفة أن تجلس في مكان أنت فيه جالس. فلما نبّهته إلى أنني صديقك وطلبت إليه أن يفسّر كل شيء سرد لي عنك الأعاجيب أمام جميع الحاضرين، ويا لها من تهمة شنعاء تلك التي كالتها لك يا دوريان. قال إنك تحطّم حياة الشبان بتأثيرك السيئ فيهم. فمنهم ذلك الفتى التاعس ضابط الحرس الذي انتحر، وقد كنت من أخلص أصدقائه. ومنهم السير هنري آشتون الذي اضطر إلى الرحيل عن إنجلترا ملوئاً الشرف، وقد كنتما متلازمين. ومنهم السير أدريان سنجلتون الذي انتهت حياته نهاية فاجعة ومنهم ولد اللورد كنت الذي أضعت مستقبله. لقد قابلتُ أباه المسكين أمس في شارع سانت جيمس فرأيت الحزن والعار قد هدا بنيانه. ثم دوق بيرت؟

إن حياته الآن جحيم لا يطاق ولن يرضى أحد يحترم نفسه أن يخالطه.
عض الألم دوريان فعرض دوريان شفته وقال بصوت ينم عن الاحتقار
البالغ:

- كفى كلامًا يا بازيل! إنك تلغو عن أشياء لا تعرف عنها شيئًا. إنك
تسألني عما يحمل بيرويك على ترك النادي حين أحل أنا به، وأنا أقول
لك إنه يفعل ذلك لأنني أعرف كل شيء عن حياته لا لأنه يعرف أي
شيء عن حياتي. إن الدم الذي يجري في عروق بيرويك لهو دم الإثم
والجريمة فكيف ينتظر من مثله أن يحيا حياة صالحة! إنك تسألني عن
هنري آشتون ودوق بيرث، فهل أنا الذي لقتهما مبادئ الرذيلة؟ ثم إذا
كان ولد كنت يؤثر أن يتصيد لنفسه زوجة من الشارع، فكيف ألام أنا على
ذلك؟ وإذا كان آدريان سنجلتون يوقع على الصكوك بأسماء أصدقائه فما
أنا بالوصي عليه المسؤول عن فعالة. أنا أعرف ميل الإنجليز إلى الولوغ
في أعراض الناس. فأبناء الطبقة المتوسطة يعرضون أخلاقياتهم العتيقة
على موائدهم الخالية من الذوق ويتهايمسون عن فضائح سادتهم النبلاء
ليحسوا بأنهم داخل المجتمع الراقي لا خارجه وليوهم بعضهم بعضًا
بأنهم من أصفياء أبناء البيوتات الذين يلوّثون أعراضهم. وفي إنجلترا
يكفي أن يجتمع لك شرف المولد والذكاء معًا لكي يطلق أوساط الناس
ألسنتهم فيك غيرة وكمدًا. ثم أين هذه الحياة الفاضلة التي يحياها أولئك
الذين يتشدقون عن الفضيلة؟ أنت تنسى يا عزيزي أننا نعيش في وطن
النفاق.

فقال هولورود:

- هذا خارج عن الموضوع يا دوريان. فأنا أعرف أن إنجلترا بلد منحط
وأن المجتمع الإنجليزي مجتمع فاسد من أساسه، ولهذا أردت أن تكون
نموذجًا للكمال يحتذى، ولكنك خبيت ظني فيك. إن من حقي أن أحكم
على أي إنسان بالأثر الذي يتركه في أصدقائه، وأصدقائك قد فقدوا

إحساسهم بالشرف وقدرتهم على الخير ورغبتهم في النقاء. لقد نفثت فيهم الكلف باللذات إلى حد الجنون فهووا بذلك إلى الحضيض، وأنت الذي سقتهم إلى هذا المصير. نعم، أنت الذي سقتهم إلى هذا المصير، وها أنت تبتسم كأنك لم تأت وزرًا. وما ذكرت لك إلا القليل عن فعالك. فأنت وهاري أخوان لا يفترقان ومع ذلك فقد جعلت اسم أخته مضغّة في أفواه الناس، وقد كان يجمل بك أن ترعى للأخوة حقها.

- أحذر ما تقوله يا بازيل فقد تجاوزت حدودك.

- بل لا بد أن أقول كل شيء وعليك أن تسمع ما أقول. نعم لسوف تسمع ما أقول. إن الليدي جويندولين كانت حين قابلتها أول مرّة سيدة فضلى لا يسمها لسان بسوء فهل بقيت في لندن سيدة كريمة واحدة ترضى بأن تخرج معها للنزهة في هايد پارك؟ لقد بلغ من سوء سمعتها أن أطفالها قد نُزعوا منها. ثم هناك روايات شتى، روايات تقول بأن الناس رأوك تتسل عند الفجر خارجا من دور الفحش وتتردد مستخفياً على أقدار مباءات لندن. أصحيح هذا يا دوريان؟ بل أيجوز أن يكون ذلك صحيحًا؟ لقد كنت أضحك حين أسمع عنك هذه الأقاويل أما الآن فإني أرتجف كلما سمعتها. إن بيتك الريفي قد أضحى بيت دعارة. إنك لا تعرف ما يُقال عنك يا دوريان، وأنا لا أقول لك إني سأتجنب المواعظ، فإني أذكر أن هاري قال مرة إن هواة الوعظ يبدأون وعظهم بقولهم إنهم لا يحبون الوعظ ثم يثبت عكس ذلك. أما أنا فأعترف لك بأني أريد أن ألقى عليك موعظة لعلك تتعظ.

أسألك يا دوريان أن تحياة حياة شريفة تلزم الناس باحترامك. أسألك يا دوريان أن تتخلّى عن رفاق السوء. أسألك يا دوريان أن تغسل عن اسمك الأقدار التي علقت به وأن تكون صفحتك بيضاء ولا تتكلّف عدم الاكتراث كما تفعل الآن فإن لك تأثيرًا قويًا في أقرانك فليكن هذا التأثير تأثيرًا حميدًا لا تأثيرًا هدامًا. يقولون إنك تفسد كل ما تخالطه وإنك

ما دخلت بيتًا إلا وجررت له العار في أعقابك، ولست أدري أصحيح هذا القول أم كاذب، وآتى لي أن أعرف وأنا لا أراك إلا نادراً. يقولون عنك أشياء لها قوة الحقائق فاللورد جلوستر مثلاً، وهو صديق من أوفى أصدقائي الذين عرفتهم أيام كنت أدرس في أكسفورد، أطلعني على خطاب كتبه زوجته إليه وهي على فراش الموت بمنتون حيث تخلى عنها الجميع وفي الخطاب قرأت اسمك مقترناً بأشنع اعتراف مر بي حتى هذه اللحظة، فقلتُ له إن هذا غير معقول لأنني أعرفك معرفة تامة وأعرف أنك لا تستطيع إتيان شيء مما نُسب إليك. ولكني الآن في حيرة من أمري ومن أمرك ولم أعد واثقاً من أنني أعرفك حقاً، ولن تتبدد شكوكي إلا إذا رأيتُ روحك.

فنهض دوريان جراي من الأريكة وجلاً وشحب لونه أيما شحوب وقال:

- إلا إذا رأيتُ رُوحِي!

أجاب هولورورد في تَوَدَّة بصوت عميق يرن بالأسى:

- أجل. إلا إذا رأيتُ رُوحك. ولكن الله وحده يستطيع أن يرى رُوحك.

فارتفعت من دوريان جراي ضحكة تشوبها المرارة والسخرية معاً وحمل مصباحاً من فوق المائدة وقال:

- بل سوف تراها أنت هذه الليلة، فهيا بنا إليها فهي من صنع يديك. لست أجد ما يمنع أن تراها. وبعد رؤيتها أنت في حل من أن تصفها أمام العالم كله فلن يصدقك أحد، وإن صدَّقك الناس فسيزداد إعجابهم بي فأنا أعرف أهل هذا الجيل خيراً منك رغم أنك تتشددُّ بأحاديثك المملة عنهم. قلت هيا بنا، فقد قلت ما فيه الكفاية عن انحطاط الروح، والآن فلتر هذا الانحطاط وجهًا لوجه.

وكانت كل كلمة فاه بها تحمل معاني الكبرياء الشديد، وضرب الأرض بكعبه بطريقته الصبيانية الوقحة وشاع في نفسه فرح عظيم لأن

سره الذي أضناه كتماناه سيخرج الآن إلى النور، ولأن الرجل الذي رسم الصورة التي خلّدت عاره سوف يقضي بقية حياته شقيًا بذكر ما جنت يده.

واقترب منه وتفرّس في عينيه الثابتتين واستأنف كلامه قائلاً:

- نعم، سوف أريك روعي. سوف ترى ما لا يراه إلا الله كما تقول.

فجفل هولورود وارتدّ قليلاً وصاح به:

- هذا كفر يا دوريان! فلا تقل مثل هذه الأشياء لأنها شائنة ولأنها

خلت من كل معنى.

وضحك دوريان ثانية وقال:

- أتظن ذلك؟

- بل أعرفه. أما ما قلته لك الليلة فما كنت أبغي به إلا نفعك، فأنت

تعرف أنني كنت دائماً صديقاً لك وفيًا.

- ابتعد عني، وأتم حديثك إذا شئت.

فتقلّص وجه الرّسام كأنه طعن بمديّة وسكت لحظة ثم شاع في قلبه

إحساس عميق بالرثاء لحال دوريان جرای. وأتّب نفسه لتطفله على حياته

الخاصة، وهي ملك له وحده يفعل بها ما يشاء، وأن عذاب ضميره ليغنيه

عن كل تقريع، فلو أنه ارتكب عشر معشار ما ينسبه المرجفون إليه من آثام

لوجب أن يعيش في جحيم مقيم! واعتدل بازيل هولورود ثم سار نحو

المدفأة وأنشأ يتأمّل الخشب المحترق فيها والرماد الأبيض الذي يكسو

الجمر المتأجّج. وأخيراً قال الشاب بصوت واضح قاس:

- أنا في انتظارك يا بازيل.

والتفت بازيل إليه وقال:

- كل ما أريد أن أقوله هو هذا: أسألك أن تجيب على هذه التهم الشنيعة

التي يلصقها الناس بك. ولو أنك قلت لي إنها فرية عظمى من ألفها إلى

يائها لصدقتك. انكر هذه التهم يا دوريان، أجل، انكرها أكن سعيدًا! ألا

ترى ما أعانيه من عذاب؟ يا إلهي! لست أحتمل أن تعترف لي بأنك حقًا
ممسوح النفس، منحط الخلق، تعيش في العار.
فابتسم دوريان جراي وبدأت على في شفثيه أمارات الازدراء، وقال
في هدوء:

- تعالَ معي إلى الطابق العلوي يا بازيل، فهناك أكتب يومياتي بانتظام
ولا أسمح لأحد أن ينقلها من مكانها، فتعال معي أطلعك عليها.
- سأذهب معك إذا كان هذا يرضيك. لقد فاتني القطار ولكن هذا لا
يهم ففي استطاعتي أن أرحل غدًا إلى باريس ولا تطلب إليَّ أن أقرأ الليلة
شيئًا فكل ما أبغيه جواب صريح عن سؤال صريح.
- ستجد هذا الجواب الصريح في الطابق العلوي، أما هنا فلن أجيب
على شيء. تعال معي لتقرأ الجواب، ولن تقرأ طويلًا.

الفصل الثالث عشر

خرج دوريان جراي من الغرفة وبدأ يصعد السلم ومن ورائه بازيل هولورود. وكانت خطواتهما رقيقة فالإنسان ترق خطاه بحكم الغريزة ليلاً. وألقى المصباح ظللاً مارداً على السلم وعلى الحائط. وهبَّت نفحة من الريح هزَّت نوافذ الدار فقعقت. وحين وصلا إلى نهاية السلم وضع دوريان جراي المصباح على الأرض وأخرج من جيبه المفتاح وأداره في الباب ثم قال بصوت خفيض:

- ألا تزال تصر على جواب يا بازيل؟

- نعم.

فأجاب الفتى مبتسماً:

- هذا يدعوني إلى الاغتيال.

ثم أضاف في قليل من الخشونة:

- أنت الشخص الوحيد الذي يحق له أن يعرف عني شيئاً، فقد تركت

في حياتي أثراً لا تعرف أنت مداه.

ثم رفع المصباح وفتح الباب ودخل، فلطمه تيار من الهواء البارد

وارتفع نور المصباح برهة واشتد لهبه البرتقالي، وارتجف دوريان جراي

وهمس لصاحبه وهو يضع المصباح على المائدة.

- أقفل الباب وراءك.

ونظر هولوردد حواليه في كل صوب يتفقد الغرفة وبدت عليه الحيرة. رأى أن الغرفة لم يستعملها أحد لسنوات. ورأى على الحائط قطعة من القماش الفلمنكي عليها رسوم نسخها الزمن ورأى صورة يحجبها ستار ورأى صندوقًا إيطاليًا قديمًا وحمالة كتب تكاد أن تكون فارغة ومائدة وكرسيًا، وفيما عدا ذلك لم يرَ في الغرفة شيئًا. وعندما كان دوريان جراي يوقد شمعة فوق المدفأة نصفها مستهلك، لاحظ بازيل هولوردد أن التراب يكسو كل ما بالغرفة وأن البساط ممزق. ورأى فأرًا يجري وراء ألواح الحائط. وشم رائحة عفنة نقلتها رطوبة الهواء. قال دوريان بصوت قاس ينم عن عاطفة ميتة:

– إذا فأنت تحسب يا بازيل أن الله وحده يرى أرواح الناس. أزع هذا الستار تر روجي.

فأجاب هولوردد عابسًا:

– أنت تهذي كالمجنون يا دوريان فإن لم تكن مجنونًا فلا بد أنك تمثل دورًا لا أفهمه.

قال الشاب:

– ألا تريد أن تزيح الستار؟ إذا فسأزيحه أنا نيابة عنك.

ونزع الستار من القضيبي المعلق فيه وألقى به على الأرض.

فلما أبصر الرسام الوجه الشائه يتجهّم له من الصورة في النور الخافت صدرت منه صيحة فزع وأحس بالمقت والتقرز مما رآه. لقد كان الوجه وجه دوريان جراي حقًا، ورغم ما نزل به من مسخ وبيل بقيت له معالمه الأولى وشيء من جماله القهّار. حتى قرمز شفثيه الشهبانيتين وذهب شعره الجميل بقي منهما أثر وزرقة عينيه الساحرتين وخطوط أنفه المنحوت وجيده الوضاء بقي منها دليل على ما كان. أجل، إنه دوريان لا سواه ولكنه مسخ رجيّم. فمن يا ترى رسم هذا المسخ الرجيّم؟ إنه يرى ريشته وألوانه واضحة في الصورة، وكذلك استطاع أن يتميز الإطار فهو

واضع تصميمه وأمسك بالشمعة واقترب بها من الصورة فقرأ اسمه في ركنها الأيسر منقوشاً بحروف مديدة برتقالية لامعة.

وظن برهة أنها دعابة سمجة من مقلد بذيء أراد أن يسخر منه، فهو لم يرسم هذا الوجه الشائه قط، ومع ذلك فقد كان يعرف في قرارة نفسه أن الصورة صورته وجمد الدم في عروقه. إنها صورته! إنها صورته! فما معنى هذا؟ وكيف أصابها هذا التغير؟ والتفت إلى دوريان جراي ورمقه بعينين ذابلتين وارتجف فمه وانعقد لسانه وارتفعت يده إلى جبينه كمن يريد أن يجمع أشتات خواطره فوجد جبينه ينضح بالعرق الكثيف.

وكان الشاب متكئاً على سطح المدفأة وقد بدا على وجهه الاهتمام الكامل كأنه مستغرق في مشاهدة ممثل عظيم، فلا الحزن يملأ فؤاده ولا الفرح، بل كل ما هنالك إحساس بأنه يشاهد أمراً جليلاً، وفي عينيه ما يشبه وميض الانتصار. وخلع الزهرة من عروته وذهب يشمها أو يتظاهر بشمها.

وأخيراً صاح هولوردد قائلاً:

- ما معنى هذا؟

وكانت نبرات صوته حادة فأنكرتها أذناه.

ومزق دوريان جراي الزهرة بين أنامله وقال:

- منذ سنوات طويلة لقيتني وكنت يومئذ صبيًا، وأطريقتني وعلمتني كيف أغترّ بجمالي. وذات يوم عرّفتني بصديق من أصدقائك فشرح لي فلسفة الشباب وأتممت أنت صورة كنت ترسمها لي فعرفت منها الجمال كيف يكون. فمرت بي لحظة جنون تمنيت فيها أمنية تشبه صلاة المصلين، أمنية لا أدري حتى هذه الساعة أندم عليها أم لا.

- أنا أذكر هذه الأمنية، وهي مطبوعة في خلدي كأي سمعتها بالأمس. كلا يا دوريان، محال أن تكون الأمنية قد تحققت. إن الرطوبة تملأ الغرفة وقد دبّ التعفن في خيش اللوحة، ولا بد أن الألوان الزيتية التي

استخدمتها كانت تحوي بعض العناصر السامة. أقول لك إن هذا محال.
فمضى الشاب إلى النافذة، وأسند جبهته إلى زجاجها البارد المغطى
بالضباب وقال:

- ما هو هذا المحال؟

- ألم تقل لي إنك قد دمّرت الصورة؟

- أجل، ولكنني كنت مخطئًا، لأن الصورة قد دمّرتني.

- محال أن تكون هذه الصورة التي رسمتها.

فقال دوريان بمرارة:

- ألا تستطيع أن تتبين فيها مثلك الأعلى كما كنت تفعل في الماضي؟

- مثلي الأعلى كما تسميه.

- بل كما سمّيته أنت.

- مثلي الأعلى لم يكن فيه شرٌّ ولا عار. لقد كنت لي نموذجًا فريدًا

لكل شيء سام في الحياة، أما هذا فوجه شيطان.

- إنه صورةٌ روحي.

- رحماك أيها السيد المخلّص! أفهذا هو الصنم الذي عبدتُ! إن له

عيني شيطان.

قال دوريان في يأس قاتل:

- لقد اجتمعت في كل منّا الجنة والجحيم يا بازيل.

وانصرف هو لوورد إلى الصورة وذهب يتأملها ثم صاح قائلاً:

- الرحمة يا الله! لو أن هذا كان صحيحًا، فإن ما ظهر للناس من

حقيقتك لا يُقاس بما خفي عليهم منها.

وأمسك بالمصباح ثانية وطفق يتفحص الصورة من جديد، فوجد أن

سطحها لم يتغيّر قط وأن مخايل الدنس والإجرام تطل عليه من داخل الصورة

فعرّف أن قوة باطنية قد جعلت آثار الخطيئة تفتك بالوجه الجميل شيئًا فشيئًا،

ورأى في الصورة جيفة حية دونها الرسم التي تبلى في بطون القبور.

وارتعشت يده فسقطت الشمعة من مقبضها إلى الأرض وظلّت هناك تحترق فداستها بقدمه وأطفأها، ثم ألقى بنفسه على الكرسي المتهدم القائم بجوار المائدة ودفن وجهه في كفيه وأخذ يقول:
- الله يا غفور! ما أقسى هذا الدرس يا دوريان.

ولكن دوريان لم يجب، بل ظل ينتحب بجوار النافذة بصوت مسموع.
- صل إلى الله يا دوريان، صل إليه. ماذا تعلمنا أن نقول ونحن بعد أطفال؟ «أبانا الذي في السموات. لا تدخلنا في التجربة. اغفر لنا ذنوبنا. امسح خطايانا». فلنصل معًا يا دوريان. إن السماء قد استجابت لصلاة دوريان المستكبر وهي الآن تستجيب لصلاة دوريان المستغفر. لقد عبدتك من دون الله فنلت جزائي، ولقد عبدت نفسك من دون الله فنلت جزاءك. فلنصل معًا يا دوريان.

فالتفت دوريان جراي إليه في بطاء والدموع تنهمر من عينيه وقال:
- لقد فات الأوان يا بازيل.

- كلا يا دوريان، إن باب السماء مفتوح للطارقين. فلنسجد ولنحاول أن نرتجل صلاة إذا كنا نسينا الصلوات. ألا تذكر ترنيمة تقول: «خطاياك حمراء بلون الدماء ولكني سأجعلها بيضاء بلون الثلوج؟»
- هذه الكلمات لم تعد عندي ذات مغزى.

- صمّتا! لا تكفر، وكفاك ما ارتكبت في حياتك من آثام. رباه! ألا ترى ذلك الوحش اللعين ينظر إلينا في شماتة.

والتفت دوريان جراي إلى الصورة وفجأة تحرّكت في صدره كراهية لبازيل هولورود قوية لا سبيل إلى كبتها، وكأنما استوحاها من مرأى صورته على اللوحة، أو همست بها في أذنه تلكما الشفتان الحاقدتان، وتحرك فيه إحساس كإحساس الحيوان المطارد، واضطرب في قلبه بغض جهنمي للرجل الجالس بجوار المائدة، بغض لم يحمله لأحد قبل. وتلفت حوله مهتاجًا فرأى شيئًا يلعب فوق الصندوق المدهون القائم

قبالته، ولما استقر بصره عليه عرفه، فإذا به مدية كان قد جاء بها من قبل ليقطع بها حبلاً ثم نسيها في موضعها، وتقدم منها على مهل وهولوورد جالس في منتصف الطريق، فلما وجد نفسه خلف هولوورد أمسك بالمدية ودب إليه، وأبصر به يتململ في كرسيه كأنه يريد أن ينهض، فانقض عليه وغرس المدية في عنقه فمزق الوريد الجاري تحت الأذن، وتحامل على رأسه حتى ارتطمت بالمائدة، وانهال عليه طعناً.

وصعدت في الغرفة آتة مكتومة ثم صوت رجل يخنتق بدمه. وارتفع ذراعاً الرجل ثلاث مرات بقوة عصبية وتحركت أصابعه الجامدة في الهواء فطعنه مثنى، فكف عن الحراك، وبدأ يسمع قطرات الدم تتساقط على أرض الغرفة. وانتظر لحظات ضاعطاً بيده على رأس فريسته ثم ألقى المدية على المائدة وأرهف أذنيه.

لكنه لم يسمع شيئاً إلا صوت القطرات المتساقطة على البساط. ففتح الباب وخرج إلى أعلى السلم، فوجد البيت ساكناً كأنه قبر موحش، ولم يكن به أحد. ومرّت ثوانٍ ظل أثناءها يحملق في بئر الظلمات متكئاً على مسند السلم. ثم استخرج المفتاح من جيبه وعاد إلى الغرفة وأغلق الباب وأحدب الظهر ووجد الجثة لا تزال جالسة على المقعد وقد انكفأ منها الرأس على المائدة وتهدل الذراعان الطويلان. ولولا فتحة حمراء غير منتظمة في العنق وبركة من الدم المتجمّد على المائدة تتسع قليلاً قليلاً لبدا الرجل وكأنه يستغرق في نوم عميق.

لقد تمت الجريمة في دقائق، وأحسّ بهدوء عجيب ومضى إلى النافذة وفتحها وخرج منها إلى الشرفة. وكانت الريح قد اكتسحت ضباب الليل فبدت السماء صافية كذليل طاووس هائل عجيب مزدانة بألف ألف عين ذهبية وأطل في الشارع فوجد الشرطي يعسّ في تطوافه ويسلط نور مصباحه على أبواب المنازل الهادئة. وفي منعطف الشارع رأى عربة ذات ضجيج لمعت في الظلام كالبقعة القرمزية ثم توارت عن بصره.

كذلك رأى امرأة على رأسها شال يرفرف في الهواء تمشي الهوينا بجوار أسوار المنازل وكأنها ترنح، وبين وقت وآخر تتوقّف عن المسير وتلتفت إلى الوراء. وسمعتها تبدأ الغناء بصوت قبيح أجش وأبصر الشرطي يتقدّم نحوها ويقول شيئاً ثم رآها تتعثر بعيداً عنه وتفهقه. وهبّت في الميدان ريح صرصر باردة فاضطربت مصابيح الشارع وأضحت زرقاء اللهب واهتزت فروع الأشجار الجرداء وبدت كقضبان الحديد الأسود. وارتجف دوربان جراي وعاد من حيث جاء وأغلق النافذة وراءه.

بلغ الباب، وأدار فيه المفتاح وفتحه. ولم يلقِ على القليل نظرة لأنه وجد أن من الخير له ألا يفهم الموقف على حقيقته. واكتفى من كل ذلك بأن الصديق الذي رسم الصورة التي هدمت سعادته قد خرج من حياته نهائياً.

ثم تذكّر المصباح، وعنّ له أن الخادم قد يفتقده فيبحث عنه فهو مصباح مراكشي ثمين صنع من فضة غبشاء اللون مطعّمة بنقوش عربية صنعت من الفولاذ اللامع ومرصّعة بقطع الفيروز الخشنة. وتردّد لحظة ثم عاد وأخذه من المائدة، وفيما هو يفعل ذلك وقع بصره على الجثة على الرغم منه. يا لهدوء الموتى! ثم تلكما اليدان الطويلتان البيضاوان ما كان أظفح شحوبهما! ما أشبه الجثة بتمثال من الشمع!

وبعد أن أغلق الباب وراءه نزل على السلم في احتراس ولكن الدرج الخشبي قعقع تحت قدميه فهبّ له أن يستغيث. وتوقّف مراراً عن السير وانتظر فلم يسمع شيئاً. كان كل شيء هادئاً ولم يسمع إلا وقع قدميه.

وحين دخل المكتبة رأى المعطف والحقيبة قابعين في ركنها. ولم يكن بد من إخفائهما ففتح كوة يسترها خشب الحائط، كوة كان يضع فيها أدوات تخفيّه ولا يعلم عنها أحد شيئاً، وفي الكوة وضع المعطف والحقيبة، حتى يجد متسعاً من الوقت ليوقد فيها ناراً. ثم أخرج ساعته فإذا بها الثانية إلا ثلثاً.

ارتاح على مقعد وبدأ يفكر. المشنقة! نعم، المشنقة! ففي كل عام بل في كل شهر من شهور السنة يُسُنق في إنجلترا أناس لأنهم فعلوا فعلته. إن الجريمة تملأ جو إنجلترا، فلعل نجمًا أحمر اقترب من مسار الأرض فألهب في الناس الشهوة إلى الدماء. ومع ذلك فمم يخاف؟ أي دليل هنالك ضده؟ إن بازيل هولوردد خرج من دار دوريان جراي في الساعة الحادية عشرة، ولم يره أحد حين عاد إليه. فأغلب الخدم في سلبى وخادمه الخاص يغط في فراشه. ألم يقل بازيل إنه قاصد إلى باريس؟ نعم. إن بازيل قد رحل إلى باريس بقطار منتصف الليل، تمامًا كما أزمع أن يفعل. إن بازيل رجل غريب الأطوار لا يطلع أحدًا على كثير من شؤونه، فلن تستيقظ الشكوك قبل أن تمضي شهور. وقبل أن تمضي شهور لن يصعب عليه محو كل دليل.

ثم بلغت في خاطره فكرة فارتدى قبعته ومعطفه الذي تكسوه الفراء وانتقل إلى القاعة. وفي القاعة وقف حين سمع خطوات الشرطي الثقيلة البطيئة وهو يسير على إفريز الشارع ورأى شعاع مصباحه معكوسًا على زجاج النافذة فانتظر معلق الأنفاس.

وبعد لحظات أراح المزلاج وخرج وأغلق الباب في رفق شديد. ثم شرع بدق الجرس، وبعد خمس دقائق فتح له الباب خادمه الخاص نعان ناقص الملابس وقال وهو يدخل البيت:

- يؤسفني أنني أيقظتك من نومك يا فرانسيس، ولكنني نسيت المفتاح. كم الساعة الآن يا ترى؟

فنظر الرجل إلى ساعة الحائط مختلج الجفنين وقال:

- الساعة الثانية وعشر دقائق يا سيدي.

- الثانية وعشر دقائق! لقد تأخرت جدًّا ولا بد أن توقظني غدًا في الساعة التاسعة لأن لدي بعض الأعمال.

- حسنًا يا سيدي.

- أجاأني أأء هءه الليلة؟

- نعم يا سيءي آاءك مسءر هو لوورء وانءظرك هنا ءءى بلعء الساعء
الءاءية عسرة ءم انصرف ليلءق بقطاره.

- يؤسفني أنني لم أره. وهل ءملك رسالة إلي؟

- كلا يا سيءي، لم يقل إلا أنه سيءءب إليك من باريس إن لم يآءك
في الءاءي.

- شكراً يا فرانسيس، ولا ءنس أن ءوقظني غءاً في الساعء الءاسعة.

- لن أنسى يا سيءي.

ومشى الرجل مءاقلاً في الءهليز يآر ءفيه آراً.

ووضع ءوريان آراي قبءه ومعطفه على المائءة وءءل المكءبة.
وظل يقطع أرض العرفة آيئة وءهاباً ءورب ساعء، يفكر في أمره
ويعض شفته بين لءظة وأءرى. ءم ءناول «الءليل العام» من أءء الرفوف
وبءأ يقلب صفءاءه باءئاً عن عنوان. وأءيراً وآءه «ألان كامبل 152
شارع هرءفورء، ما يفير». نعم هءا هو الرجل المنشوء.

الفصل الرابع عشر

في الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي دخل عليه خادمه حاملاً صينية عليها فنجان من الكاكاو وفتح النافذة. وكان دوريان نائماً على جانبه الأيمن يغمره هدوء الملائكة وقد طوى يده تحت خده فبدأ كصبي أنهكه طول الدرس أو طول اللعب.

واضطر الخادم إلى أن يمسه على كتفه برفق ليوقظه، وحين فتح عينيه ارتسمت على شفثيه ابتسامة خفيفة وكأنه يستمتع بحلم لذيذ ولكنه لم يحلم بشيء أثناء نومه بل قضى ليلة صافية لم تعكرها أطياف السبات جميلها أو رهيبها. إنما يتسم الشباب بغير داع، وهذه آية من آيات سحره. وتقلب في فراشه ثم اتكأ على مرفقه وشرع يشرب فنجان الكاكاو وشمس نوفاً تدفقت أشعتها الرقيقة في الغرفة، والسما كانت ضحواً وفي الجو دفء لذيذ، والبشر يملأ الآفاق فيعيد ذكرى الربيع.

ثم عادت إلى ذاكرته حوادث الليلة الماضية شيئاً فشيئاً، ومشت في خاطره بأقدام خضبتها الدماء لا يُسمع لها حفيف، فاسترجع كل ما جرى في وضوح مخيف وعبس حين ذكر ما مرَّ به من شقاء في الليلة السابقة وعاد إليه ذلك البغض الشديد نحو بازيل هولورود، ذلك البغض الذي دفعه إلى الفتك به وهو جالس على المقعد، فشحب لونه من فرط الانفعال. فالرجل لا يزال جالساً على المقعد بأعلى الدار بل وفي وضوح

النهار، وقد كان خليقًا به أن يحتجب في رداء الظلمات، فما أبشع هذه الحقيقة.

وأحسَّ بأن التفكير المتصل في ما جرى لا بد متلف صحته أو مودٍ بعقله. لقد ذلَّه اختباراه على أن من الجرائم ما ترتاح النفس لذكراه أكثر مما ترتاح لإتيانه، ويرضي الغرور أكثر مما يرضي الشهوات، ويسعد به العقل أكثر مما تسعد به الحواس. ولكن هذه الجريمة لم تكن من تلك الجرائم. هذه الجريمة كابوس لا مناص من إبعاده عن مسكن الذكريات، هذه الجريمة شبح مزعج قائم لا بد أن ينام نومًا أكيدًا أو يُخنق بحبل النسيان وإلا خنق صاحبه.

ودقت الساعة التاسعة والنصف ومرَّ بأصابعه على جبينه ثم نهض مسرعًا وارتدى ملابسه بعناية فائقة تجاوزت كل ما عُهد فيه من عناية، وأضاع الوقت الطويل في اختيار ربطة عنقه والدبوس الذي يحلِّي به صدره، وبدلَّ خواتمه مرارًا. ثم تناول فطوره وقضى في ذلك الوقت الطويل متذوِّقًا الصحف، متحدِّثًا إلى خادمه في إطناب عن حُلل الخدم الجديدة التي كان يفكر في شرائها لخدمته في سلبه، قارئًا رسائل اليوم آنا في ضجر وآنا في متعة. وكانت بينها رسالة تلاها جملة مرات ثم مزَّقها في شيء من الغيظ وهو يردد كلمة اللورد هنري «يا للرجل من ذاكرة المرأة!».

وبعد أن شرب فنجانًا من القهوة التركية مسح شفثيه في الفوطة بتؤدة وأشار إلى خادمه بالانتظار ثم تحوَّل إلى مكتبه وسَطَّر خطابين وضع أحدهما في جيبه وسلم الآخر للخادم قائلاً:

- احمل هذا الخطاب إلى 152 شارع هرتفورد يا فرانسيس، فإن وجدت أن مستر كامبل قد غادر لندن فاحصل على عنوانه.

وانصرف الخادم فبقي في الغرفة وحيدًا، وأشعل سيجارة وذهب يخطِّط الرسوم على قطعة من الورق فبدأ أولًا برسم الأزهار ثم انتقل إلى

رسم قطاعات من العمائر ثم انتقل إلى رسم الوجوه الأدمية. وفجأة لاحظ أن كل وجه يخططه على الورق يحمل شيئاً قويا لملامح بازيل هولورود، فتجهم وجهه ونهض من مكانه وسعى إلى حمالة الكتب وانتزع منها كتاباً على غير تحديد. لقد كان صادق العزم على أن ينسى ما حدث حتى تلزمه الضرورة القصوى بتذكره ولما تمدد على الأريكة نظر إلى عنوان الكتاب فإذا به كتاب تيوفيل جوتيه «إمو وكاميه» في طبعة شربانتييه على ورق ياباني وعليه رسوم چاكمار، وكانت جلدة الكتاب خضراء ليمونية عليها تصميم من خطوط ذهبية متقاطعة ورمان منقوط، وكان الكتاب هدية أهداها إليه أدريان سنجلتون. وفيما هو يقلب صفحاته وقعت عينه على القصيدة التي تصف يد لاسنير، تلك اليد الباردة الشاحبة «ذات الآلام التي لم تغسل بعد»، ذات الشعر الأحمر الناعم كالرياش و«أصابع الوحوش» ونظر إلى أصابعه الدقيقة البيضاء فارتجف بالرغم منه، وما زال يطالع حتى بلغ هذه الفقرات الجميلة التي تصف مدينة البندقية.

«خرجت زهراء الأدرياتيك من الماء بيضاء الجسد وردية ومن ثديها تساقط الدر على بساط تدرجت فيه الألوان تدرج الأنغام في السلم الموسيقي».

«والقباب ارتفعت كصدر حسناء ناهد تنتهد حسرة على غرامها، ارتفعت القباب على الأمواج اللازوردية التي تترجرج في لين كأنها بيت شعر بديع التكوين».

«ورسابي الجندول وشده الملاح بالحبل إلى العمود فوجدت نفسي على الدرج الرخامي أمام واجهة قصر وردي».

واضطربت نفسه لجمال هذه السطور. وأحس وهو يقرؤها أنه طاف على وجه المياه الخضراء في قنوات تلك المدينة الدرية الوردية يحمله جندول أسود ذو مقدمة فضية وأستار ترفرف في مهب النسيم. وترجرجت أمام عينيه السطور ذاتها فبدت له كالأموج الفيروزية الزرقاء

التي تتسلسل وراءه حين يسبح في جندوله إلى قصر الليدو. والألوان فيها تلمع أمام ناظريه فتذكره ببريق الطيور ذات الرقاب الصفراء التي ترفرف بالقرب من برج الكامبانيل العالي الذي يشبه خلايا النحل، أو تخطر في خيلاء تطرب لها النفوس في الشوارع المظلمة التي حط عليها غبار القرون. وكان يغوص في مكانه من الأريكة ويرخي جفنيه ويردّد قول الشاعر:

على الدرج الرخامي أمام واجهة قصر وردي

فترسم أمامه صورة البندقية في هذين البيتين. وتذكر الخريف الذي قضاه في تلك المدينة والغرام الجميل الذي ذاقه في مغايبها فدفعه إلى ارتكاب الحماقات اللذيذة التي لا يقدم عليها إلا المجانين. لقد قرأ في كل حجر من أحجار المدينة قصة وكل ما فيها أثار خياله، ولكن البندقية كأكسفورد تحفظ الأحلام للباحثين عن الأحلام، وأهل الأحلام يعيشون على الحلم المستور وللحلم المستور. لقد رافقه بازيل شطراً من الرحلة وفتنه جمال تنويريت. فياله من رجل تاعس وبالميتته من ميتة شنعاء!

وتنهّد وفتح الكتاب مرة أخرى والتمس النسيان في المطالعة. وفي الكتاب قرأ عن مقهى صغير بأزمير فيه طيور تخرج منه وتدخل فيه في غير حرج والحجاج جالسون يعدون أسماء الله الحسنى على مسابحهم، والتجار ذوو العمائم يدخنون الشيثة ويتحدثون في وقار وقرأ عن المسلة القائمة بميدان الكونكورديباريس وهي تبكي بدموع من الجرانيت تندب وحدثها في منفاها الدائم الغيوم وتحن إلى ضفاف النيل القائظ الذي غطته أزهار اللوتس، حيث تماثيل أبي الهول وعجول آيس الحمراء والنسور البيضاء ذات المخالب الذهبية والتماسيح ذات العيون الصغيرة الزبرجدية التي تزحف فوق الطين الأخضر المتبخّر. وطفق يفكر في قريض جوتيه الذي شبّه فيه الشاعر تماثلاً من التماثيل رآه بقاعة

في متحف اللوفر بالصوت الكونترالتو⁽¹⁾ واستوحى رخامه الذي لطخته القبل. ولكن الكتاب سقط من يده أخيراً وبدأ يتَمَلَّم تَمَلُّم من فقد السيطرة على أعصابه ثم غمره إحساس بالفزع الشديد. ترى ماذا يكون مصيره لو أن آلان كامبل كان خارج إنجلترا؟ ستمضي إذا الأيام الطوال قبل أن يتمكن من العودة إليها. ثم أليس من الجائز أن يرفض الرجوع؟ ماذا تراه يفعل لو أن آلان كامبل رفض أن يستجيب لدعوته؟ إن كل ثانية تمر تدق في سمعه كناقوس القدر. إن آلان كامبل كان حقاً صديقه الأوفى الذي لازمه منذ خمس سنوات ثم فترت الصلة بينهما فجأة. وهما الآن يلتقيان في الأندية والحفلات فلا يتبادلان الحديث. حقاً أن دوريان يحييه بابتسامة كلما رآه ولكن آلان كامبل لا يرد له تحيته.

كان آلان كامبل شاباً ذكي الفؤاد ولكنه خلا من كل إحساس بجمال الفنون التصويرية والقليل الذي اكتسبه من تذوق الشعر جاءه من دوريان جراي لا من سواه. أما فضوله العقلي فكان يتجه نحو العلم، وقد قضى الشطر الأكبر من وقته أيام الطلب في كامبريدج في المعمل ونجح بامتياز في التاريخ الطبيعي. ولكن ميله الشديد إلى الكيمياء لم ينته بانتهاء فترة الدراسة بل لازمه بعد ذلك فأنشأ معملاً خاصاً به في لندن كان ينقطع فيه للبحث طول النهار مما أحرق أمه عليه، فقد كانت تأمل أن يتقدم لعضوية البرلمان وتخجل من اهتمام ولدها بالكيمياء لظنها أن الكيميائي رجل يركب الأدوية التي يوصي بها الأطباء. كذلك كان آلان كامبل عازفاً من أمهر العازفين يتقن اللعب على البيانو والكمان على حد سواء وبيز في ذلك أكثر الهواة. ولقد كانت الموسيقى في الواقع هي التي ألقت بينه وبين دوريان جراي، وبالطبع كان لشخصية دوريان المغناطيسية أثر

(1) في الموسيقى الكلاسيكية، صوت نسائي يقع بين التينور والميزو-سوبرانو. يسمّى أحياناً (ألتو).

كبير في توطيد أركان هذه الصداقة. وكان لقاؤهما الأول في دار الليدي بيركشاير ليلة كان روبنشتاين يعزف في صالونها ثم باتا يترددان على دار الأوبرا معًا في كل مناسبة ويقصدان كل محفل تلتبس فيه الموسيقى الحية، ودامت صلتها القوية هذه ثمانية عشر شهرًا كان كامبل إبانها يتردد بلا انقطاع على ميدان جروفنور حين يكون دوريان في لندن وعلى قصر سلبي حين يكون دوريان في الريف. أما شغف كامبل بدوريان جراي فقد كان عظيمًا لأنه كان يرى فيه النموذج الحي لكل ما هو جميل في الحياة، شأنه في ذلك شأن أنداده من الشبان. ثم لاحظ الناس فجأة أنها يلتقيان فلا يتبادلان الحديث إلا نادرًا، كما لاحظوا أن كامبل يعتمد التبكير في الانصراف كلما وجد نفسه مع دوريان جراي في حفل واحد. ولم يعرف أحد سر هذه القطيعة. كذلك انتاب كامبل تغير يلفت الأنظار، فقد فقد الكثير من مرحه وبتات يتململ كلما سمع الموسيقى كأنه لا يستسيغها ويرفض أن يعزف كلما طُلب إليه ذلك، معتذرًا بأن أبحاثه في المعمل قد شغلته عن مواصلة المران، وقد كان صادقًا في ما يقول. واشتد اهتمامه بعلم الحياة يومًا بعد يوم حتى لقد ظهر اسمه في أكثر من مناسبة في بعض الدوريات العلمية مقترنًا ببعض التجارب العجيبة التي كان يجريها.

هذا هو آلان كامبل الذي كان دوريان جراي ينتظر قدومه. وكان دوريان يرفع بصره إلى ساعة الحائط كل ثانية. ولما طال انتظاره ازداد جزعه، وأخيرًا نهض وذهب يقطع أرض الغرفة جيئة وذهابًا، كأنه حيوان جميل أسير. واتسعت خطواته ولم يعد لها ديب وبردت يده إلى درجة غير مألوفة.

وأصبح الانتظار لا يُطاق. وبداه أن الزمن يزحف بأقدام من رصاص ثقيل وأحس بأن ريحًا هوجاء تدفع به إلى حافة هاوية مظلمة. وكأنه يعرف ما ينتظره في قاع الهوة من دمار أكيد، بل لقد رأى الدمار رؤية العين فاضطرب اضطرابًا عظيمًا وضغط بكلتا يديه على عينيه في غير

إشفاق كأنه يريد أن يمحو منهما الرؤيا. ولكن عبثًا كان ما حاول، فالرؤيا في عقله جاثمة وخياله المريض الذي نهشته الألام تراقصت فيه الأشباح كأنها الدمى الممسوخة، وراحت تكايدته من وراء أقنعتها الشيطانية. وفجأة أحس بأن الزمن يقف. أجل. أحس بأن هذا المخلوق الأعمى بطيء الأنفاس يكف عن الزحف. لقد مات الزمن، وبموته تسابقت في عقل دوريان جراي الأفكار وأخرجت له صورة مروعة للمستقبل كانت من قبل مستورة وراء الحجب، وعرضتها أمام عينيه عرضًا، وحملق فيها فجمد كأنه كتلة من صوان.

ولكن الباب انفتح أخيرًا، ودخل منه خادمه، فنظر إليه نظرة جامدة لا حياة فيها قال الخادم:

- مستر كامبل يا سيدي.

فتنفس دوريان في ارتياح وعاد الدم إلى شفثيه الياستين وإلى خده الشاحب. قال:

- أدخله حاليًا يا فرانسيس.

وعاد إليه هدوءه الأول وزال عنه الجزع.

وانحنى الرجل وانسحب وبعد لحظات دخل آلان كامبل عابسًا عليه اصفرار، وقد زاد شعره الفاحم وحاجباه الناعمان من شحوب لونه. قال كامبل:

- لقد كان عزمي ألا أدخل بيتك مرة أخرى يا جراي، ولكنك تقول إنها مسألة حياة أو موت.

وكان صوته جافًا ينم عن الاحتقار، وجاءت كلماته بطيئة خرجت في روية. وألقى على دوريان نظرة فاحصة ثابتة فيها زراية. وظلت يده مدفونتين في جيبيه، كأنه لم ير الإشارة التي حياه بها رب الدار.

- نعم يا آلان، إنها مسألة حياة أو موت وهي كذلك بالنسبة لأكثر من شخص واحد. هلاً جلست.

وجلس كامبل على مقعد بالقرب من المائدة وجلس دوريان قبالة.
والتقت عيونهما. فقرأ كامبل في عيني دوريان معاني الألم الصادق، فقد
كان يعلم أنه مقدم على فعلة رهيبة.

ومرت لحظة من الصمت الثقيل، وأخيرًا مال دوريان نحو كامبل وقال
في هدوء بالغ متبعمًا أثر كلماته:

- اسمع يا آلان، في غرفة بأعلى هذا البيت مغلقة لا يدخلها أحد إلا
أنا جثة رجل ميت جالسة على مقعد. وقد مات الرجل منذ عشر ساعات.
الزم مكانك يا آلان ولا تنظر إليَّ هذه النظرة. أما هوية هذا الرجل ولم
مات وكيف مات فأمر لا شأن لك بها. وكل ما عليك أن تفعله هو أن...
- هذا يكفي يا جراي، فلست أريد أن أعرف بقية قصتك، وسواء أكان
ما قلته صحيحًا أم كاذبًا فهو لا يهمني. فأنا أبغض أن يكون لي بك شأن،
ولتحتفظ بأسرارك الجهنمية لنفسك فهي لم تعد تهمني الآن.

- بل هي تهملك يا آلان، وهذا السر بالذات يخصك. إنني لأرثي
لحالك ولكن لا بد مما ليس منه بد، فأنت الشخص الوحيد الذي يستطيع
أن ينقذني وهذا يلزمني بأن أشركك معي في هذا الأمر، ولا اختيار لي في
ذلك. فأنت تدرس العلوم يا آلان وتعرف الكيمياء والأحماض وما شاكل
ذلك، وقد أجريت التجارب المختلفة. وكل ما عليك أن تفعله هو أن
تفني الجثة الموجودة بالطابق العلوي إثناء حتى لا يتبقى منها أثر. وليس
هناك من رأى هذا الشخص يدخل بيتي، بل إن الناس يعتقدون أنه في
باريس في هذه اللحظة، فلن يبحث أحد عنه إلا بعد أن تنقضي شهر،
وحين يبدأ البحث عنه يجب ألا يكون في هذا البيت أثر من آثاره. ولا بد
أن تحيله يا آلان إلى قبضة من رماد أذروها في الهواء، وتحيل معه متاعه
كذلك.

- أنت مجنون يا دوريان.

- لقد كنت أنتظر اللحظة التي تسميني فيها دوريان.

- أنت مجنون لأنك حسبت أنني أتحرّك لأنفذك من ورطتك، وأنت مجنون لأنك أدليت بهذا الاعتراف الشائن. أنا لا دخل لي بهذه المسألة أيًا كانت ظروفها. أو تحسب أنني سأجازف بسمعتي من أجلك؟ ماذا يهمني من أعمالك الشيطانية؟

- إن الرجل قد انتحر يا آلان.

- هذا يخفف من المسألة. ولكن من ذا الذي دفعه إلى الانتحار؟ أنت بكل تأكيد.

- ألا تزال مصرًا على الرفض؟

- بالطبع. أنا لا شأن لي بشيء من هذا القبيل، ولن يثير اشفاقي أن تجر على نفسك كل ما في العالم من عار، فأنت أهل لذلك. لن يؤسفني أن يفتضح أمرك أمام جميع الناس فتسقط في نظر المجتمع. كيف تجسر على أن تسألني أن أقحم بنفسي في هذه الجريمة الشنعاء، وأنا آخر من يحق لك أن تطلب العون منه بعد ما أنزلت بي من خراب لقد كنت أحسب أنك تعلم ما يكفي عن طبائع الناس، ولعل صديقك اللورد هنري وتون علمك شيئًا كثيرًا ولكنه لم يعلمك بسائط النفس الإنسانية في ما علمك. كلا. لن يحركني شيء لإنقاذك من محتتك. فابحث عن غيري لأنك قد أسأت الاختيار دعني وشأني وابحث عن صديق من أصدقائك.

- إن الرجل مات مقتولًا يا آلان. قتلته أنا بيدي، قتلته لِمَا أنزل بي من شقاء، فهو الذي شكّل لي كياني وأفسد عليّ حياتي. إن أثر هاري المسكين فيّ لا يُقاس بأثر هذا الرجل. ولعله لم يقصد سوءًا، ولكن النتيجة كانت واحدة.

- أنت قتلته! يا إلهي! أهذا ما صرت إليه يا دوريان؟ لن أبلغ أمرك إلى الشرطة فليس هذا من شأني. وهم لا شك قابضون عليك إذا لم أساعدك أنا، فما من أحد ارتكب جريمة إلا وارتكب معها حماقة تدل عليها. ولكن هذا لا يعنيني.

- بل هو يعينك يا آلان. لحظة واحدة يا آلان. انتظر. اسمع ما أقول ثم احكم بنفسك كل ما أسألك أن تفعله هو أن تجري تجربة من تجاربك العلمية. أنت تعمل في المستشفيات وفي حجرات التشريح فلا يؤثر فيك ما تفعله من تقطيع وعبث بجثث الموتى. ولو أنك وجدت هذا الرجل طريقًا على مائدة في معمل أو في حجرة من حجرات التشريح المقبضة، وفي المائدة أحواض حفرت ليسيل فيها دمه الجاري لنظرت إلى هذا الرجل نظرك إلى موضوع لذيذ للتجربة، فلا تضطرب نفسك ولا يجول بخاطرك أنك تأتي أمرًا تلام عليه. بل على العكس من ذلك قد تشعر بأنك تسدي إلى النوع الإنساني خدمة جلّى أو أنك تضيف إلى التراث العلمي الذي يحرص عليه البشر كل هذا الحرص أو أنك ترضي فضولك العقلي أو أي شيء يدخل في حكم ذلك. وكل ما أطلبه إليك هو أن تقوم بهذا الذي تقوم به كل يوم. بل إن إفناء جثة لا يقاس في بشاعته بما ألفتة من أعمال. واذكر أن وجود هذه الجثة هو الدليل الوحيد على إني قاتل هذا الرجل فإذا افتضح أمرها هلكت، وأمرها لا شك مفتضح إلا أن تساعدني يا آلان.

- ولكنك تنسى أنني لا أرغب في مساعدتك. وأنا لا أكثرث بك أو بقصتك أو بمصيرك، ولا علاقة لي أصلاً بهذا الموضوع.

- أضرع إليك يا آلان أن تساعدني. فكّر في حرج مركزي. لقد كاد أن يصيبني إغماء من فرط هلعي قبل مجيئك بدقائق. ولقد تعرف معنى الهلع في يوم من الأيام لو أصابك بعض ما أصابني. ولكن دعنا من هذه الأفكار السوداء. دعنا من الهلع. ولتفكر في الأمر تفكيرك في تجربة علمية لا غير. وأنت لا تستقصي عن الأموات الذين تجري تجاربك عليهم، فلا تستقصي الآن عن هذا الميت. لقد بحث لك بما كان لا ينبغي أن أبوح به. ولكنني أضرع إليك أن تنقذني. وتذكّر يا آلان أننا كنا في الماضي صديقين.

- لا تذكر تلك الأيام يا دوريان، فلقد ماتت.

- إن بعض الموتى باقون. فالرجل الميت بأعلى البيت باقٍ. وهو جالس بجوار المائدة محني الرأس ممدود الذراعين. أستحلفك يا آلان أن تساعدني، فلو لم تساعدني لكنت في ذلك نهايتي. المشنقة يا آلان. ألا تفهم؟ سوف أشنق جزء ما فعلت.

- لست أرى ما يدعو لإطالة هذا المشهد فلنقصر القول. أنا أرفض رفضًا باتًا أن تكون لي صلة بهذه المسألة، وقد كان خبلاً منك أن تطلب هذا مني.

- أترفض.

- نعم.

- أضرع إليك يا آلان.

- لا تتعب نفسك.

وعادت إلى عيني دوريان جراي معاني الألم العميق، ومد يده وتناول قطعة من الورق وخط عليها بعض الكلمات ثم قرأها مرتين وطواها بعناية وأزاحها على المائدة حتى استقرت أمام آلان كامبل. ونهض من مكانه وسار إلى النافذة.

وأخذ كامبل يتأمله عاجبًا ثم تناول الورقة وقرأ ما فيها فشحب وجهه حتى أضحى يحاكي وجوه الأموات وتخاذل في مقعده، وأحس بدوار شديد وسمع قلبه يدق عنيقًا عاليًا كأنه يدق في صندوق فارغ. ومَرَّت دقائق من الصمت المروِّع ثم التفت إليه دوريان ومشى نحوه ووقف خلفه ووضع يده على كتفه وقال:

- يؤسفني أن أفعل ذلك يا آلان، ولكنك لم تترك لي فرصة للاختيار وها هو خطاب قد كتبه فعلاً وتستطيع أن تقرأ عنوانه بنفسك. فإذا أنت لم تساعدني وجدنتي مضطراً إلى إرساله، وأنت أدري الناس بنتيجته. ولكنك ستساعدني، فمحال أن ترفض ذلك الآن. لقد كنت أود أن أعفك

من كل ذلك ولكنك ألزمتني به إلزامًا، ومن الانصاف أن تشهد لي بذلك، وكنت أنت معي عنيدًا خشنًا جارحًا في القول، وما عاملني أحد قط معاملة إياي، على الأقل ممن لا يزالون أحياء يرزقون، فاحتملت كل ذلك على مضض. والآن جاء دوري لأملي عليك شروطي.

فدفن كامبل وجهه في كفيه وارتجف.

- نعم يا آلان. الآن جاء دوري لأملي عليك شروطي، وأنت تعرف هذه الشروط، والأمر ليس فيه تعقيد. تشجع ولا تقتل نفسك بالحسرات فلا محيد عمًا أنت قادم عليه، فاقدم عليه دون تفكير.

وصعدت من صدر كامبل آنة وأهتز من قمة رأسه إلى أخمص قدميه. وسمع الساعة القائمة على سطح المدفأة تدق. فبدا له أن دقائقها تقسم الزمن إلى جزئيات من العذاب الذي لا سبيل إلى احتماله. وأحس كأنما حلقة حديدية قد احتوت رأسه وأخذت تضيق تدريجيًا، وهُيئ له أن الفضيحة التي يهدده دوريان جراي بها قد نزلت به فعلًا. أما اليد التي ارتاحت على كتفه فقد خال أنها يد من الرصاص تهبط⁽¹⁾ كاهله وتوشك أن تسحقه سحقًا.

- والآن يا آلان، لا بد أن تصل إلى قرار سريع.

فأجاب كامبل بصورة آلية كأن الكلام يغير الحقائق:

- لا أستطيع أن أفعل ما تطلبه مني.

- بل لا بد أن تفعله، ولا خيار لك في ذلك. احزم أمرك ولا تضع الوقت.

فتردد كامبل لحظة ثم قال:

- أفي الغرفة العليا نار؟

- نعم، فيها مدفأة بغاز الاستصباح والأسبستوس.

(1) تُثقل.

- سأذهب إذا إلى المعمل لإحضار بعض الأدوات التي تلزم للعملية.
- كلا يا آلان لن تبرح هذا المكان، فاكتب ما يلزمك من أشياء على ورقة، وسيذهب خادمي في عربة لإحضارها.

فكتب كامبل كلمة إلى مساعده وجفّف الحبر، وتناول دوريان الرسالة وقرأها بامعان، ثم دق الجرس وناول الورقة لخادمه الخاص وسأله ألا يضع وقتاً في إحضار محتويات الرسالة.

وما إن خرج الخادم وأقفل الباب وراءه حتى نهض كامبل في سرعة عصبية ومشى إلى المدفأة وكانت فرائضه ترتعد كأنه محموم. ومرت عشرون دقيقة كان الصمت فيها كاملاً لم تقطعه كلمة واحدة، وطنت في الغرفة ذبابة تسبح في كل مكان، وارتفعت دقات الساعات فخالها الرجلان ضربات مطرقة.

ودقّت الساعة الواحد. والتفت كامبل إلى دوريان جراي فوجد الدموع تنهمر من عينيه. وتأمّل وجهه الرقيق الحزين فوجد في رقته وحزنه ما أغضبه. قال كامبل:

- أنت مخلوق منحط، ما في ذلك شك.

فأجاب دوريان:

- صمتاً يا آلان. لقد أنقذت حياتي.

- وما قيمة حياتك؟ لقد تدهورت من سيء إلى أسوأ حتى انتهى بك الأمر إلى الإجرام. وأنا إذ أقدم على هذه الفعلة التي تضطرنني إليها اضطراراً لا أفكر في إنقاذ حياتك.

فتنهّد دوريان وقال:

- لبتك ترثي لحالي عشر معشار ما أرثي لحالك.

وفيما هو يقول ذلك انصرف إلى التأمل في حديقة بيته. أما كامبل فلم

يجب بشيء.

وبعد عشر دقائق طرق الخادم الباب ودخل حاملاً صندوقاً كبيراً

من خشب الموجنة يحوي العقاقير المطلوبة ولقّة طويلة من الأسلاك المصنوعة من صلب وپلاتين وكلايتين من الحديد هيئتهما غريبة. وقال مخاطبًا كامبل:

- أترك هذه الأشياء هنا يا سيدي.

فقال دوريان:

- نعم يا فرانسيس، ويؤسفني أنني سأطلب منك شيئًا آخر. أتذكر اسم بائع الأزهار في رتشموند المتعهد بتوريد زهر الأوركيد إلى قصر سلبي. - اسمه هاردن يا سيدي.

- نعم، هاردن. اذهب بلا توان إلى رتشموند وقابل هاردن شخصيًا وسله أن يرسل إلى سلبي ضعف الكمية التي يرسلها عادة وأن يقلل من عدد الأوركيد الأبيض بقدر المستطاع، بل إذا أمكن تجنب الأوركيد الأبيض تمامًا كان ذلك أنسب. إن اليوم صاف جميل يا فرانسيس ورتشموند حي أنيق ولولا علمي بأنك ستستمتع بالذهاب إليه لما أزعجتك بهذا الطلب.

- ليس في الأمر إزعاج يا سيدي. متى تريدني أن أعود؟

فنظر دوريان إلى كامبل وسأله في هدوء تام، فقد أكسبه وجود شخص ثالث بالغرفة شجاعة عظمى:

- كم ساعة ستستغرق التجربة يا الآن؟

فعبس كامبل وعض شفته وأجاب:

- نحو الخمس ساعات.

- إذا عدت في السابعة والنصف نكون قد فرغنا من التجربة. اسمع يا فرانسيس. أعدّ لي ملابس السهرة واطركها في غرفتي. وبعد ذلك تستطيع أن تكون مطلق الحرية في المساء فلن أحتاج إليك لأنني سأتعشى في الخارج هذه الليلة.

قال الرجل وهو ينصرف:

- شكرًا يا سيدي.

والتفت دوريان إلى آلان كامبل وقال يستعجله بلهجة الأمر النهي مما جعل كامبل يحس بأنه آلة مسيرة:

- والآن يا آلان يجب أن نعجل بالعمل فالوقت ثمين. ما أثقل هذا الصندوق. سأحمله أنا أما أنت فلتحمل الأشياء الأخرى.

وخرج الرجلان من الغرفة معًا. ولما بلغا قمة السلم أخرج دوريان المفتاح من جيبه وأداره في الباب ثم توقّف واعتراه الجزع واضطرب أيما اضطراب وقال متخاذلاً:

- أعتقد أنني لن أقوى على الدخول يا آلان.

فقال كامبل ببرود:

- هذا لا يهمني، فلن أحتاج إليك.

وفتح دوريان الباب قليلاً، فرأى وجهه في الصورة تحت ضوء الشمس ينطق بالخبت والشهوة الصريحة ورأى الستار الممزق ملقى على الأرض أمام الصورة، فتذكّر أنه في الليلة السابقة قد نسي للمرة الأولى في حياته أن يحجب اللوحة النكراء وكاد أن يندفع إليها لينشر عليها الستار ولكنه ارتدّ واجف القلب فزعاً.

لقد رأى على إحدى يديه في الصورة بقعة حمراء قبيحة المنظر تلمع كقطرات الدم البليل فمن أين للصورة هذه البقعة الحمراء؟ كأنما اللوحة قد نضحت دمًا! وأرعبه هذا أكثر مما قد يرعبه منظر الجثة الصامته التي تنتظره داخل الحجرة مسترخية على المائدة لو أنه رآها. ورأى ظلها الممسوخ ملقى على البساط الملطّخ بالدم فعرف أنها لا تزال في مكانها حيث تركها ليلة أمس.

وملأ رثيته بالهواء لعله يتشجع ودفع الباب قليلاً واندفع في الغرفة مغمض العينين يكاد لا يرى شيئاً، وانصرف بوجهه عن جثة القتيل جاهداً ألا يراه، وانحنى وفع الستار الملون بالذهب والأرجوان ونشره

على الصورة فأخفاها.

ثم توقّف لحظة وخشي أن تقع عيناه على الجثة إن هو حاول العودة. فذهب يتأمل الوشى المرسوم على الستار. كل ذلك وكامبل يدخل الصندوق الثقيل والأشياء الأخرى في جلبة مسموعة. وبدأ دوريان يفكر. ترى هل يعرف كامبل بازيل هولوردد؟ فرضًا هو يعرفه، ولكن كيف كانت صلته به. وأخيرًا سمع الصوت الجاف يقول له:
- والآن، فلتخرج.

فاستدار دوريان وخرج مسرعًا وفيما هو يفعل ذلك وقع بصره على وجه القتيل بعد أن رده كامبل إلى موضعه الطبيعي على المقعد، ورأى كامبل يتفرس في وجهه الأصفر اللامع. وفيما هو ينزل على السلم سمع صوت المفتاح يُدار في قفل الباب.

وبعد الساعة السابعة بفترة طويلة دخل كامبل المكتبة، وكان وجهه شاحبًا ولكنه كان مثاليًا للهدوء. قال:

- لقد أنجزت ما طلبته مني والآن وداعًا، وأرجو ألا نلتقي مرة أخرى. فقال دوريان في بساطة:

- أنت أنقذتني من موت محقق يا آلان، ولن أنسى لك هذا الصنيع. وبعد أن خرج كامبل صعد دوريان إلى الغرفة العليا. فملأت أنفه رائحة قبيحة هي رائحة حامض النتريك. ولكنه لم يجد الجثة التي كانت جالسة بجوار المائدة.

الفصل الخامس عشر

في الساعة الثامنة والنصف من تلك الليلة كان خدَم الليدي ناربورو يعلنون قدوم دوريان جراي وينحنون تحية له. وكان دوريان جراي آية في الأناقة، يحلي عروته بمجموعة من بنفسج پارما. وكانت عروق جبهته تدق دقًا متواصلًا وكانت نفسه شديدة الاضطراب ولكنه ظهر على سجيته الجميلة حين انحنى ليقبل يد ربة البيت ولم تخنه رشاقته المعهودة. فلعل الإنسان لا يحس بأنه على سجيته إلا حين يمثل دورًا. ومهما يكن من شيء فما من أحد رأى دوريان جراي في تلك الليلة كان يتوهم أنه مر بمأساة فاجعة دونها كبار المآسي. فتلك الأصابع الدقيقة ما كانت لتمسك مدية السفاح، وتلكما الشفتان الباسمتان ما كانتا لتدنسا اسم الله أو تكفرا بخيره العميم. ولقد رَوَّعه ما رآه في نفسه من هدوء في المظهر واتزان في السلوك ومَرَّت به لحظة تمنى فيها لو يحيا بشخصية مزدوجة.

وكان الحفل صغيرًا يضم عددًا قليلًا من الناس دعتهُم الليدي ناربورو على وجه السرعة، والليدي ناربورو امرأة نادرة الذكاء. عليها، بلغة اللورد هنري، بقايا قبح قديم، وقد كانت زوجة فضلى لسفير من سفرائنا الثقلاء، وبعد أن دفنت زوجها بما يقضي به الواجب في قبر من المرمر وضعت هي تصميمه بنفسها، وبعد أن زُوِّجت بناتها لبعض الأثرياء المتقدمين

في السن، بعد أن فعلت هذا وذاك تفرّغت للاستمتاع بالقصص الفرنسي وبالمطبخ الفرنسي وبالذكاء الفرنسي كلما وجدت إليه سبيلاً.

وكان دوريان من المقرّبين إليها، وكانت تقول له في كل مناسبة إنها سعيدة الحظ لأنها لم تقابله وهي في شبابها. كانت تقول «لو أنني عرفتك في تلك الأيام يا صديقي دوريان لكان من المحقّق أن أجن بحبك، ولكان من المحقّق أن أفسد كل شيء في سيبلك. فمن حسن حظي أنك لم تكن قد جئت بعد إلى الوجود. ولكن الحياة في تلك الأيام لم تكن كالحياة في هذه الأيام، وهكذا ضاع شبابي دون أن أغازل رجلاً ولو على البعد فمن أين لي فرصة الحب؟ لقد كان زوجي اللورد ناربورو قصير النظر إلى درجة كبيرة وأي لذة تجدها امرأة في الزواج من رجل لا يرى شيئاً أصلاً. على أن هذا كان عيبه الوحيد».

لكن الضيوف كانوا ثقلاء إلى حد كبير. وقد شرحت لدوريان حقيقة الأمر فقالت من وراء مروحتها الزرية المهلهلة إن إحدى بناتها قد هبطت عليها فجأة بنية الإقامة واصطحبت معها زوجها مما زاد من ضيقها. ثم همست في أذنه قائلة: «اعتقد يا عزيزي أن هذه وحشية منها لا تغتفر. صحيح أنني أهبط عليهما كل سنة وأقيم بينهما طول الصيف بعد عودتي من هومبرج، ولكن هذه مسألة أخرى، فسيده عجوز مثلي تحتاج إلى تغيير الهواء من وقت إلى وقت، ثم إنني أمنعهما من النوم المبكر، وهذه خدمة عظيمة أسديها لها. فأنت لا تستطيع أن تتصوّر كم الحياة مملة عندهما. هي حياة ريفية بكل ما في الكلمة من معنى، فهما يستيقظان مبكراً لكثرة الأعمال وهما ينامان مبكراً لقلّة الأفكار. وناحيتهما لم تحدث فيها فضيحة منذ عصر الملكة اليصابات^(١)، ولهذا فهما ينامان بعد الظهر. سوف أنقذك يا دوريان من حديثهما الثقيل، فمكانك من المائدة بجانبني

(١) اليصابات، وهو اسم اليزابيث كما ورد في الإنجيل.

لتفتح نفسي بحديثك الشهى».

فرد عليها دوريان بمجاملة رقيقة وتلفت في أنحاء الغرفة فلم يجد إلا جمعًا من ثقلاء القوم. وكان بينهم شخصان لا يعرفهما أما الباقون فقد تبين منهم إرنست هارودن وهو كهل تافه من أولئك الكهول التافهين الذين يملأون نوادي لندن، ممن لا أعداء لهم ولكن أصدقاءهم يكرهونهم كرها تامًا، ثم الليدي ركستون وهي امرأة في السابعة والأربعين من عمرها مقوَّسة الأنف تزين بلا حساب اجتهدت ما وسعها الاجتهاد أن تثير الغبار حول سمعتها ولكن أجزنها أن الناس لا يصدّقون ما يُقال عنها لفرط دمامتها، ثم مسز إرلين وهي امرأة لا قيمة لها كثيرة الجلبة، في كلامها لثغة جذابة وشعرها أحمر، ثم الليدي أليس تشايمان ابنة الليدي ناربورو ربة البيت، وهي امرأة رثة الهيئة ملامحها من تلك الملامح الشائعة في بريطانيا، إن رأيتها مرة لم تذكرها بعد ذلك. ثم زوجها اللورد تشايمان وهو رجل أحمر الخدين أبيض السوالف يحسب أن الإفراط في التظرّف يعوضه عن فقره الكامل في الأفكار.

وأحس دوريان بالندم على قبول الدعوة ثم رأى الليدي ناربورو تنظر إلى الساعة المذهبة القائمة على قمة المدفأة المكسوة بقطعة من القماش البنفسجي وسمعتها تقول:

- أليس توحشًا من اللورد هنري أن يتأخّر كل هذا التأخير: لقد أرسلت إليه دعوة هذا الصباح دون اتفاق سابق، ولكنه وعد أن يقبل جميع دعواته. فلما عرف دوريان أن هاري قادم وجد في هذا العزاء الكافي، فلما أن سمع الباب يُفتح وصوته الرخيم الهادئ يرتفع بالاعتذار على طريقته الجذابة ونفاقه المتقن هدأ باله وزال ما به من الضيق.

ولكنه لم يأكل إلا قليلًا في العشاء. وجاءته الصحف واحدة بعد أخرى دون أن يمسهما. وأخذت الليدي ناربورو تعنّفه على عزوفه هذا، ووصفت امتناعه عن الأكل بأنه إهانة لطاھيها «أدولف المسكين الذي اختار قائمة

الطعام خاصة لتناسب ذوق دوريان بالذات». أما اللورد هنري فقد كان ينظر إليه من وقت إلى آخر عاجبًا لصمته وشرود فكره. على حين كان رئيس الخدم يمر به في فترات متقطعة ويملاً كأسه بالشمبانيا فيشربها كالظمآن وما ارتوى بل زادته الخمر ظمأ إلى الخمر.

وأخيرًا قال اللورد هنري قرب انتهاء العشاء:
- ماذا دهاك الليلة يا دوريان؟ يبدو أنك متوعك المزاج تمامًا.

قالت الليدي ناربورو:

- أعتقد أنه عاشق، وهو يخشى أن يطلعني على أمره فتثور في صدري الغيرة، وله العذر في ذلك، فأنا امرأة شديدة الغيرة.

فقال دوريان مبتسمًا:

- يا سيدتي الليدي ناربورو، أنا لم أذق الحب أسبوعًا كاملًا، أي منذ أن تركت مدام فيرول لندن.

فصاحت به السيدة العجوز قائلة:

- عجبًا لكم يا معشر الرجال، كيف تستطيعون أن تحبوا امرأة كهذه. هذا ما يحيرني فيكم.

قال اللورد هنري:

- السبب بسيط وهو أنها تذكرك حين كنت تلبسين فساتين قصيرة يا ليدي ناربورو، فهي حلقة الوصل الوحيدة الباقية بيننا وبين فساتينك القصيرة.

- هذا غير صحيح فهي لا تستطيع أن تذكر فساتيني القصيرة مطلقًا يا لورد هنري. أما أنا فأستطيع أن أتذكرها تمامًا حين كانت في فيينا منذ ثلاثين عامًا وقد كانت عندئذ تسرف في كشف صدرها.

قال اللورد هنري وهو يتناول زيتونة بأصابعه الطويلة:

- وهي لا تزال تسرف في كشف صدرها. وحين تهل علينا بستان أنيق تبدو كطبعة فاخرة من قصة فرنسية تافهة. إنها لسيدة العجائب، وإني

لمعجب بها كل الإعجاب. فهي تستطيع مثلاً أن تحب أهلها إلى حد يلفت الأنظار. وحين مات زوجها الثالث اصفرَّ شعرها من فرط الحزن. فصاح به دوريان قائلاً:

- هذا اجترأ منك يا هاري!

وضحكت ربة البيت وقالت:

- هذا تفسير ممتع، ولكن كيف تقول إن زوجها الثالث مات؟ أتعني أن

السيد فيرول هو الرابع؟

- بالتأكيد يا ليدي ناربورو.

- هذا مستحيل.

- سلي مستر جراي إذاً، فهو من أقرب المقربين إليها.

- أصحيح ما يقوله اللورد هنري يا مستر جراي؟

فأجاب دوريان قائلاً:

- هذا ما أكدته لي بنفسها يا ليدي ناربورو، وقد سألتها إن كانت تحنط

قلوب أزواجها وتعلقها في زناها كما كانت تفعل مرغريت دي بافار فأجابتنني بالنفي لأن أزواجها لم تكن لهم قلوب.

- أربعة أزواج! يا لها من شهية عظيمة!

قال دوريان:

- بل يا لها من جرأة عظيمة! هذا ما أقوله لها دائماً.

- إن جرأتها تتسع لكل شيء يا عزيزي. ولكن حدثني عن فيرول فأنا

لم أزه حتى هذه اللحظة.

قال اللورد هنري وهو يشرب بعض النبيذ:

- إن أزواج النساء الرائعات الحسن ينتمون عادة لطبقة المجرمين.

فضربته الليدي ناربورو بمروحتها وقالت:

- لا غرو أن يصفك كل من في العالم بأنك رجل شرير.

قال اللورد هنري متكلفاً الدهشة:

- ولكن أي عالم يصفني بهذا الوصف؟ إن علاقاتي مع هذا العالم على أحسن ما يرام، فلا بد أن يكون العالم الآخر.
فهزّت السيدة العجوز رأسها وقالت:
- كل من أعرفهم يصفونك بأنك رجل شرير.
بدا الجد على وجه اللورد هنري لحظة أو لحظتين ثم قال:
- هذه خسة من الناس أن يفتابوا المرء بالحقائق الصادقة، وأنا أستنكرها.

ومال دوريان في مقعده إلى الأمام وقال:
- إن اللورد هنري لا رجاء في إصلاحه. ألا توافقين يا ليدي ناربورو؟
أجابت ربة البيت ضاحكة:
- ليته يبقى على حاله، ولكن إذا ظل الرجال يهيمون بمدام دي فيرول على هذا النحو المضحك فسوف أتزوج من جديد لأستفيد من ذوق العصر.

فقاطعها اللورد هنري قائلاً:
- كلا يا ليدي ناربورو، إن مثلك لا يتزوج مرتين، فأنت في سعادة تحميك من هذا الخطأ. إن المرأة تتزوج مرتين إذا كانت تمقت زوجها الأول، أما الرجل فيتزوج مرتين إذا كان يعبد زوجته الأولى. في الزواج تجرّب النساء حظهن أما الرجال فيقامرون بحظهم.

قالت السيدة العجوز:
- إن زوجي لم يكن كاملاً.
فأجاب اللورد هنري:
- هذا من حسن حظّه، فلو أنه كان كاملاً لضقت به يا سيدتي العزيزة. إن النساء يعشقننا لعيوبنا. فكلما زادت عيوبنا اغتفرون لنا أخطاءنا، حتى جريمة التفكير يغتفرونها. وأنا أخشى يا ليدي ناربورو أن تكفّي عن دعوتي للعشاء بسبب ما قلت، ولكني ما قلت غير الحق.

- بالطبع أنت لم تقل غير الحق يا لورد هنري. ولو أننا معشر النساء لم نعشق فيكم عيوبكم فكيف يكون حالكم إذا؟ لولا ذلك لما وجد رجل واحد امرأة تقبل أن تتزوجه. لولا ذلك لبعيتم جماعة من العزاب التعساء. ولكن هذا لن يغير من الأمر شيئاً، ففي هذه الأيام نجد أكثر المتزوجين يعيشون عيشة العزاب وأكثر العزاب يعيشون عيشة المتزوجين.

قال اللورد هنري:

- هذه نهاية القرن.

فأجابت ربة البيت:

- بل هذه نهاية العالم.

وتنهد دوريان جراي وقال:

- ليته كانت نهاية العالم. إن الحياة قد خيبت أملي فيها.

فصاحت الليدي ناربورو وهي تلبس قفازها قائلة:

- لا تقل يا صديقي أنك قد أتيت على كل ما في الحياة من أسباب السعادة. فحين أسمع رجلاً يقول هذا الكلام أعرف أن الحياة قد أتت عليه. إن اللورد هنري رجل شرير وإني لأغبطه على ذلك أحياناً. أما أنت فقد خلقت لتكون نموذجاً للخلق الجميل، ووجهك الجميل يدل على ذلك. دعني أبحث لك عن زوجة صالحة. ألا تعتقد يا لورد هنري أن مستر جراي قد بلغ سن الزواج؟

انحنى اللورد هنري بأدب وأجاب:

- هذا رأيي الثابت يا ليدي ناربورو، وطالما ذكرته له.

- إذا فلنبدأ في البحث له عن زوجة تناسبه. سأحصر الليلة الفتيات اللاتي يصلحن لذلك بعناية وأعد له قائمة بأسمائهن.

فسألها دوريان قائلاً:

- وبأعمارهن كذلك يا ليدي ناربورو؟

- بطبيعة الحال، ولكن أعمارهن ستكون محرّفة تحريفًا طفيفًا. ولا

داعي للعجلة فأنا أحب أن أتوسَّط له في زواج تصفه «المورننج پوست»
بأنه زواج مناسب، كما أحب له ولزوجته أن يسعدا بهذا الزواج.
فقال اللورد هنري:

- إن الناس يكثر من الكلام الفارغ في موضوع السعادة الزوجية.
فالرجل يستطيع أن يسعد مع أي امرأة في العالم إن كان لا يحبها.
قالت السيدة العجوز وهي تدفع مقعدها إلى الورا وتحنى رأسها
تحية لليدي ركستون:

- يالك من ساخر قاس. لا بد أن تأتي للعشاء ثانية في المستقبل القريب
فأنت خير دواء يزيل عني الصداع، بل أنت أنفع من الدواء المقوي الذي
أوصاني به السير توماس أندروز، ولكن أشر عليَّ بمن تحب أن تقابلهم
من الضيوف حتى يكون الحفل بهيْجًا.
فأجاب:

- أحب أن أقابل من الرجال من لهم مستقبل ومن النساء من لهن
ماضي. ولكن أخشى أن تقتصر حفلتك بهذا على النساء فقط.
فضحكت الليدي ناربورو ثم نهضت وهي تقول:
- هذا ما أخشاه أنا أيضًا.

ثم أضافت تعتذر عن تركها المائدة:

- عفوا يا عزيزتي الليدي ركستون فقد حسبت أنك فرغت من التدخين.
- لا داعي للاعتذار يا ليدي ناربورو، فالواقع أنني أدخن أكثر مما
يجب، وقد قرَّرت أن أحدد الكمية التي أدخنها في المستقبل.
قال اللورد هنري:

- أرجو ألا تنفذي هذا القرار يا ليدي ركستون، فالاعتدال يقضي
على بهجة الحياة. الاعتدال يذكّرني بحياتنا اليومية أما الإفراط فيذكّرني
بالولائم والأعراس.

ف نظرت إليه الليدي ركستون عاجبة وقالت وهي تنصرف:

- أرجوك أن تزورني ذات مساء يا لورد هنري لتشرح لي هذه النظرية.
وصاحت الليدي ناربورو وهي تقف بالباب:

- سنصعد نحن إلى الصالون العلوي ونترككم لتحدثوا في السياسة
وفي أعراض الناس، ولكن لا تطيلوا البقاء وإلا وجدتمونا في معركة
شديدة.

فضحك الرجال. وانتقل مستر تشايمان من نهاية المائدة إلى رأسها،
وانتقل دوريان جراي إلى جوار اللورد هنري. وبدأ مستر تشايمان
يتكلم بصوت عال عما يحدث في مجلس العموم. وأخذه الحماس
في الرد على معارضيه حتى أنساه آداب المناقشة. وأكثر من استعمال
عبارة «أفكار نظرية» وهي الأفكار التي تخيف العقل البريطاني الضيق.
ولم ينسَ أن يفوّف أقواله بالتراكيب البلاغية. ولم ينسَ أن يضع العَلَمَ
البريطاني على قمم التفكير الإنساني ولم ينسَ أن يسمّي غباوة الشعب
البريطاني الموروثة بالذوق العام، ويمتدحها، ويزعم أنها درع المجتمع
الواقعي.

وابتسم اللورد هنري حين سمع هذا الكلام ثم انصرف إلى دوريان
وسأله:

- أتحسنت حالتك الآن يا دوريان؟ لقد بدا عليك الإعياء أثناء العشاء.

- أنا على خير ما يرام، وكل ما في الأمر أنني متعب.

- لقد سحرت جميع الحاضرين في حفلة الأمس يا دوريان، والدوقة

العجوز تحبك حبًا جمًّا. وقد قالت لي إنها ستزورك في سبلي.

- نعم، وعدت بأن تأتي في العشرين من هذا الشهر.

- وهل سيزورك موناوث كذلك.

- نعم يا هنري.

- إنه شخص ثقيل على نفسي، ثقيل على نفس الدوقة. ورأيي في

الدوقة أنها نادرة الذكاء، بل إنها أذكى مما يجوز لامرأة أن تكون. ولكن

ينقصها ذلك السحر الذي يكمن في ضعف النساء. يقولون إن المعبودات ذاتها لها أقدام من الصلصال وأن الصلصال يصلها بالأرض مما يفسد ألوهيتها. ولكني أقول إن الصلصال يزيد من ألوهية المعبودات. وقدا الدوقة تفتن الناسكين ولكنها ليست من الصلصال بل من الصيني الأبيض إذا أحببت، وقد احترقتا بنيران الحياة، والنيران كما تعلم تقوي ما لا تستطيع أن تتلفه. إنها من صاحبات الاختبار الواسع.
فسأله دوريان قائلاً:

- هل مضى على زواجها فترة طويلة؟

- هي تقول إنه مرَّ على زواجها آباد. ولكني أقدر هذه الآباد بعشر سنوات لأن زوجها لم يرث اللقب إلا منذ عشر سنوات. وعشر سنوات في عشرة رجل كمونماوث لا بد تبدو آباءً وآباءً، فتقديرها لا يدهشني. ولكن حدثني عن ضيوفك الآخرين.

- سيكون بينهم آل ويلوبي واللورد رجيبي وزوجته، والليدي ناربورو، وجفري كلاوستون وبقية الرهط الذي تعرفه. وكذلك دعوت اللورد جروتريان.

قال اللورد هنري:

- أنا أحب اللورد جروتريان وإن كان أكثر الناس لا يحبونه. فهو في نظري رجل جذاب وإذا كان من رذائله الإسراف في التزين فهو يكفر عن ذلك بالإسراف في الإطلاع. إنه نموذج للرجل العصري.
- لست واثقاً من أن ظروفه ستسمح له بقبول الدعوة، يا هاري، فقد يضطر إلى السفر مع أبيه إلى مونت كارلو.

قال اللورد هنري:

- ما أثقل الآباء يا دوريان! أرجوك أن تلح عليّ في المجيء. ولكن خبرني يا دوريان، لقد تركتني في وقت مبكر ليلة أمس، تركتني قبل الساعة الحادية عشرة، فماذا فعلت ببقية الليلة؟ أعدت إلى بيتك مباشرة؟

فنظر إليه دوريان نظرة سريعة وأجاب عابسًا:
- كلا، يا هاري، لم أعد إلى بيتي إلا قرب الساعة الثالثة.
- أذهبت إلى النادي؟
- نعم.

ولكنه عض شفته وصحَّح كلامه قائلاً:

- كلا. أقصد أنني لم أذهب إلى النادي، بل تجوّلت في الطرقات. لقد نسيت الآن ما فعلته ليلة أمس. ما أشد فضولك يا هاري! إنك تحب دائماً أن تعرف ما كنت أفعله وأنا أحب دائماً أن أنسى ما كنت أفعله. لقد عدت إلى بيتي في الثانية والنصف بالضبط إذا كان تحديد الزمن يهملك. ثم تبين لي أنني قد نسيت المفتاح في البيت ففتح الباب لي خادمي. وإذا شئت أن تتحقق من صدق هذه الرواية فعليك به، سله كما تشتهي.

فقال اللورد هنري مظهرًا عدم الاكتراث:

- وما شأنني بكل هذا؟ هيا بنا إلى الصالون يا دوريان. أشكرك يا مستر تشابمان، فلست أريد المزيد من النيذ. لقد حدث لك حادث يا دوريان فقص عليّ ما جرى. إنك هذه الليلة لست على عهدي بك.

- لا تهتم بأمرني يا هنري. فأنا الآن منحرف المزاج شديد التهيج. وسأزورك غدًا أو بعد غد على أكثر تقدير. وأرجوك أن تعتذر عن انصرافي إلى الليدي ناربورو نيابة عني فأنا راجع إلى داري. نعم. لا بد أن أرجع إلى داري.

- حسنا يا دوريان. أرجو أن أراك غدًا في وقت الشاي، ولسوف تجد الدوقة عندي.

- سأبذل كل المستطاع يا هنري.

وانصرف. وفيما كانت عربته تخب به صوب بيته عاوده شعور الفزع الذي ظن أنه قد كبته في نفسه. فالأسئلة العارضة التي ألقاها عليه اللورد هنري قد أفقدته السيطرة على أعصابه ولو إلى حين، وهو لا يزال بحاجة

إلى اتزان الأعصاب. ففي بيته أشياء قد تجره إلى المشنقة، ولا بد من القضاء عليها تمامًا. وكان مجرد التفكير في أنه سيمسها يقبض نفسه. ولكنه كان يعلم أنه لا مفر له من تدمير أمتعة بازيل هولورود. فما أن دخل المكتبة وأقفل بابها بالمفتاح حتى فتح الكوة الخفية واستخرج منها معطف بازيل هولورود وحقيبته وكانت في المدفأة نار مشبوبة فألقى فيه قطعة أخرى من الخشب ليدكها وامتلات الغرفة برائحة الملابس المحترقة والجلد المحترق. ولم يفرغ من تدمير كل شيء إلا بعد ثلاثة أرباع الساعة. وبعد أن انتهى كل شيء أحس بدوار شديد وإعياء مروع. ثم أحرق بعض الطيوب المغربية في إناء نحاسي محروق وغسل يديه وجبهته في خل بارد معطر بالمسك.

وفجأة اضطرب قلبه ولمع في عينيه بريق غريب وانشأ يعرض شفته السفلى بقوة عصبية. وكان بين الناфذتين خزانة ضخمة من فلورنسا صنعت من أبنوس مطعم بالعاج وحجر أزرق كريم. وشخص بصره إلى الخزانة كأن بها قوة سحرية أو قوة رهيبة. كأن بها شيئًا تتوق نفسه إليه وتبغضه في آن واحد. وتلاحقت أنفاسه في سرعة وتملكه نهم شديد. وأشعل سيجارة ثم قذفها بعيدًا عنه؛ وارتخى جفناه حتى كادت أهدابه الطويلة تمس خديه. ولكن بصره لم يتحول عن الخزانة. وأخيرًا نهض ومشى إليها وأدار فيها مفتاحًا ثم ضغط على زر خفي فبرز منها دُرج مثلث الشكل قليلًا. وامتدت أصابعه إلى الدرج على غير وعي منه وغاصت فيه وأمسكت بشيء ما. أمسكت بصندوق صيني صغير دهانه أسود وذهبي دقيق الصنع جوانبه محلاة بخطوط تشبه الأمواج، وقد ركبت فيه خيوط من حرير تدلت منها بلورات مستديرة وأسلاك معدنية كأنها الشعر المصفور. وفتح الصندوق، فوجد بداخله معجونًا أخضر يلمع لمعان الشمع له رائحة نفاذة لا تستهلك.

وتردد بضع لحظات. وكانت على شفثيه ابتسامة ثابتة غريبة. ثم مشت

في أوصاله رعدة برغم الحرارة الخانقة التي تملأ الغرفة، وجمع أشتات قوته ونظر إلى الساعة فوجدها قرابة منتصف الليل. وأعاد الصندوق إلى مكانه وأغلق الخزانة، وأوى إلى غرفة النوم.

ودقت الساعة تؤذن بانتصاف الليل، وكان دوريان جراي قد استبدل ثياب السهرة بثياب أخرى عادية، ولف حول عنقه كوفية وانسل خارجاً من داره وفي بوند ستريت وجد عربة فاستوقفها وهمس في أذن الحوذي إلى المكان الذي يبغيه.

وهز الحوذي رأسه قائلاً:

- هذا مكان بعيد يا سيدي ولا أستطيع أن أحملك إليه.

فنفحه دوريان بجنيه وقال:

- أعدك بمثله أن أسرعت في الطريق.

فقال أجل:

- طبعاً يا سيدي. سوف تبلغ المنزل في أقل من ساعة.

وبعد أن وضع أجره في جيبه لوى أعنة جياده، وركضت العربة في

نهر التايمز.

الفصل السادس عشر

بدأت الأمطار الباردة تهطل وبدت مصابيح الشارع كالأشباح المخيفة بعد أن ابتلت بالماء واختنق نورها. وكانت الحانات لا تزال تغلق أبوابها وعند أبوابها تكاثر الناس في جماعات متفرقة وقد أخفى الظلام معالمهم. ومن بعض الحانات ارتفعت ضحكات مؤذية للسمع ومن حانات أخرى كان الكسارى يتشاجرون ويصرخون.

وفي العربة استلقى دوريان وقد جذب قبعته إلى الأمام حتى أوشكت أن تغطي عينيه، وطفق يتأمل المدينة العظيمة ومخازنها في أعجاز الليل وتذكر قول اللورد هنري له يوم لقائهما الأول: «إن سر الحياة هو شفاء النفس عن طريق الحواس، وشفاء الحواس عن طريق النفس». وتذكر أن هذا السر سره الذي جرّبه المرة بعد المرة فلم يخيب ظنه. وها هو يجرّبه من جديد في هذه الليلة ويجرّبه في أوكار الأفيون حيث النسيان يُباع ويُشرب، ويجرّبه في بؤر الفساد حيث تمحو ذنوب اليوم الصارخة ذنوب الماضي القديم.

وتدلّى القمر الشاحب حتى كاد أن يمس قمم المنازل وبدا في السماء كالجمجمة الصفراء. وبين وقت آخر مرّت غيمة هائلة لا شكل لها ولا حدود وحجبته عن الأرض. وكلما تقدّمت العربة في المسير ضاقت الشوارع أمامها وقلت المصابيح وازدادت المدينة كآبة. وضلّ الحوذى

طريقه مرة فاضطر إلى أن يعود ما يقرب من نصف ميل. وكلّما خاض الجواد في المياه المتخلّفة من الأمطار ارتفع من حوله رشاش يشبه البخار. أما نوافذ العربة فقد اكتست بالضباب الأغر.

وتردّدت عبارة اللورد هنري في أذنيه طوال الطريق. أجل، شفاء النفس عن طريق الحواس، وشفاء الحواس عن طريق النفس. وهذه روحه مريضة تدب فيها المنية، وكيف تُشفي روحه الحواس وقد سفك الدم البريء؟ وأي كَفَّارة تغسل عنه هذا الذنب العظيم؟ لا كَفَّارة؟ فمثل هذا الذنب لا تغسله أنهار الدموع. ولكن إذا عزَّ الغفران فالنسيان لا يزال مفتوحًا سبيله، وقد وطّد العزم على أن ينسى، على أن يسحق غصّة الألم في نفسه كما يسحق الأفعى بعد أن لدغته. فبأي حق استحل بازيل لنفسه أن يقف منه موقف المعنّف؟ ومن ذا الذي أقامه في الناس قاضيًا؟ إن بازيل قد فاه بعبارات مفزعة، عبارات لا تُحتمل.

والعربة في ركضها دائبة، وخيّل إليه أنها تقلّل من سرعتها في كل شبر تجتازه. فرفع الكبود وهتف بالحوذي أن يلهب جواده بالسوط. وبدأ شوقه إلى الأفيون يأكله أكلاً والتهب حلقة وانقبضت يدها الدقيقتان بحركة عصبية. وضرب الجواد بعصاه كالمجنون وضحك الحوذي وضرب الجواد بسوطه فضحك دوريان جري. وتلا ذلك صمت.

وأحس بأن الطريق لا ينتهي، وبدت له الشوارع المظلمة المتشعّبة كأنها نسيج عنكبوت وضاق بالرحلة المملة، ورأى الضباب يتكاثف من حول فأحس بالخوف.

ثم مرّ بخلوات يُصنع فيها الطوب وفي هذه الخلوات كان الضباب أقل كثافة منه في المدينة واستطاع أن يرى محارق الطوب التي تشبه الزجاجات في هيئتها وأبصر ألسنة اللهب البرتقالية تصعد منها في صورة مروحة من النار. وسمع في طريقه كلبًا ينبج، وسمع طائرًا بحريًا تائهاً يصرخ على البعد. وكبا الجواد في حفرة فانشى ثم أسرع في الركض.

وبعد قليل خرجت العربة من الطريق الريفي وبدأت عجلاتها تجلجل على طريق معبد خشن. وكانت أكثر النوافذ مظلمة، ولكن من وقت إلى آخر انبعث النور من غرفة مضاءة وظهرت على ستائرهما أشباح عجيبة. وطفق دوريان جراي يتأمل هذه الأشباح في فضول فوجدها تتحرك كدمى الأراجوز وتشير بأيديها كما يشير الأحياء. وانقبضت نفسه لما رأى وامتلاً قلبه بغضب مكتوم. ودارت العربة في منعطف فسمع امرأة تصرخ به من مكانه في أحد الأبواب ورأى رجلين يعدوان وراء العربة نحو مائة ياردة ولكن الحوذي أعمل سوطه فيهما.

يقولون إن الانفعال يجعل العقل يفكر بطريقة دائرية، وهذا ما حدث لدوريان جراي وهو يعرض شفته ويكرر قول اللورد هنري ويستخرج منه المعاني الدقيقة، حتى وجد في نظرية استشفاء الروح بالحواس خير معبر عن حالته وخير مبرر لما هو مقدم عليه، ولو لم يجد المعبر أو المبرر لما غير هذا من أمره شيئاً. وانتقلت هذه الفكرة بين خلايا مخه واحدة إثر واحدة وطردت من رأسه كل ما عداها. وشحذت أعصابه المضطربة وألياف جسده الراجفة رغبة عارمة في الحياة، وإرادة الحياة في الإنسان تكتسح أمامها كل إرادة. وبدأ يتذوق القبح لأنه يقترب بالإنسان من الواقع بعد أن كان ينكر القبح لأنه يقترب بالإنسان من الواقع. بل وجد أن القبح هو الحقيقة الوحيدة في الحياة. فالألفاظ النابية التي يسمعها في كل شجار، والبؤر النكراء، وفظاظ الحياة المضطربة وقسوتها، وخسة اللصوص وضعة الأوباش والمنبوذين، كل هذه بدت له أصدق تعبيراً عن الحياة الواقعية من النماذج الجميلة التي يختلقها الفن اختلاقاً والظلال الحالمة التي تملأ قريض الشعراء. وإذا كانت الحقيقة مرة شائهة فهو بحاجة إلى مرارتها وجوهرها الشائهة فهما تلهمانه النسيان. فليتنزل إلى الدرك السافل وبعد أيام ثلاثة سوف تبرأ روحه من جراحتها. ثم توقّف الحوذي فجأة عند بداية زقاق مظلم فارتجت العربة. ورأى

دوربان جرای صواری السفن ترتفع سوداء من وراء سطوح المنازل الصغيرة ومن وراء مداخنها، في الميناء، رأى قطع الضباب الأبيض تحوّم في كل مكان كأنها قلوب خرافية. وسمع الحوذي يسأله بصوت أجش:

- العنوان في هذه المنطقة. أليس كذلك؟
وتنبّه دوربان وبدأ يتلفّت حوله ثم أجاب:
- هذا يكفي.

وخرج من العربة مسرعاً ونقد الحوذي بما وعده به من مال ثم سار مستعجلاً في اتجاه رصيف الميناء. وكانت المصابيح تلمع هنا وهناك في مقدمة السفن التجارية الضخمة. واهتزّ النور وتفتّت في الماء المتخلف من المطر وجاء ضوء أحمر من باخرة خارجة من الميناء كانت تنزود بنصيبها من الفحم. أما إفريز الشارع المغطّى بالأوحال فبدأ كمعطف من الجلد المبتل.

وانعطف إلى اليسار وأسرع في المسير وكان يلتفت إلى الورا بين لحظة وأخرى ليرى من يقتفي أثره فلم يجد أحداً. وبعد سبع دقائق أو تزيد بلغ بيتاً حقيراً محشوراً بين مصنعين ضيقين. ورأى مصباحاً منيراً في إحدى النوافذ العليا، فتوقّف ثم طرق الباب طرّاً غير مألوف.

وبعد وقت قصير سمع ديبب أقدام في الدهليز، وسمع سلسلة الباب تُرفع، وانفتح الباب بهدوء فدخل دون أن يقول شيئاً للشخص الممسوخ القصير القامة الذي فتح له الباب ثم تواری في الظلام. وفي نهاية القاعة تدلّى ستار أخضر مهلهل أخذ يتأرجح يمنة ويسرة أمام الريح التي اقتحمت الباب أثناء دخوله. وجذب الستار ثم دخل في غرفة مستطيلة منخفضة السقف لعلها كانت في يوم من الأيام قاعة رقص من الدرجة الثالثة. واصطفت على جدران الغرفة مصابيح الغاز الموقدة التي تنزأزيّاً عالياً وقد طمست نورها وشوّهته المرايا القذرة المصطفة قبالتها. ومن خلف المصابيح كانت هناك ألواح من الصفيح المضلّع تعكس أنوارها في

هيئة أقراص من النور المرتجف. وكانت الأرض مغطاة بنشارة الخشب الصفراء معجونة في مواضع عدة بأوحال الشارع التي حملتها أقدام الداخلين وملطخة في مواضع أخرى بأثار النيذ المسكوب. وبالقرب من المدفأة قعد على الأرض رجال أصلهم من الملايو وذهبوا يلعبون بقطع من عظم على حين ظهرت أسنانهم بيضاء ناصعة أثناء الحديث. وفي ركن الغرفة رقد بحار على مائدة وعند البار الطويل الذي شغل جانبًا كاملًا من جوانب الغرفة وقفت امرأتان شاحبتا الوجه تتهكمان بشيخ كان ينظف كُمّيه في امتعاض واضح. وفيما كان دوريان يمرّ بهما سمع إحداهما تقول ضاحكة: «إنه يتصور أن النمل قد ملأ كُمّيه». ورأى الشيخ ينظر إليها فرعًا ثم يزمجر.

وكان في نهاية الغرفة سلم صغير. وكان السلم الصغير يفضي إلى غرفة مظلمة. وفيما كان دوريان يقفز على درجات السلم الثلاث المتهافته صعدت في أنفه رائحة الأفيون القوية، فملأ رثيه منها واختلج أنفه انشراحًا. ودخل فوجد بالغرفة شابًا أصفر الشعر ناعمه قد انحنى فوق مصباح ليوقد منه بيته. ونظر الشاب إليه ثم أوماً إليه بعد تردّد. قال دوريان:

- لم أكن أتصور أنك هنا يا آدریان.

فأجاب الشاب في فتور:

- وهل بقي لي غير هذا المكان؟ إن جميع أصدقائي قد أنكروني.

- كنت أحسب أنك خرجت من إنجلترا.

- لم أجد داعيًا لذلك لأن دارلنجتون لن يرفع الأمر إلى القضاء، فقد سدّد أخي جورج قيمة الصك، وهو الآن يقاطعني، ولكني لا أكثرث، فما بي حاجة إلى الأصدقاء طالما أنا أحصل على هذا الجوهر السحري ناسخ الأحزان. ثم إنني أعتقد أنني أسرفت في اختيار الأصدقاء.

وعبس دوريان حين سمع هذا الكلام وتلفت حوله ليتأمل الأجسام

الزرية المستلقية على المراتب الممزقة في أوضاع عجيبة. فرأى السيقان المتنفخة والأفواه المفغورة والعيون المنطفئة الشاحصة وسحره مرآها. فقد كان يعلم ما يشقون به من أحلام ذهبية وما يسعدون به من نيران الجحيم. وخيل إليه أنهم أسعد منه حالاً فهو البائس الذي يستهلك مهجته وتذهب نفسه حسرات، وهو التاعس الحبيس في سجن الذكريات. الذكريات؟ نعم. الذكريات ذكرياته التي تلتهم روحه كالمرض الخبيث. لقد رأى عيني بازيل هولورود تحملقان فيه مراراً: وهو بحاجة إلى النسيان. ولكنه أحس بأنه لا يستطيع البقاء في ذلك المكان، لأن وجود أدريان سنجلتون قد أزعجه وهو يرغب في أن يكون في مكان لا يعرفه فيه إنسان. وأراد أن يتخلص منه فقال بعد صمت قليل:

- إني ذاهب إلى المكان الآخر.

- عند رصيف الميناء؟

- نعم.

- سوف تجد هناك البغي المجنونة، ما في ذلك ريب، فقد طردوها من هذا المكان.

قال دوريان في استخفاف:

- إن نفسي زهدت النساء اللاتي يعشقنني فليت لي نساء يكرهنني. ومن ناحية أخرى أجد أن البضاعة هناك أجود نوعاً.

- لا أعتقد أن هناك فرقاً.

- أنا أفضلها على أية حال. تعال واشرب معي كأساً فأنا بحاجة إلى

الشراب.

قال الشاب:

- لست أرغب في شيء.

- سواء عليّ.

ونفض أدريان سنجلتون في إعياء وتبع دوريان إلى البار. وفي البار

حياهما منبوذ من منبوزي الهنود على رأسه عمامة مهلهلة وعلى كتفيه معطف واسع، حياهما تحية خير منها السكوت ووضع أمامهما زجاجة من الكونياك وقدحين. وانتحت المرأتان مكانًا جانبيًا وبدأتا تثرثان وأولاهما دوريان ظهره وهمس في أذن آدریان سنجلتون ببعض الكلمات فابتسمت إحداهما ابتسامة تشبه خنجر الملايو المنحني وقالت في تهكم: - شرَّفنا.

ولكن دوريان نهرها قائلاً وهو يضرب الأرض بقدمه:

- خير لك ألا تتكلمي. ماذا تريد مني؟ إن كنت تريد مالا فما هو المال. ولكن إليك عني وحذار أن تكلميني بعد الآن. فلمع الشرر في عيني المرأة الدامعتين للحظة ثم انطفأت عيناها وعادتا جامدتين لا معنى فيهما. وهزّت رأسها وخطفت النقود من الكونتوار بأصابع جشعة. وتحركت الغيرة في قلب صاحبتهما. وتنهد آدریان سنجلتون وقال:

- لا جدوى من التفكير في هذا فأنا لا أرغب في العودة، والأمر عندي سواء لأنني سعيد هنا.

قال دوريان بعد صمت قليل:

- أنا أنتظر منك أن تكتب إليّ كلما احتجت إلى شيء. أليس كذلك؟ - ربما.

- طاب مساؤك إذاً.

- طاب مساؤك.

وعاد الشاب إلى السلم الصغير يصعده وهو يمسح فمه الملتهب بمنديله.

أما دوريان فاتجه إلى الباب حزين القلب. فلما جذب الستار ليخرج إلى الدهليز سمع المرأة التي أخذت منه النقود تضحك ضحكة مفزعة وبلغه صوتها الخشن يقول في تقطع:

- ها قد ولي صنيعة الشيطان.

فأجاب دوريان قائلاً:

- لا تسميني صنيعة الشيطان، أيتها اللعينة.

وطقطقت المرأة أصابعها وصاحت به:

- أنت تحب أن يسميك الناس الأمير الساحر. أليس كذلك؟

فلما سمع البحار الراقد على المائدة كلماتها وثب من مكانه وأخذ
يجول بعينه في أنحاء الغرفة كالوحش الهائج. وسمع باب القاعة يقفل
فاندفع خارجاً من الغرفة كأنه يريد مطاردة دوريان جراي.

وأسرع دوريان جراي بالسير على رصيف الميناء والمطر ينهمر فوق
رأسه. وقد أثارت رؤية أدريان سنجلتون شعور الشفقة فيه وخيل إليه
أنه علة شقاء هذا الفتى والمسؤول عن تحطيم حياته كما صارحه بازيل
هولوورد بذلك في عبارات مهينة. وعض شفته ألماً وارتسم الحزن في
عينيه بضع ثوان، ولكنه طرد عنه هذه الأفكار، وأحس بأن حياة الإنسان
أقصر من أن يبھظها بأوزار الآخرين. فلتحيا كل نفس حياتها. ولتدفع كل
نفس ثمن ما تجنيه من لذات. وما ألمه إلا أن ثمن الخطيئة يدفع مراراً
وتكراراً، فالقدر لا يرضى بأن يصفى حسابه مع الإنسان دفعة واحدة.

يخبرنا علماء النفس بأن الرغبة في الخطيئة أو ما يسميه الناس
بالخطيئة حين تتملك النفس تماماً، فتملاً شعاب العقل وتملاً جنبات
الجسد تقترب في طبيعتها من النزعات الإجرامية فترى الناس يفقدون
كل قدرة على الاختبار، ويندفعون إلى نهايتهم الأليمة مسوقين بقوة لا
يملكون لها قهراً، وكأنهم آلات صماء. وتلاشى فيهم الإرادة ويموت
فيهم الضمير، فإن لم يمت فيهم الضمير عاش لتثور عليه الشهوات ويتمرد
الجسد وهو صراع مسرحي يملأ الحياة بالحركة ويكسبها الطابع الفني.
ذلك لأن جميع الخطايا جوهرها العصيان كما يحدثنا أهل اللاهوت في
كل مناسبة. وإبليس العظيم، إبليس نجم الشر الوضاء، لم يسقط من كنف

الله إلى الهاوية إلا بسبب ثورته على الحكم المطلق.
وأسرع دوريان جراي في سيره وقد مات فيه الشعور وتركزت خواطره
في الشرِّ وثارَت في عقله المسموم ونفسه المضطربة نوازع الثورة. ولكن
ما أن نفذ في بعض البواكي المظلمة كما اعتاد أن يفعل ليختصر الطريق
إلى ذلك المكان الجهنمي أحس بيد وحشية تقبض على عنقه من الخلف
فجأة وتلصقه بالحائط قبل أن يتمكن من الدفاع عن نفسه.

وحاول أن ينجو بحياته في قوة جنونية حتى استطاع بمجهود جبار
أن يخلص عنقه من قبضة غريمه، ولكن لم تمض ثانية حتى سمع صوت
مسدس يصوب إلى رأسه ورأى خزانة المسدس المصقولة تلمع في
الظلام وتبين أمامه رجلاً بديناً قصير القامة طمس الليل معالمه. قال
دوريان جراي وهو يلهث:

- ماذا تبغي يا هذا؟

قال الرجل:

- صه. إن تحرّكت قتلتك.

- أنت مجنون، كيف تقتلني وما آذيتك؟!.

فأجاب الرجل:

- أنت حطّمت حياة سيبيل فين، وهي أختي. وأنا أعلم أنها انتحرت
ولم تمت خطأ كما زعم المحقّق فأنت المسؤول عن موتها. لقد أقسمت
أنني قاتلك عند عودتي، وقد فتشت عنك أرجاء المدينة فلم أهدِ إليك.
لقد ماتت أختي ومات اليهودي فلم أجد بعدهما من يستطيع أن يصفك
لي. فكيف أهتدي إليك وأنا لم أعرف عنك شيئاً؟ إلا أن سيبيل كانت
تطلق عليك اسم الأمير الساحر. فما إن سمعت اسمك يتردّد الليلة
مصادفة حتى علمت أنني ظفرت ببيغيتي. صلّ إلى الله واطلب منه الغفران
فأنت الليلة هالك.

فأصاب دوريان جراي جزع شديد وأصابه دوار وطفق يقول:

- ما عرفت أختك قط؛ وما سمعت بها. إنك مجنون.
- خليق بك أن تعترف بما فعلت، لأنك ميت لا محالة.
وتبعت ذلك لحظة صمت كلها أهوال ولم يجد دوريان ما يقوله أو
يفعله، وزمجر جيمس فئين قائلاً:

- أسجد، وصلِّ إلى الله. أمامك دقيقة واحدة أقبض بعدها روحك.
إنني راحل الليلة إلى الهند ولا بد أن أنجز مهمتي أولاً. أمامك دقيقة
واحدة لا أكثر.

وتخاذل ذراعاً دوريان من فرط الإعياء، وسدَّ الفزغ عليه مسالك
تفكيره فلم يعرف ماذا يفعل. ولكن فكرة خطرت له فجأة فرأى بصيصاً
من الأمل نجاته. قال:

- مهلاً. متى انتحرت أختك هذه. أجبني بسرعة!
- انتحرت منذ ثمانية عشر عاماً. ولكن لِمَ تسأل، وما دخل السنين في
كل هذا؟

فضحك دوريان جري ضحكة المنتصر وقال:
- ثمانية عشر عاماً! أنظر إلى وجهي يا هذا واحكم بنفسك. هيا خذني
إلى المصباح.

وتردَّد جيمس فئين برهة ولم يفهم لقوله معنى، ثم أمسك بدوريان
جراي وخرج به من البواكي، ومضى إلى مصباح من مصابيح الشارع.
وكانت الريح تلعب بنور المصباح ولكن النور رغم ذلك كان كافياً. وتبيَّن
جيمس فئين خطأه الفاحش، فقد رأى أمامه وجهًا اجتمعت فيه نضارة
الصبا وطهارة الشباب. رأى أمامه فتى لا يتجاوز العشرين ربيعاً إلا بأيام
قليلة، فتى لا يزيد عمره عن عمر سيبل حين تركها وذهب يجول البحار.
فكيف يكون هذا الفتى الرجل الذي حطَّم حياتها! مستحيل.

فكف عنه قبضته وتراجع بسرعة قائلاً:
- يا إلهي! يا إلهي! لقد كدت أن أقتل نفساً بريئة.

وتنفس دوريان الصعداء وقال له في تحد:
- لقد كدت أن ترتكب جريمة منكرة يا هذا. فليكن هذا درسًا لك
رادعًا فلا تتولّى قصاص الناس بنفسك.

قال جيمس فثين بصوت متقطع:
- أرجو أن تصفح عني يا سيدي. لقد خدعتني كلمة عابرة سمعتها في
ذلك الوكر اللعين فجعلتني أتعقب رجلًا بريئًا.
فقال دوريان وهو ينصرف عنه:

- خير لك أن تعود إلى بيتك وأن تخفي ذلك المسدس والآن جاز عليك
المتاعب.

ووقف جيمس فثين على إفريز الشارع مذعورًا يرتجف كل جزء من
أجزاء جسمه. وبعد فترة قصيرة برز من الظلام ظل قائم كان يزحف
بجوار الحائط الذي بللته الأمطار، وخرجت إلى النور امرأة تسترق
الخطى، وأمسكت بذراعه فالتفت إليها فزعًا. وكانت المرأة هي البغي
التي كانت تحتسي الخمر عند البار.

واقترب وجهها الشاحب من وجهه وهمست في أذنه قائلة:
- لماذا لم تقتله؟ لقد عرفت أنك تطارده حين خرجت على عجل من
بار دالي. يا لك من أحمق! كان يجب أن تقتله فهو يحمل مالا كثيرًا وهو
أشد خطرًا من إبليس نفسه.

فأجاب جيمس فثين:
- ليس هذا بالرجل الذي أبحث عنه، وأنا لست قاطع طريق أسلب
الناس أموالهم. إنما أطلب الثأر، والرجل الذي أريد قتله لا بد أن يكون
في الأربعين من عمره، أما هذا الفتى فهو حدث صغير. شكرًا لله الذي
جعلني أتبيّن خطي.

ولكن المرأة ضحكت ضحكة تفيض بالمرارة وقالت في احتقار:
- كيف تقول إنه حدث صغير؟ إن هذا هو الأمير الساحر الذي حطّم

حياتي كما ترى منذ ثمانية عشر عامًا.

صاح بها جيمس فين:

- أنت تكذبين!

فرفعت يديها إلى السماء وقالت:

- بل أقسم أمام الله أنني ما قلت إلا الصدق.

- أتقسمين أمام الله؟

- نعم. فإن كنت كاذبة فليخرس الله لساني. إن الأمير الساحر أفجر

رواد هذا المكان. ولقد سمعت الناس يروون عنه أنه باع روحه للشيطان

في مقابل وجه جميل. فحين عرفته منذ ثمانية عشر عامًا كان كما هو الآن،

وهو لم يتغير إلا قليلاً، أما أنا فقد تغيرت.

ولمع في عينيها بريق الشهوة وهي تقول هذه العبارة الأخيرة:

- أتقسمين على ذلك؟

فأجابت بصوت خشن خرج من فمها القبيح:

- نعم أقسم على ذلك.

ثم قالت في استعطاف:

- ولكن لا تشي بي عنده، فأنا أخشى شره. هيا اعطني بعض المال

لأدفع أجر المبيت هذه الليلة.

فنزح جيمس فين ذراعه من قبضتها وهو يلعن واندفع إلى منعطف

الشارع باحثاً عن فريسته ولكنه لم يجد لدوريان جراي أثرًا. فلما تلفت

وراءه وجد أن المرأة قد اختفت كذلك.

الفصل السابع عشر

بعد أسبوع كان دوريان جراي جالسًا في صالون الموسيقى بقصر سلبي، يتحدث إلى دوقة مونماوث الجميلة التي نزلت في ضيافته مع زوجها الدوق وهو رجل في الستين من عمره بادي الإعياء. وكان الوقت وقت الشاي، وكان المصباح الضخم المغطى بالحرير، الموضوع على المائدة، يخرج منه نور رقيق يضيء أدوات الشاي بين أوان صينييه وقطع من فضة مطروقة، وكانت الدوقة على رأس المائدة، وذهبت يداها البيضاء وتتقلان برشاقة بين الفناجين، وهمس دوريان في أذنها بكلمة فابتسمت شفتاها الحمراء الممتلئتان. أما اللورد هنري فقد كان يتأملهما وهو مستلق على كرسي صُنع من فروع الشجر مكسو بالحرير. وعلى أريكة لونها كلون الخوخ جلست الليدي نابورو وتكلفت الإصغاء إلى كلام الدوق في وصف جعران برايلي إضافة إلى مجموعة جعارينه وذهب ثلاثة من الشبان في ملابس السهرة يقدمون الكعك إلى بعض السيدات وقد بلغ عدد الضيوف اثني عشر ضيفًا وكان ينتظر قدوم ضيوف آخرين في اليوم التالي.

ثم نهض اللورد هنري وسار إلى المائدة ووضع عليها فنجاناه قائلاً:
- فيم تتحدثان؟ أرجو يا جلاديس أن يكون دوريان قد حدثك عن مشروعني الذي وضعبته لأغير جميع الأسماء، فهو مشروع جميل.

فأجابت الدوقة وهي تنظر إليه بعينيها الساحرتين:
- ولكنني لا أحب أن أغير اسمي يا هاري فأنا راضية به وأعتقد أن مستر
جراي راض باسمه كذلك.

- إن اسمك يا عزيزتي جلاديس اسم جميل، وكذلك مستر جراي اسمه
جميل، ولن أقبل أن يدخل عليهما أي تعديل. إنما كنت أفكر في الأزهار
خاصة حين وضعت مشروعني لتغيير الأسماء. فبالأمس قطفت زهرة من
أزهار الأوركيد لأضعها في عروة سترتي، وكانت الزهرة رائعة المنظر
ذات نقط، لها فتنة الرذيلة وسحر الخطايا السبع، وفي لحظة طيش سألت
البستاني عما يسمونها فأجابني بأنها ضرب نادر من الروبنسويانا، أو ما
أشبه ذلك من الأسماء المنكرة. وقد تألمت لذلك أبلغ الألم وعرفت أننا
قد فقدنا القدرة على ابتكار الأسماء الجميلة. إن الأسماء هي كل شيء
يا عزيزتي جلاديس. وأنا لا أكثر قط لأفعال الناس، فكل ما يعنيني
هو أقوالهم، وهذا سر بغضي للابتذال الذي نجده في الأدب الواقعي.
والإنسان الذي يسمي الأشياء بأسمائها يفسد طعم الحياة.

فسألته الدوقة قائلة:

- إذا فماذا تحب أن نسميك يا هاري؟

قال دوريان:

- فلنسميه أمير النقائص.

قالت الدوقة:

- هذا اسم على مسمى.

فأجاب اللورد هنري ضاحكاً وهو يغوص في أحد المقاعد:

- أرجو أن أعفى من هذا الاسم. وإذا لم يكن هناك مفر من ماركة

مسجلة، فأنا أرفض هذا اللقب.

قالت الدوقة الجميلة محدثة:

- تذكر أن الملوك لا يملكون التنازل عن ألقابهم.

- تحبين أن أدافع عن عرشي؟

- نعم.

- أنا الكاشف عن حقائق الغد.

قالت الدوقة:

- ليتك كنت الكاشف عن أخطاء اليوم.

فصاح قائلاً وهو يجادلها بأسلوبها:

- أنت تجرديني من سلاحِي، يا جلاديس.

- أجردك من درعك لا من رمحك يا هاري.

قال بإشارة مؤدبة:

- أنا لا أسدّد رمحي إلى الجمال.

- هذا خطأ منك يا هنري، فأنت تبالغ في تقدير الجمال.

- هذا غير صحيح. فأنا أعترف حقاً بأنني أفضل الجمال على الخير،

ولكني أول من يفضل الخير على القبح.

قالت الدوقة:

- إذا فالقبح أحد الخطايا السبع القاتلة؟ وكيف يتفق ذلك مع قولك

بأن زهرة الأوركيد كانت تشبه الخطايا السبع القاتلة في جمالها؟

- بل القبح أحد الفضائل السبع القاتلة، يا جلاديس. وأنتِ وأشياعك

من الأرسقراط آخر من يحق له أن يتجاهل قيمة هذه الفضائل. فالبيرة

والكتاب المقدس والفضائل السبع القاتلة هي التي جعلت إنجلترا ما هي

عليه الآن.

فسألته قائلة:

- إذا فأنت تكره إنجلترا؟

- أنا أعيش في إنجلترا.

- لتفضح عيوبها بأمانة؟

فسألها قائلاً:

- أتحيين أن أقبل حكم أوروبا علينا؟
- وما حكم أوروبا علينا؟
- إن طرطوف⁽¹⁾ ملك المنافقين هاجر إلى إنجلترا ففتح فيها متجرًا.
- أهذا رأيك يا هنري؟
- قد تنازلت لك عنه.
- ولكنني لن أستطيع أن أعلن هذا الرأي بين الناس، فهو يصف الحقيقة.
- لا تخش شيئًا، فمواطنونا الكرام لا يفهمون الأوصاف.
- لأنهم قوم عمليون.
- بل لأنهم قوم ماكرون. وفي ميزانهم التجاري تعوض الثروة عن الغباوة، والنفاق عن الرذيلة.
- ولكننا أتينا بالعجائب رغم كل ذلك.
- بل أوتينا العجائب يا جلاديس، فقد فرضت علينا العجائب فرضًا.
- هذا جائز، ولكننا حملنا عبء المجد، وهو ثقيل.
- نعم، حملنا عبئه حتى البورصة، ثم تخلينا عنه.
- فهزت الدوقة رأسها وقالت:
- أنا أو من بساللتنا.
- إن ساللتنا لا تمثل بقاء الأصلح بل تمثل بقاء الأقوى.
- إنها تتقدم.
- ليتهنا تنحل. فالانحلال عندي خير من التقدم.
- قالت:
- وما رأيك في الفن.
- الفن مرض.

(1) طرطوف Tartuffe أو المنافق: اسم مسرحية شهير لموليير، عُرضت لأول مرة سنة 1664، وطرطوف هو الشخصية الرئيسية في المسرحية.

- وما رأيك في الحب؟

- الحب وهم.

- وما رأيك في الدين؟

- الدين هو الاسم الحديث للعقيدة.

- أنت إذا من الشُّكَّاء؟

- حاشا لله! فالشك مبدأ الإيمان.

- ما أنت إذا؟

- التعريف يفسد المعرف.

- أريد أن اهتدي إلى شخصيتك.

- إن خيوط الشخصية تتشابك، وسوف تضلّين في التيه.

- أنت تحيريني، ومع ذلك فلتتكلم عن شخص آخر.

- نعم، إن مضيفنا لموضوع شائق للحديث. منذ سنوات طويلة سُمّي

بالأمير الساحر.

فصاح دوريان جراي قائلاً:

- لا تذكرني بذلك.

أجابت الدوقة وقد اصطبغ وجهها بالدم:

- إن مضيفنا ضيق الصدر هذا المساء، وأظن أنه يعتقد أن مونماوث قد

تزوّجني لأسباب علمية، حين وجد فيّ أحسن نموذج من نماذج الفراش

الحديث.

قال دوريان ضاحكاً:

- أرجو ألا يضع فيك الدبابيس يا سيدتي الدوقة كما يضع الدبابيس

في فراشاته الأخرى.

- لا حاجة به إلى ذلك، فوصيفتي تغرس فيّ الدبابيس بنفسها كلما

غضبت مني يا مستر جراي.

- ولم تغضب ووصيفتك منك؟

- أوكد لك يا مستر جراي أنها تغضب لأتفه الأسباب. تغضب مثلاً حين أعود إلى المنزل في الساعة التاسعة ثم أقول لها إن عليّ أن أستبدل ثيابي قبل الثامنة والنصف.

- هذا تعنت منها! ويجب أن تنذريها بالطرد إن هي عادت إلى ذلك. - لست أجرؤ على ذلك يا مستر جراي فهي تبتكر لي قبعاتي. أتذكر القبعة التي لبستها في حفلة الليدي هيلستون؟ طبعاً أنت لا تذكرها ولكني أشكر لك ادعاءك أنك تذكرها. تلك القبعة صنعتها لي من لا شيء. إن جميع القبعات الجميلة تُصنع من لا شيء. فقطاعها اللورد هنري قائلاً:

- شأنها شأن السمعة الطيبة يا جلاديس. فكل أثر يتركه المرء في الوسط المحيط به يُكسب المرء عدوًا جديدًا، ولا سبيل إلى اكتساب قلوب الناس إلا بأن تكون من الأوساط التافهين. قالت الدوقة وهي تهز رأسها:

- هذا الكلام لا ينطبق على النساء، والنساء يحكمن العالم. وأنا أوكد لك أن أوساط الناس لا يكتسبون قلوب النساء، وقد قال حصيف إننا معشر النساء نعشق بأذانا كما تعشقون أنتم معشر الرجال بعيونكم، إن كنتم تعشقون.

فقال دوريان:

- يبدو لي إن العشق هو كل عملنا في الحياة. أجابت الدوقة وهي تتكلف الحزن:
- إذا كانت الحال كذلك فأنتم لا تعرفون الحب.

قال اللورد هنري:

- أنا احتجّ يا عزيزتي جلاديس، فالحب يحيا بالتكرار والتكرار يصقل الرغبة ويكسبها صفة الفن. إن الحب واحد مهما تعدد موضوعه. وفي كل مرة يحب القلب لا يبقى فيه إلا حب واحد. والتعدد لا يضعف الحب

بل يذكيه. فالحياة لا تتسع إلا للاختبار واحد عظيم، وسر السعادة أن نكرّر هذا الاختبار ما وجدنا إلى ذلك سبيلاً.

وسألته الدوقة بعد صمت قليل:

- وإذا كان الاختبار أليماً فهل نسعى إلى تكراره؟

أجاب اللورد هنري:

- بل يجب أن نسعى إلى تكرار الاختبار الأليم قبل سواه.

وتحول نظر الدوقة إلى دوريان جراي وبدا في محياها تعبير غريب

وسألته قائلة:

- ما رأيك في هذا الكلام يا مستر جراي؟

وتردد دوريان لحظة ثم دفع برأسه إلى الوراء وقال ضاحكاً:

- أنا أوافق دائماً على ما يقوله هنري يا سيدتي الدوقة.

- حتى إذا أخطأ؟

- هنري لا يخطئ يا سيدتي الدوقة.

- وهل جاءتك فلسفته بالسعادة التي تنشدها؟

- أنا لم أنشد السعادة في يوم من الأيام، فما بي حاجة إليها. إنما نشدت

اللذة.

- وهل وجدت اللذة يا مستر جراي؟

- نعم وجدتها. وجدت منها أكثر مما أحتمل.

وتنهدت الدوقة ثم قالت:

- أما أنا فأنشد الهدوء، وإذا لم أسرع باستبدال ثيابي، فلن أذوق طعم

الهدوء في هذه الليلة.

فنهض دوريان وسار إلى أقصى الصالون قائلاً:

- اسمحي لي أن أتيك ببعض أزهار الأوركيد يا عزيزتي الدوقة.

وقال اللورد هنري لابنة عمه الدوقة:

- إنك تغازلينه مغازلة مكشوفة وأنصحك أن تحتاطي فهو شخص فائن.

- لو لم يكن فاتناً لما كان هناك صراع.
- إذا فهذه معركة بين أخيل وأخيل.
- كلا، فأنا في جانب الطرواديين لأنهم حاربوا من أجل امرأة.
- وقد هُزموا.

فأجابت:

- السبي أهون ما في الحرب.
- إنك تركضين على جواد بلا زمام.

أجابت:

- هذا يحدد الحياة.

- سأدوّن هذا في يومياتي الليلة.

- وماذا ستكتب؟

- سأكتب أن الطفل يحب النار التي تحرق أصابعه.

- هذا غير صحيح، فأنا لم أكتب بعد، فكيف تقول إنني احترقت. وهذه

أجنحتي سليمة.

- أنت تستخدمين أجنحتك في كل شيء إلا الطيران.

- إن الشجاعة قد انتقلت من الرجال إلى النساء، وهذا اختبار لم نألفه.

- إن لكِ عزيمة.

- ومن تكون هذه؟

فضحك وقال:

- الليدي نابورو.

ثم همس في أذنها قائلاً:

- إنها تحبه إلى حد العبادة.

- أخشى أن يجذبه جمال الأطلال، فنحن الخياليين يُسحرنا القدم.

- ولكنك لست من الخياليات فأنت تملكين كل معدات العلم.

- لقد تعلمنا في مدرسة الرجال.

- نعم. لقد علمناكنّ ولكننا لم نفسر من طبيعتكن شيئاً.
قالت بتحدّ:

- ما رأيك فينا كجنس؟

- المرأة أبو هول بغير سر.

فنظرت إليه باسمة وقالت:

- لقد غاب مستر جراي طويلاً، فهيا بنا نساعدته على اختيار الأوركيد،
ولعله حائر في ما يختار لأنني لم أخبره بلون الفستان الذي سألبسه.

- فلتختاري الثوب الذي يناسب أزهاره.

- إن فعلت هذا كان ذلك تسليمًا مني قبل الأوان.

- ولكن الفن الخيالي يبدأ حيث يجب أن ينتهي.

- لا بد أن أحفظ لنفسني خط الرجعة.

- طبقاً لخطة موضوعة على طريقة البارثين؟

- لقد اعتصم البارثيون بالصحراء وأنا لا أستطيع أن أفعل ذلك.

فأجاب قائلاً:

- قد لا تجد النساء مجالاً للاختيار بين تراجع وتراجع.

ولكنه ما كاد يتم قوله حتى سمع أنّه مخنوقة آتية من أقصى الصالون،
وتلاها صوت جسم ثقيل يسقط مكتوماً فاضطرب كل من الغرفة، وثبتت
الدوقة في مكانها جزعي وشق اللورد هنري طريقه فزعاً بين الأشجار
المضطربة فوجد دوريان جراي مستلقياً على وجهه فوق البلاط في إغماء
يشبه الموت.

وحُمّل دوريان جراي إلى غرفة الاستقبال الزرقاء وهناك وُضع على
إحدى الأرائك. ثم أفاق بعد قليل وتلفت حوله زائغ العينين، وقال:

- ماذا حدث؟ نعم، تذكرت الآن ما حدث. أنا هنا في أمان يا هنري؟

وأخذت أوصاله ترتجف. فأجابه اللورد هنري قائلاً:

- لقد أغمي عليك يا عزيزي دوريان، هذا كل ما في الأمر فلا تجزع.

لا بد أنك أنهكت نفسك إنهاكًا بالغًا، ومن الخير ألا تتعشى معنا الليلة،
وسأملأ أنا مكانك في المائدة.

وغالب دوريان نفسه حتى استطاع أن يقف على قدميه وقال:
- بل سأتعشى معكم. نعم، إنني أفضل أن أتعشى معكم فليس من الخير
أن أبقى وحيدًا.

ومضى إلى غرفته وارتدى ملابس السهرة. ثم أخذ مكانه في صدر
المائدة وكان يبدو عليه المرح الشديد كأنه لا يبالي بشيء، ولكنه كان
يرتجف من وقت إلى آخر حين يفكر في أنه لمح وجه جيمس ثين شاحبًا
كأنه منديل أبيض ملتصقًا بزجاج النافذة في صالون الموسيقى.

الفصل الثامن عشر

وفي اليوم التالي لزم دوريان جراي داره بل لزم غرفته الشطر الأكبر من الوقت وكان يحس بفرع من الموت شديد، ومع ذلك فقد رخصت في نظره الحياة. وبدأ يحس بأنه مطارد، وبدأ يرى الفخاخ تُنصب حوله، وملأت هذه الفكرة شعاب عقله، فما اهتز في بيته ستار أمام الريح إلا اهتزت أوصاله، وشاهد أوراق الأشجار الذابلة تضرب زجاج نافذته المعشَّق بالرصاص فتذكره بنواياه الضائعة وأحزانه المبرحة. وحين أطبق جفنيه رأى وجه البحار من جديد يتتبع حركاته من وراء الزجاج المغطى بالضباب فخفق قلبه هلعًا.

ولكن لعل ما رآه كان طيفًا منتقمًا نسجه في الظلام وهمه، ولعل أشباح القصاص انطلقت من خياله المريض لترقص أمام عينيه وترعبه. إن الحياة الواقعية قوامها الفوضى، أما الخيال فمنطقي ومرتب، فالخيال هو الذي جعل الندم يتبع الخطيئة، والخيال هو الذي جعل لكل جريمة أحلامها المزعجة. وفي الحياة اليومية ينجو الأشرار من العقاب ويضيع على المحسنين الثواب، ويجني الأقوياء ثمار النجاح أما الضعفاء فلهم الخيبة وسوء المآل، وهذه قصة الحياة. فلتطمئن نفس دوريان جراي إذ لا قصاص إلا في خيال المذنبين. وإن الوجه الذي يراه من وراء الزجاج ليس إلا صورة في خياله المحموم، ولو أن رجلًا كان يتربص به خارج

المنزل لرآه الخدم لا محالة، ولو أن أقدامًا غريبة تركت آثارها في الحديقة لأخبره البستاني بأمرها. نعم، لم يكن ما رآه إلا نسج الخيال، وأخو سيبيل فین لا يتعقبه ليفتك به، فقد رحل في سفينته ولعله الآن غريق في بحر من بحار الجليد، وهو في مأمن منه، هو في مأمن من چيمس فین على الأقل. إن چيمس فین لم يعرف هويته ولم يستطع أن يعرفها، ولقد أنقذه قناع الشباب.

ولكن هب ما رآه دوريان جراي لم يكن إلا وهمًا، فما أقسى هذا الضمير الذي يملأ الدنيا بالأشباح المخيفة ويعطي للهواجس أجسادًا تراها العيون، ويجعلها تتحرك أمام الإنسان وأي جحيم هذا الذي قُدِّر له أن يعيش فيه إذا كانت أشباح القصص تتلصص عليه ليل نهار من الأركان الساكنة وتسخر به الدهاليز المهجورة، وتهمس في أذنه الويل والثبور في المآدب والحفلات وتوقظه من منامه بأصابع من جليد! وفيما يفكر في ذلك شحب لونه جزعًا وأحس فجأة بالهواء يلذعه ببرودة لم تكن فيه من قبل. لقد قتل صديقه في ساعة جنون، فأبي نجم دام عبوس ذلك الذي ارتفع في السماء وسلب منه لبه! ويا له من الذكرى فهي موجعة! وعادت إلى ذهنه تفاصيل تلك الليلة المشؤومة فخلعت فؤاده رعبًا، وخرجت عليه من كهف الزمن المظلم صورة جريمته في وشاح أحمر، وحين دخل عليه اللورد هنري في الساعة السادسة وجده ينتحب في مرارة وقد أوشك قلبه أن يتفطر.

ولم يجسر على الخروج من قصره إلا في اليوم الثالث. فالصباح النادر جميل عاطر بأريج أشجار الصنوبر رد إليه مرحة ورغبته في الحياة. ولم تكن الطبيعة وحدها هي التي أغرته بالخروج لأن طبعه تمرد على كل هذه الآلام المبرحة التي كدرت صفاء نفسه، فأصحاب المزاج الرقيق لا يحتملون المحن، وعواطفهم القوية إن لم تنحن أمام النكبات تنكسر، ولا يشفيهم إلا قتل النفس أو قتل الغير. وأصحاب العواطف التافهة يحبون

ويشقون فحبهم مديد وشقاؤهم مديد، أما أصحاب العواطف الجبارة فغرامهم الجبار يذبح نفسه لأنه مارد عملاق وكذلك أحزانهم الجبارة. ولقد أفتع دوريان جراي نفسه بأن الرؤى التي رآها لم تكن إلا زيفاً من عمل خياله السقيم، ونظر إلى مخاوفه نظرة لا تخلو من الرثاء والاحتقار. وبعد أن تناول فطوره خرج إلى الحديقة وتحدث إلى الدوقة ساعة أو بعض ساعة ثم ركب عربته وقطعت به المنتزه ليلحق بجماعة الخارجين إلى الصيد. وكان الصقيع الهش يغطي الحشائش كأنه الملح المشور وبدت السماء كأنها كأس مقلوبة صنعت من معدن أزرق وطففت طبقة رقيقة من الجليد على سطح البحيرة الساكنة التي نما فيها البوص.

ووقع بصره على السير چفري كلوستون، أخي الدوقة، عند ركن الغابة الصنوبرية فرآه يقذف بخرطوشتين فارغتين من بندقيته. فوثب خارجاً من العربة وأمر السائس أن يعود بالمهر إلى القصر ثم سعى إلى أضيافه شاقاً طريقه بين الأعشاب الشيطانية والشجيرات الخشنة. قال:

- أوجدت صيداً طيباً يا چفري.

- كلا يا دوريان، وأظن أن أكثر الطيور ذهبت إلى الخلاء. واعتقد أننا سنصادف توفيقاً أعظم بعد الغداء حين نغير المكان.

وسار دوريان وچفري جنباً إلى جنب. وشاع في نفس دوريان إحساس جميل بالحرية حين قرصه الهواء العاطر ورأى الأنوار الحمراء والأنوار البنية تلمع في بطن الغابة وسمع أصوات العمال الخشنة تعلو بالصياح وهم يضربون الأغصان لتخرج منها الطيور. وكان خلي البال سعيداً مشرق النفس مقبلاً على الحياة.

وفجأة أبصر أرنباً منتصب الأذنين أسودهما يقفز على بعد عشرين ذراعاً بين الأعشاب الذابلة بعد أن تحفز على رجليه الخلفيتين واندفع الأرنب صوب دغل من الأدغال، فرجع السير چفري ببندقية إلى كتفه وهَمَّ بأن يطلق عليه النار لولا أن دوريان جراي ارتاع لرشاقة حركته فصاح

بصاحبه قائلاً:

- لا تقتله يا چفري. دعه يعيش.

فضحك صاحبه وقال:

- ما هذا الكلام الفارغ يا دوريان!

وفيما كان الأرنب يقفز داخلًا الدغل أطلق عليه النار، ارتفعت صرختان، صرخة أرنب جريح وصرخة رجل مصاب.

صاح السير چفري قائلاً:

- يا للسموات! لقد أصبت أحد الحراس. إن وقوفه أمام البنادق غباوة شديد. لا تطلقوا النار فقد أصيب أحد الرجال.

وجاء رئيس الحراس يعدو حاملاً بيده عصا، وصاح:

- أين يا سيدي؟ أين؟

وتوقّف إطلاق النار بطول الخط. وأجاب السيد چفري غاضبًا وهو يسرع نحو الدغل:

- في هذا المكان. لم لا تبعد أتباعك عن مرمى النار؟ ها أنت قد أفسدت شهيتي للصيد في هذا الصباح.

وأنشأ دوريان يتأملهما وهما يدخلان الدغل ويبعدان الأغصان عن طريقهما. وبعد لحظات خرجا وهما يجران جثة رجل من الدغل إلى العراء. ولم يحتمل دوريان جراي أن يرى هذا المنظر فأشاح بوجهه، وخيل إليه أنه يجلب الرزايا أينما سار. وسمع السير چفري يسأل رئيس الحراس عما إذا كان الرجل قد مات فعلاً وسمع رئيس الحراس يجيبه بالإيجاب. وخيل إليه فجأة أن الغابة يسكنها ألف شبح وسمع ألف قدم تلك الأرض بوطنها وطنًا في أذنه همس كثير. وجاء طائر صدره نحاسي اللون ورُفرف بين الأغصان فوق رؤوسهم.

ومرت لحظات خالها دهورًا من الآلام في حالته المضطربة تلك، وفي النهاية أحس بيد ترتكز على كتفه فانتبه من غفلته وتلفت حول فإذا

اللورد هنري قد جاءه يقول:

- لعل من الأصوب يا دوريان أن أقول لضيوفك إن الصيد قد انتهى اليوم عند هذا الحد. فاستمراهم لن يحدث أثراً طيباً في الناس.

أجاب دوريان بمرارة:

- ليته ينتهي إلى الأبد يا هاري، فهذا هو إجرامي بشع. والرجل، هل... ووقفت الكلمة في حلقه، فأجابه اللورد هنري:

- نعم يا دوريان، مات الرجل، فقد أصابه الرش كله في صدره ولا بد أن يكون قد مات فوراً. هيا بنا، فلنعد إلى البيت.

وسار الرجلان جنباً إلى جنب صامتين نحو خمسين ذراعاً في اتجاه الطريق الظليل، ثم التفت دوريان إلى اللورد هنري وتنهَّد من أعماقه وقال:

- هذا نذير شؤم يا هاري، هذا نذير شؤم.

فسأله اللورد هنري قائلاً:

- ماذا تقصد؟ أتقصد الحادثة؟ لا تبتسئ يا صديقي فلم يكن هناك سبيل لتفاديها. لقد كان الخطأ خطأ الحارس فهو الذي وقف في مرمى النار. ثم إن الأمر لا يهمنا، لأن چفري هو المسؤول عن الحادث بطبيعة الحال. ومن الخطأ أن ندلل الحراس وإلا حسبك الناس مهملاً في الرماية، وما چفري بمهمل فهو يحسن التصويب. ولكن دعنا من هذا الموضوع فالكلام فيه لا ينفع.

وهز دوريان رأسه قائلاً:

- إن هذا نذير شؤم يا هاري. وأنا أحس بأن شراً ما سيحيق بأحدنا... بي أنا مثلاً.

وفيما هو يقول ذلك مر بأصابعه على عينيه في ألم واضح.

وضحك اللورد هنري وقال:

- إن الشر الوحيد في العالم هو الملل يا دوريان. والملل هو الخطيئة

الوحيدة التي لا تغتفر. ولكن الممل لن يصيب أمثالنا، اللهم إلا إذا رأى ضيوفك أن يتحدثوا في موضوع هذا الرجل أثناء الغداء. وسوف أخبرهم بأن الكلام في هذا الموضوع محرّم عليهم. أما النذير الذي تتحدث عنه فلا وجود له لأن القدر لا يرسل لنا الرُّسل لتحذرننا بل يأخذنا على غرة. ولعل هذه حكمة منه ولعلها إجرام. ثم إنك بمأمن من كل شر يا دوريان، ولقد أوتيت كل ما في الدنيا من أسباب السعادة وليس بين الناس من لا يقبل أن يستبدل مكانه بمكانك.

- بل ليس بين الناس من لا أقبل أنا أن أستبدل مكانه بمكاني يا هنري. وكفأك ضحك، فما قلت غير الحق. إن الحارس المسكين الذي قتل منذ هنيهة أسعد مني حالاً. وأنا لا أخاف الموت ولكني أخاف مقدم الموت، وأحس بجناحيه الشيطانيين يطنان حولي في هذا الهواء الثقيل. انظر يا هنري! ألا ترى رجلاً يتحرك خلف الأشجار متربصاً بي؟

فالتفت اللورد هنري إلى الناحية التي أشارت نحوها يده المرتجفة ذات القفاز. ثم قال مبتسماً:

- نعم أرى البستاني واقفاً في انتظارك وأحسب أنه يود أن يسألك عن الأزهار التي تريده أن يضعها على المائدة هذا المساء. إن أعصابك متوترة إلى حد بعيد يا دوريان، وهي توحى لك بأسخف الخيالات، وأنصحك أن تستشير طبيبي حين يعود إلى لندن.

ورأى دوريان البستاني يتقدم منه فعاد إليه هدوءه. وهمّ الرجل برفع قبعته تحية لسيده ونظر إلى اللورد هنري في تردد لحظة أو لحظتين ثم أخرج من جيبه خطاباً وسلمه إلى دوريان قائلاً:

- إن سيدتي الدوقة تنتظر الرد على هذا الخطاب.

ووضع دوريان الخطاب في جيبه وقال في برود:

- قل لسيدتك الدوقة إنني سألحق بها.

وانصرف الرجل مسرعاً وسار في اتجاه القصر.

قال اللورد هنري ضاحكًا:

- ما أشد كلف النساء بالأعمال الغريبة يا دوريان! إن هذه هي الصفة الوحيدة التي تعجبني فيهن. والمرأة تغازل أي رجل في العالم إذا تأكدت من أن هناك من يراها.

- وما أشد كلفك بالأقوال الغريبة يا هنري! وأعتقد أنك مخطئ هذه المرة، فأنا أميل إلى الدوقة أشد الميل ولكنني لا أحبها.

- والدوقة تحبك أشد الحب ولكنها لا تميل إليك، فأتما كما ترى يكمل أحدكما الآخر.

- أنت تنشر الفضيحة بهذا الكلام يا هنري، والفضائح لا أساس لها في الواقع.

فأجاب اللورد هنري وهو يشعل سيجارة:

- أساس كل فضيحة ليس الشك الأخلاقي بل اليقين الذي يتنافى مع الأخلاق.

- إنك تضحني بأي مخلوق في مقابل قول طريف.

فأجاب اللورد هنري قائلاً:

- أنا لا أضحني أحدًا لأن الناس يسرون إلى المذبح من تلقاء أنفسهم. قال دوريان وفي صوته رنة من الحزن العميق:

- ليتني أستطيع أن أحب، ولكن يبدو لي أنني قد قتلت العاطفة ونسيت الرغبة. فأفكاري كلها مركزة في نفسي وشخصيتي قد أصبحت عبثًا عليّ ثقيلًا. فكيف الهرب من هذه الأنا، وكيف النسيان؟ أظن أنني سأبرق إلى هارفي طالبًا إليه أن يعد اليخت لي، ففي اليخت أكون بمأمن من الخطر. - أي خطر هذا الذي لا تفتأ تتحدث عنه؟ لا بد أنك في محنة، ويجمل بك أن تفضي إليّ بكل شيء، فأنت تعرف أنني سأقف إلى جانبك.

أجاب الفتى في حزن:

- لا أستطيع أن أفضي إليك بشيء يا هنري، ثم إن هذا الخطر الذي

يتهددني قد يكون خطرًا وهميًا. إن هذه الحادثة المشؤومة قد أثارت أعصابي وأنا أحس بأن مكروهاً من هذا النوع سينزل بي.
- دع عنك هذه الخزعبلات!

- أرجو أن تكون هذه خزعبلات حقًا، ولكنني أفكر فيها برغمي انظرا! ها هي الدوقة مقبلة علينا وهي تبدو كالإلهة ارتيميس لابسة چاكتة تاير. لقد عدنا من الصيد يا عزيزتي الدوقة.
أجابت:

- نعم يا مستر جراي، لقد علمت بما حدث وچفري المسكين في اضطراب شديد وقد قالوا لي إنك سألته ألا يطلق النار فما أغرب هذه المصادفة.

- نعم. إنها لمصادفة عجيبة، ولا أستطيع أن أفسرها. ولعلها نزوة طارئة فقد كان الأرنب آية في الرشاقة وربما عزَّ عليَّ أن يُقتل. مهما يكن من شيء فيؤسفني أنك علمت بخبر هذا الرجل، فالموضوع كله بغيض.
قال اللورد هنري:

- نعم، إنه لموضوع ممل، وليست له أية قيمة من الناحية النفسية فلو أن چفري قتله عامدًا لاستحق أن نهتم له كل هذه الاهتمام. وكم أحب أن أعرف رجلاً ارتكب جريمة قتل حقيقية.
فصاحت الدوقة قائلة:

- هذه وحشية منك يا هنري. ألا توافقني على ذلك يا مستر جراي؟ إن مستر جراي قد عادت إليه النوبة يا هنري، وها هو يوشك أن يدركه الإغماء.

وجمع دوريان أشتات قوته المتخاذلة وقال مبتسمًا:

- لا تنزعجي يا عزيزتي الدوقة، فما بي مرض. كل ما في الأمر أن أعصابي منهكة، فقد أسرفت في السير هذا الصباح. ماذا قال هنري؟ إنني لم أسمع كلماته، فهل قال شيئًا فظيعةً؟ لا بد أن تعيدي عليَّ ما قاله هنري

في مناسبة أخرى أما الآن فاعتقد أن من الأصوب أن أستريح. هل تأذنان لي بالانصراف؟

وسار اللورد هنري والدوقة حتى بلغا درجات السلم الكبير التي تؤدي إلى الشرفة من صالون الموسيقى، وبعد أن أفضلا الباب الزجاجي بينهما وبين دوريان نظر اللورد هنري إلى الدوقة بعينه الناعستين وسألها قائلاً: كم تحبين دوريان؟

فلم تجب. ومرت دقائق لم يقل أحد فيها شيئاً ووقفت الدوقة تتفرّس في الطبيعة المترامية أمامها ثم أجابت أخيراً: ليتني كنت أعلم.

قال اللورد هنري وهو يهز رأسه:

- العلم يفسد كل شيء، فاحتفظي بهذا الشك لأن في الشك سحرًا خاصًا وقليل من الضباب يزيد جمال الحياة.
- وماذا أفعل لو تهت في الضباب؟

- لن تتهيي يا عزيزتي جلاديس فكل الطرق تؤدي إلى نقطة واحدة.
- وما هي هذه النقطة؟

- الاستفاقة إلى الحقيقة.

قالت وهي تنهد:

- لقد بدأت حياتي بهذه الاستفاقة.

- وقد جاءتك الاستفاقة متوجة في شخص دوق.

- لقد تعبت من أوراق الغار.

- إنها تناسبك.

- في الحفلات الرسمية فقط.

قال اللورد هنري:

- لو نزلت عنها لافتقدتها في مستقبل الأيام.

- لن أنزل عن ورقة واحدة منها.

- ولكن موناوث له أذنان.

- الشيخوخة سمعها بطيء.

- ألم تُثر غيرته قط؟

- يا ليتها ثارت.

وتلقت اللورد هنري في كل مكان باحثًا عن شيء فسألته قائلة:

- عمَّ تبحث؟

- عن زرار سقط مني.

- ولكن قناعي لم يسقط بعد.

أجاب اللورد هنري:

- وهو يزيد عينيك سحرًا.

فضحكت ثانية وبدت أسنانها كالحبوب البيضاء في فاكهة حمراء.

وكان دوريان جراي مستلقيًا على أريكة في غرفته بالطابق العلوي

مرتجف الأوصال ينهشه الفزع. وأحس فجأة بأن حياته قد أصبحت

عبئًا ثقيلًا لا سبيل إلى احتماله. وموت الحارس المسكين الذي سقط

في الغابة قتيلًا كأنه حيوان بري، بدا له كنبوءة بموته. ولقد كاد أن يصيبه

الإغماء حين سمع ما قاله اللورد هنري عرضًا من باب العبث.

ولما بلغت الساعة الخامسة دق الجرس واستدعى خادمه وأمره بأن

يحزم أمتعته استعدادًا للرحيل إلى لندن باكسبريس الليل، وأن يُعدّ له عربته

في الساعة الثامنة والنصف، فقد قرّر ألا ينام ليلة أخرى في سلبي، ذلك

القصر المشؤوم الذي مشى الموت في كنفه في رابعة النهار، وخضّبت

الدماء حشائش غاباته.

ثم سطر رسالة كتبها إلى اللورد هنري معتذرًا بأنه راحل إلى لندن

ليستشير طبيبه، سائلًا إياه أن ينوب عنه في القيام بواجب الضيافة نحو

أصحابه أثناء غيابه. وفيما هو يضع الرسالة في غلاف طرق الباب خادمه

وأخبره بأن رئيس الحراس يطلب مقابله. فعبس دوريان وعض شفثيه

وقال بعد تردّد قليل:

- ادخله.

ولما دخل رئيس الحراس أخرج دوريان دفتر الشيكات من أحد الأدراج وفتحها قائلاً:

- أظنك جئت لتحدثني في شأن الحادثة الأليمة التي وقعت هذا الصباح يا ثورنتون.

أجاب الحارس:

- نعم يا سيدي.

قال دوريان وقد بدا عليه الملل:

- أكان هذا الرجل متزوجاً؟ أكان يعول أحدًا؟ إذا كان يعول أحدًا فلست أحب أن يتعرض عياله للفاقة، وسأرسل لهم أي مبلغ من المال تراه أنت كافيًا.

- لم نتعرّف على شخصيته يا سيدي، وهذا ما دفعني إلى إزعاجك الآن.

قال دوريان في فتور:

- وكيف كان ذلك؟ ألم يكن القتيل رجلًا من رجالك؟

- كلا يا سيدي، وأنا لم أراه قبل اليوم، ويلوح لي أنه بحار يا سيدي.

فسقطت الريشة من يد دوريان جراي، وأحس بقلبه يتوقف عن الخفقان، وصاح قائلاً:

- بحار؟ أتقول إنه بحار؟

- نعم يا سيدي، إن مظهره يدل على أنه بحار ففي ذراعيه وشم، وعليه سمات البحارة.

فمال دوريان جراي إلى الأمام وأخذ يتفرّس في الرجل منزعجًا ثم

قال:

- ألم تجدوا معه ما يثبت شخصيته أو يدل على اسمه؟

- وجدنا بعض النقود يا سيدي، ووجدنا مسدسا ذا ست طلقات، ولكننا لم نجد اسمه، ومرآه يدل على أنه رجل فاضل، ولكن عليه سيماء الخشونة، ونحن نظن أنه بحار.

ونفض دوريان واقفاً وداعب خاطره أمل شيطاني فلم يغير الموضوع بل قال في إصرار:

- أين وضعتم الجثة؟ لا بد أن أراها فوراً.

- إنها في مزود الخيل الفارغ بالحقل يا سيدي.

وضعناها هناك لأن أهل القرية رفضوا أن يقبلوها في منازلهم قائلين إن الجثث تجلب الشؤم.

- إقصد إلى الحقل فوراً وانتظرنى هناك وقل للسائس أن يأتيني بجوادي.. ولكن من الأفضل أن أمضي بنفسى إلى مزود الخيل ففي هذا توفير للوقت.

لم تمضي ربع ساعة حتى كان دوريان جراي يركض على فرسه في الطريق الظليل بسرعة قصوى، وكانت الأشجار على جانبيه تبدو له وهو ينهب الأرض نهباً كأنها صفان من الأشباح، ورأى ظلالها الماردة ترتمي في طريقه فيطؤها وطئاً. وانحرفت به الفرس مرة عند عمود أبيض فكادت أن تلقيه أرضاً. وأخذ يضربها بسوطه على عنقها فمزقت الهواء كأنها السهم المنطلق، وطار من وقع حوافرها الأحجار.

وأخيراً بلغ العربة فوجد رجلين يتسكعان في الفناء، وترجل وسلم عنان الفرس إلى أحدهما، ولمح نوراً ينبعث من آخر مزود فهتف به هاتف إن الجثة ملقاة فيه وأسرع إلى بابه ووضع يده على المزلاج.

ثم تردّد قليلاً وأحس بأن يوشك أن يكشف عن حقيقة عظمى قد تنقذه من محنته، وقد تودي بما بقي له من هناء. ثم دفع الباب ودخل.

وفي نهاية المزود رأى جثة رجل ميت يلبس قميصاً خشناً وبنطلوناً أزرق ممدّدة على كومة من الخيش، ورأى منديلاً عليه نقط يغطي وجه

الرجل، ورأى شمعة من النوع الرديئ مثبتة في عنق زجاجة تبصق نارها بجانب الجثة.

وشاعت في جسده رعشة، وعرف أن قواه سوف تخونه إن هو تقدّم لرفع المنديل، فنادى على أحد الفلاحين ولمّا دخل الرجل قال له وهو يعتمد على الباب حتى لا يتهافت:

- اكشف وجه هذا الرجل، فأنا أريد أن أعرف من يكون.

ورفع الفلاح المنديل عن وجه الرجل وتقدّم دوريان جراي خطوات، وحين تبيّن وجه الميت لم يستطع أن يكتف صيحة الفرح الذي مشى في بنيانه فلقد عرف أن الرجل الذي سقط في الغابة قتيلاً لم يكن إلا جيمس فين.

وثبت في مكانه بضع دقائق متفرّساً في الجثة. ثم اعتلى فرسه وعاد أدراجه إلى داره، وفي الطريق فاضت عيناه بالدموع، دموع الفرح، وغمره الفرح، فرح السلامة.

الفصل التاسع عشر

قال اللورد هنري وهو يضع أصابعه البيضاء في إناء من النحاس الأحمر مملوء بماء الورد:

- لا تحاول أن تفهمني يا دوريان إنك ستصبح رجلًا صالحًا. إنك على غاية ما يرام كما أنت الآن فلا تحاول أن تغيّر من طبيعتك.

فهز دوريان جراي رأسه وأجاب:

- كلا يا هاري. لقد أتيت في حياتي كثيرًا من الذنوب المخجلة ولن أضيف إلى قائمة جرائمك شيئًا بعد الآن. وقد بدأت حياتي الجديدة أمس بفعل الخير.

- وأين كنت أمس؟

قال اللورد هنري وهو يتسّم:

- اسمع يا عزيزي دوريان. إن أي إنسان يستطيع أن يكون صالحًا في الريف، لأن الريف خالٍ من أسباب الغواية. وهذا هو السر في أن الناس الذين يعيشون بعيدًا عن المدينة متأخرين في المدنية. فالمدينة ليست شيئًا سهل المنال إطلاقًا. وهناك طريقتان لا تالفة لهما يصل بهما الإنسان إلى المدنية، الأولى هي الثقافة، والثانية هي الانحطاط. وأهل الريف لا سبيل لهم إلى الثقافة أو إلى الانحطاط. ولذا تراهم يتعفنون من فرط الركود.

قال دوريان:

- أنت تتحدّث عن الثقافة والانحطاط، ولقد أصبت من كليهما شيئاً
مذكوراً. ويبدو لي الآن أن اجتماعهما في شخص واحد وخيم العاقبة،
فقد اتخذت لنفسني مثلاً أعلى جديداً يا هاري، وقرّرت أن أغير من
طبعي، بل اعتقد أنني قد غيرت من طبعي فعلاً.

ووضع اللورد هنري بعض الشليك⁽¹⁾ ذي البذور في طبقه ورش عليه
بعض السكر الناعم من ملعقة ذات ثقب تشبه المحارة في هيبتها، وقال:
- أنت لم تخبرني بعد بالعمل الصالح أو الأعمال الصالحة التي قمت
بها أمس.

- سأقص عليك ما حدث لأنك تعلم أكثر أسراري، وهي قصة لا
أستطيع أن أطلع عليها أحداً غيرك. وقعت في يدي فريسة ولكنني لم
أفتك بها بل تركتها وشأنها. ولقد يبدو لك ذلك فخراً حيث لا موضع
للفخر ولكنك تفهم ما أقصد إليه. عرفت فتاة تدعى هيتي بارعة جميلة
وفيها شبه قوي من سيبل فين. وأعتقد أن هذا الشبه هو الذي جذبني
إليها أول الأمر. أنت تذكر سيبل دون شك؟ لقد مضت على حكايتها
أيام طويلة كأنها دهور. مهما يكن من شيء فقد كانت هيتي من طبقة غير
طبقتنا بطبيعة الحال، ولم تكن غير فتاة قروية ساذجة، ولكنني أحببتها من
أعماق قلبي. نعم لست أشك في أنني أحببتها. وقد دأبت على الخروج
إلى الريف للقائهما مرتين أو ثلاث مرات من كل أسبوع طوال شهر مايو
الجميل الذي سعدنا به هذا العام. وقد قابلتها البارحة في بستان صغير،
وبينما نحن جالسان كانت الأزهار تتساقط من شجرة التفاح فوق شعرها
فتضحك. وقد وضعنا الخطة لنهرب معاً هذا الصباح عند انبلاج الفجر،
ولكنني قرّرت فجأة أن أتركها كما وجدتها طاهرة كالزهرة البيضاء.

فقاطعه اللورد هنري قائلاً:

(1) الفراولة.

- أعتقد أن هذه العاطفة الجديدة التي لمّا تألفها قط ملأتك بإحساس اللذة الحقيقية يا دوريان. ولكني أستطيع أن أتم هذه القصة الغرامية نيابة عنك، لقد زودتها بالنصائح الأخلاقية وكسرت قلبها. وهكذا بدأت حياتك الصالحة.

- ما أقساك يا هنري! أرجوك أن تقلع عن قول هذه العبارات الساخرة. فقلب هيتي لم ينكسر، وكل ما هنالك أنها بكت وتألّمت.. إلى آخره، ولكني تركتها نقية كما وجدتها وهي تستطيع أن تعيش الآن كبرديتا⁽¹⁾ في حديقتهما بين أوراق النعناع وأزهار الأقحوان.
قال اللورد هنري ضاحكًا وهو يغوص في مقعده:

- وتبكي على فلوريزيل⁽²⁾ عاشقها الخائن. إن لك يا عزيزي دوريان نزوات صبيانية لا أفهمها.

أتحسب أن هذه الفتاة سترضى الآن برجل من طبقتها؟ كلا ولعلها تتزوَّج في يوم من الأيام بحوذي فظّ أو فلاح عبّوس، ولكنها ستحتقر زوجها وتعيش في شقاء لأنها عرفتك وأحببتك. فمن الناحية الأخلاقية لست أرى في توبتك العظيمة ما يستحق الإكبار. بل إن البداية نفسها بداية سيئة. ثم ما أدراك بأن هيتي ليست الآن طافية على وجه بركة ساكنة انعكست فيها نجوم السماء، تحيط بها أقاحي الماء مثل أوفيليا صاحبة هاملت⁽³⁾؟

- هذا لا يُحتمل يا هنري، فأنت تمزّق كل شيء إربًا بتهكّمك اللاذع ثم تتزوَّج كل شيء بمأساة فظيعة من نسج خيالك. وإني لأسف على الإفضاء لك بما حدث، ولم يعد حكمك يهمني لأنني واثق بأنني قد فعلت ما فيه

(1) شخصية في مسرحية «حكاية شتاء» لشكسبير.

(2) شخصية في المسرحية نفسها، وهو الأمير الذي يقع في غرام برديتا.

(3) أوفيليا وهاملت شخصيتان في مسرحية شكسبير الشهيرة «تراجيديا هاملت، أمير الدنمارك».

الخير. يا لهيتي من فتاة مسكينة! فيما كنت عائداً على جوادي هذا الصباح مررت بالحقل ورأيت وجهها في نافذة بيتها أبيض كباقة الياسمين. كفى حديثاً في هذا الموضوع، وإياك أن تحاول أن تقنعني بأن القليل من إنكار الذات الذي أبديته لأول مرة في حياتي هو في الواقع خطيئة جديدة، فأنا أريد أن أهدب من طبيعتي، بل إنني لمهدبها مهما كانت الظروف. فلتحدثني الآن عن نفسك. حدثني عن لندن وما يجري فيها فأنا لم أزر النادي أياماً وأياماً.

- إن أعضاء النادي لا يزالون يتحدثون عن اختفاء بازيل المسكين.

قال دوريان عابساً وهو يصب بعض النبيذ في كأسه:

- حسبتهم قد سئموا الكلام في هذا الموضوع بعد هذه الأسابيع الطويلة.

- إنهم لم يتحدثوا في هذا الموضوع إلا ستة أسابيع يا عزيزي دوريان والجمهور في بريطانيا أغبى من أن يتحدث في أكثر من موضوع واحد كل ثلاثة أشهر ولقد كان حظه لا بأس به في الأيام الأخيرة، فقد وجد قصة طلاقي أنا، وقصة انتحار آلان كامبل، ثم لغز اختفاء أحد الفنانين. وسكوتلانديارد لا تزال تصر على رأيها القائل بأن الرجل الذي سافر إلى باريس بقطار منتصف الليل لابساً معطفاً رمادياً كبيراً هو بازيل المسكين، والبوليس الفرنسي لا يزال يقول إن بازيل لم يصل إلى باريس أصلاً. وأعتقد أننا سنسمع بعد أسبوعين أن بازيل قد شوهد يتجول في شوارع سان فرانسكو. وهذا شيء غريب ولكن كل ما يختفي يقال إنه يُشاهد في سان فرانسكو فلا بد أن تكون سان فرانسكو مدينة جذابة فيها كل مغريات العالم الآخر.

فسأله دوريان وهو يرفع نبيذه البورغوني إلى النور ويتأمله عاجباً من

قدرته على الكلام في موضوع بازيل هولورود دون انزعاج:

- كيف تعلق اختفاء بازيل؟

- ليست لدي أية فكرة عن هذا الموضوع. فإذا كان بازيل يرى إخفاء نفسه عن الناس فهذا ليس من شأنى، وإذا كان قد مات فلست أحب أن أفكر فيه. فالموت هو الشيء الوحيد الذي يرعبني وأنا أمقته مقتًا شديدًا.

قال دوريان في إعياء:

- ولم تكره الموت؟

أجاب اللورد هنري وهو يدني من أنفه علبة قارورة للعطور مفتوحة مخططة بماء الذهب:

- لأننا نستطيع في هذه الأيام أن نقهر كل شيء إلا الموت. نعم الموت والابتدال هما كل ما بقي من القرن التاسع عشر من ظواهر لا نستطيع تفسيرها وإزالتها. هيا نتناول قهوتنا في صالون الموسيقى يا دوريان. وأرجوك أن تعزف شيئًا من شوپان فأنا أتوق إلى سماعه. إن الرجل الذي هربت معه زوجتي كان يعزف موسيقى شوپان بمهارة لا تُجارى. يا لفكتوريا المسكينة! كم كنت أميل إليها! إن البيت يبدو مهجورًا بعد أن تركته ولا شك أن الحياة الزوجية مجرد عادة، عادة سيئة، ولكن الإنسان يأسف على فقدان عاداته، حتى الخبيثة منها. بل لعل الإنسان يأسف على فقدان عاداته الخبيثة قبل أن يأسف على فقدان عاداته الحسنة، لأن العادات الخبيثة جزء متمم لشخصية الإنسان.

لم يجب دوريان بشيء بل نهض من مكانه في المائدة ومضى إلى الغرفة المجاورة وجلس أمام البيانو وترك أصابعه تجول بين مفاتيحه العاجية البيضاء ومفاتيحه العاجية السوداء. وجاءت القهوة فتوقف عن العزف ثم نظر إلى اللورد هنري وقال:

- اسمع يا هنري ألم يخطر لك قط أن بازيل مات قتيلاً؟

فتساءب اللورد هنري وقال:

- إن بازيل كان محبوبًا من الجميع، فما الداعي إلى قتله؟ وهو لم يكن ذكيًا فيكون له أعداء. أنا لا أشك في عبقريته كرسام، ولكنك تستطيع أن

تكون لك مهارة فيلاسكيز⁽¹⁾ في الرسم وتبقى رغم ذلك نموذجًا للغباوة. ولقد كان بازيل في الواقع على شيء من الغباوة، ولم أجد في تفكيره ما أثار اهتمامي إلا مرة واحدة، أعني حين باح لي منذ سنوات طويلة بأنه يحبك حبًا يقرب من العبادة وبأنك النفس الجبار الذي يلهم فنه.

قال دوريان في وجوم:

- وأنا كذلك كنت أحب بازيل حبًا جمًّا. ولكن ألا يقول الناس إنه مات مقتولًا يا هنري؟

- نعم. هذا ما تقوله بعض الصحف، ولكنني أستبعده. صحيح أن باريس ملأى بالأوكار الجهنمية ولكن بازيل لم يكن بالرجل الذي يتردد عليها. فالفضول عنده كان ميتًا، وهذا كان عيبه الرئيسي.

قال الشاب:

- لو أنني قلت إنني قتلت بازيل فماذا تقول يا هنري؟

ثم أخذ يتفرّس في اللورد هنري ليري وقع كلماته في نفسه.

- أقول إنك تحاول أن تمثل شخصية لا تناسبك يا صديقي. فالجريمة بكل أنواعها مبتذلة كما أن الابتذال بكل أنواعه جريمة. وليس في طبيعتك ارتكاب الجرائم يا دوريان. أقول هذا راجيًا أن تغفتر لي جرحي لكبريائك، ولكنني أؤكد لك أن الإجرام ليس في طبعك. الإجرام امتياز خاص تملكه الطبقة الدنيا في المجتمع، وأنا لا ألوم أبناء هذه الطبقة على ذلك، فالإجرام عندهم يقوم مقام الفن عندنا، أي أنه وسيلة لإشباع الحواس بالاختبارات غير المألوفة. هذا ما أتصوره أنا على الأقل.

- وكيف يكون هذا؟ أتعتقد إذا أن من قتل مرة يستطيع أن يقتل ثانية؟

قال اللورد هنري ضاحكًا:

- إن أي عمل قد يصبح مصدر لذة إذا اكتسب قوة العادة، وهذا سر

(1) ديجو فيلاسكيز (1599-1660): رسّام إسباني، يعتبر من أشهر رسّامي الباروك.

من أهم أسرار الحياة. على أنني أعتقد أن القتل خطأ مهما كانت ظروفه. فالإنسان يجب ألا يفعل شيئاً يتأفف من الكلام فيه بعد العشاء. ولكن دعنا من موضوع بازيل المسكين. ليتني أستطيع أن أحمل نفسي على الاعتقاد بأنه انتهى هذه النهاية المثيرة للخيال كما تقول، ولكنني عاجز عن ذلك. وإذا كان بازيل قد مات فعلاً فأرجح أنه سقط من الأتوبيس في نهر السين مثلاً وأن الكمساري نجح في إخفاء هذه الحقيقة. نعم، أرجح أن نهايته كانت شيئاً من هذا القبيل. وإني لأتصوره الآن مستلقياً على ظهره في قاع ذلك النهر الأخضر المنطفي، وقد اشتبكت في شعره الأعشاب الطويلة وطفت من فوقه الزوارق الكبيرة. وإني أعتقد يا دوريان أن فنه كان في اضمحلال مستمر في السنوات العشر الأخيرة ولم يكن يرجى منه أن ينتج شيئاً آخر ذا قيمة حقيقية.

وتنهّد دوريان وقطع اللورد هنري أرض الغرفة وأنشأ يداعب رأس بيغاء جاءه من جاوه، وهو طائر هائل أشهب الرياش وردي الصدر والذيل يقف على غصن من الخيزران. وحين مسّته الأصابع الدقيقة أغمض جفنيه المتكسرين على عينيه السوداوين اللتين تشبهان الزجاج وبدأ يتأرجح يمنة ويسرة. ثم التفت اللورد هنري إلى الخلف وأخرج من جيبه قائلًا:

- نعم، إن فنه قد انحط، ويبدو أن شيئاً ضاع منه. يبدو أن المثل الأعلى ضاع منه. وحين فترت الصداقة بينكما خمدت جذوة فنه، فماذا فرّق بينكما يا دوريان؟ أظن أنه أضجرك بمواعظه وتفاهاته؟ إذا كان الأمر كذلك فلا بد أنه ألقى عليك اللوم دائماً، فهذه عادة الناس المضجرين. وبهذه المناسبة يا دوريان، ماذا كان مصير تلك الصورة الرائعة التي رسمها لك؟ أظن أنني لم أرها منذ أن أتم بازيل رسمها. أذكر أنك قلت لي منذ سنوات عديدة إنك أرسلتها إلى قصر سلبي وفي الطريق اختفت، ضاعت أو سرقها سارق. ألم تستردها يا دوريان؟ إن ضياعها لشيء محزن، فقد

كانت صورة من بدائع الفن الخالدة. وإني لأذكر أنني رغبت في شرائها، وباليمني اشتريتها فهي من إنتاج بازيل إبان عنقوانه الفني. ولقد صار منه منذ أن رسم تلك الصورة مزيجاً من الأسلوب الركيك والنوايا الطيبة وهو المزيج الذي يؤهل صاحبه في كل عصر لأن يكون فناناً بريطانياً من الطراز الأول. قل لي: أعلنت عن ضياع الصورة؟ إن كنت لم تعلن بعد فالواجب يقضي عليك بأن تفعل ذلك.

قال دوريان:

- لست أذكر يا هاري، ولكنني أرجح أنني أعلنت عن ضياعها، وإن كنت لم أحبها قط، بل إنني لأسف على أنني سمحت لبازيل أن ينقلها عني، وذكراها تثير في نفسي أبغض الخواطر. لم تتحدث عنها؟ لقد كانت تذكرني ببيت من الشعر في مسرحية من المسرحيات، أعتقد أنها مسرحية «هاملت» كانت تذكرني بهذا البيت:

هي صورة الأحزان،

هي وجه بلا قلب.

نعم يا هاري، هذا وصف صادق لتلك الصورة.

وضحك اللورد هنري وأجاب وهو يغوص في مقعده:

- لو أن رجلاً عامل الحياة معاملة فنان لقام عقله مقام قلبه.

ولم يجب دوريان جراي بل هز رأسه وعزف لحناً حنوناً على البيانو

وأنشأ يردد:

هي صورة الأحزان،

هي وجه بلا قلب.

واستلقى اللورد هنري إلى الوراء وأغمض جفنيه قليلاً وأدمن النظر

إلى دوريان ثم قال بعد صمت قليل:

- ما رأيك يا دوريان في قول المسيح «ماذا يستفيد الإنسان لو خسر

روحه وربح العالم أجمع؟».

واضطرب اللحن، والتفت دوريان جراي إلى اللورد هنري منزعجًا
وحملت فيه طويلًا ثم قال:

- لم تسألني هذا السؤال يا هاري؟

قال اللورد هنري وهو يرفع حاجبيه دهشة:

- سألتك هذا السؤال لأنني حسبت أنك قد تعرف الجواب عليه. هذا
كل ما في الأمر يا صديقي. ففي يوم الأحد الفائت كنت أمرُّ في هايد پارك،
ولما كدت أبلغ الماربل آرتش رأيت نفرًا من الناس قليلًا، ثيابهم رثة،
يستمعون إلى واعظ تافه من وعاظ الشوارع. وفيما أنا أمرُّ بهذه الجماعة
سمعت الواعظ يطرح هذا السؤال على سامعيه، وقد خيل إليّ أن في
المشهد الذي رأيته قوة مسرحية بليغة. إن لندن ملأى بمثل هذه الظواهر
الغريبة ومن المألوف أن تخرج كما خرجت في يوم مطير من أيام الأحد
فترى مسيحيًا خشن المنظر يرتدي معطفًا من الجلد ومن حوله اجتمع
رهط من الناس وجوههم شاحبة فوق رؤوسهم مظلات مبللة تنحدر
عليها مياه المطر، وتسمع عبارة بليغة يطلقها في الهواء صوت عصبي
حاد. لقد كانت الكلمة جميلة على طريقتها الخاصة، وكانت تحمل معنى
قويًا. وقد عنّ لي أن أجيب على سؤال هذا النبي الصغير قائلًا بأن للفن
روحًا، أما الإنسان فلا روح له. ولكنني خشيت ألا يفهم معنى كلامي،
فمضيت لحالي.

- لا تشك في وجود الروح يا هنري، فالروح حقيقة رهيبة لا مرأى فيها،
وهي تُباع وتُشترى وتُستبدل بثمن الأشياء، وهي تقبل أن تسمّم وهي تقبل
أن تهذب. إن في كل منا روحًا، وأنا على يقين من ذلك.

- أنت واثق تمامًا من وجود الروح يا دوريان؟

- تمام الوثوق.

- لا بد إذا أن تكون الروح وهماً. فكل ما نشق فيه لا أساس له من
الصحة. وهذه مأساة الإيمان وهذه عظة الخيال. لم كل هذا الوجود يا

دوربان؟ هيا انفضه عنك. هذه تُرّهات العصر ونحن لا نكثر لها. نعم، لقد تخلينا عن إيماننا بالروح. هيا اعزف لي شيئاً على البيانو، اعزف لي ليلية من ليليات شوبان⁽¹⁾ يا دوربان، وقص عليّ بصوت مهموس كيف استطعت أن تحتفظ بشبابك. لا شك أن لديك سرّاً تصون به الجمال، فأنا أكبرك بعشر سنوات لا غير ومع ذلك تراني مغضن الوجه متعب الجسد شاحب اللون. أما أنت يا دوربان فتمودج للجمال الحي، وما رأيتك قط أشد فتنة مما أنت الآن، فأنت تذكّرني الليلة بيوم لقائنا الأول. لقد كنت يومئذ شديد الخجل لا مثيل لك في الدنيا. ولقد تغيرت، ولكن في شخصيتك لا في مظهرك. وليتك تبوح لي بهذا السر العظيم الذي يديم عليك الشباب، فأنا على استعداد لأن أفعل أي شيء لأسترد شبابي، إلا أن أصحو مبكراً أو أقوم بالتمارين الرياضية أو أصطنع مظهر الرجل المحترم. فياليت الشباب يعود، فهو النعمة الأولى في هذه الحياة. ومن السخف أن يتحدث الناس عن حماقة الشباب فأنا لا أقيم وزناً لرأي أحد إلا إذا كان يصغرنى بسنوات عديدة. إنني أرى الشبان يتقدمون الكهول من أمثالي، لأن الحياة قد كشفت لهم عن أحداث عجائبا وضلت به علينا. أما الشيوخ فأنا أختلف معهم في كل شيء، وهذه سنة أتبعها، فلو أنك سألتهم عن رأيهم في شيء وقع بالأمس رددوا لك الآراء التي كانت منتشرة في عام 1820، أيام أن كان الناس يلبسون الجوارب حتى الركبة، ويؤمنون بكل ما يقال لهم ويجهلون كل شيء في الوجود. ما أعذب هذا اللحن الذي تلعبه يا دوربان، لعل شوبان وضعه وهو في ميوركا وهو يسمع البحر ينتحب حول بيته وماء المالح يلطم زجاج نافذته. كم يحرك هذا اللحن خيالي يا دوربان. يجب أن نشكر الآلهة يا دوربان على أنها

(1) مجموعة من 21 مقطوعة موسيقية للبيانو، ألفها فريدريك شوبان بين عامي 1827 و1846، والليلية هو اسم للمقطوعة الموسيقية المستوحاة من الليل. وهو نوع قديم من الموسيقى، وشوبان هو من أعاد إحياءه مرة أخرى.

أبقت لنا فناً واحداً لا يقوم على التقليد. استمر يا دوريان فنسي تحن إلى الموسيقى هذه الليلة. ويبدو لي أنك أبولو الإله الصغير وأني مارسياستمع إليك. إن نفسي حزينة، وأحزانها خبيثة لا يعرف عنها أحد شيئاً حتى أنت يا دوريان. إن مأساة الشيخوخة ليست في شيخوختنا ولكن في شبابنا. هذا قول صادق أقوله مخلصاً وأعجب لإخلاصي في القول. وما أسعدك يا دوريان بهذا الشباب الذي لا ينضب، وما أجمل حياتك، فلقد شربت من كل شيء حتى الثمالة، ولقد عصرت عناقيد السعادة على لسانك فما أبقيت منها شيئاً، ولقد عرّت الحياة صدرها أمامك ولم تستر عنك شيئاً، ومع ذلك فقد جاءتك السعادة مجيء لحن جميل بعيد فلم تفقد توازنك، ولم تفسد طبيعتك. ثم صمت للحظات وأردف:

أجل. أنت لم تتغير رغم كل ما مرّ بك.

- ولكنني تغيّرتُ يا هاري!

- كلا. أنت لم تتغير بل بقيت على حالك. ترى كيف تكون حياتك المستقبلية؟ مهما يكن من شيء فلا تفسدها بالتوبة. أنت الآن نموذج للكمال، فلا تنتقص من نفسك يا دوريان. أنت الآن سالم من كل خدش أو عطب. لا تهز رأسك فأنت تعرف أنني صادق في ما أقول. ولا تخدع نفسك يا دوريان، فالحياة لا تخضع للإرادة أو للنوايا، ولكنها تخضع للأعصاب والألياف والخلايا التي تنمو ويبدأ رويداً وتختبئ فيها الأفكار وينسج القلب أحلامه، ولقد تخال نفسك بمأمن من صوت الماضي ولقد تحسب نفسك حديدي الإرادة ولكنك في الواقع خاضع لأنفه الأمور. لون تراه صدفه في غرفة من الغرف أو صفاء تراه في السماء ذات صباح أو عطر كنت تحبه في يوم من الأيام يعود إليك بخفيّ الذكريات، أو بيت من قصيدة منسية أو تنغيم بقي لك من لحن قديم، مثل هذه الأشياء تتوقف عليها حياتنا يا دوريان. لقد كتب براوننج شيئاً بهذا المعنى. ولكننا لسنا بحاجة إلى شعره لفهم ذلك، فحواسنا لها قدرة التصور. ولقد يهب في

أنفي أريج اليلج الأبيض فأبقى شهرًا كاملًا سجين الذكريات وأعود
بخلدي إلى أغرب شهر مرَّ بي في حياتي. ليتني كنت مكانك يا دوريان.
إن المجتمع شائثي وشائتك، ولكن المجتمع يعبدك ولا يعبدني. ولسوف
يمضي المجتمع في عبادتك فأنت نموذج لكل ما يصبو إليه العصر وكل ما
يخشاها من حقائق الحياة. وإنني لمغتبط بأنك لم تخرج من نفسك فتنتحت
تمثالاً أو ترسم صورة أو تنتج أي شيء تنزل فيه عن جزء من شخصيتك.
لقد كانت الحياة فنك، فكان كل يوم يوم من أيام عمرك لحن جميل.

ونفض دوريان من مكانه أمام البيانو ومرَّ بأصابعه خلال شعره وقال:
- نعم. لقد كانت حياتي الماضية جميلة، ولكن حياتي المستقبلية
لن تكون كحياتي الماضية يا هاري. وأنا أسألك ألا تردّد على مسامعي
هذه الأقوال الطنّانة فأنت لا تعرف بعض نواحي حياتي، ولو قد عرفتها
لانصرفت عني. ها أنت ذا تضحك، ولكنني أرجوك ألا تضحك.

- لم توقفت عن العزف يا دوريان؟ عد إلى البيانو والعب هذه الليلية
مرة أخرى. وانظر إلى القمر الكبير ترّ لونه كلون الشهيد، انظر إليه وهو
معلّق في السماء الظلماء ترّ أنه ينتظر منك أن تسحره بألحانك. فعد إلى
اللعب يقترب القمر من الأرض. أراك تصر على رفضك. إذا فهيا بنا إلى
النادي حيث نختم هناك الليلة الجميلة ختامًا جميلًا. إن في نادي هوايت
فتى مشوقًا إلى التعرف بك هو اللورد پول الشاب وهو الابن الأكبر للورد
بورنموث، وقد بدأ فعلاً بتقليد ربطات الرقبة التي تلبسها، ورجاني رجاء
حارًا أن أقدمه إليك. وسوف تجد فيه أنيسًا مسليًا، ولا أكتمك أنه يذكرني
بك إلى درجة ما.

قال دوريان في حزن:

- أرجوك ألا يكون هذا صحيحًا. ولكنني الليلة متعب يا هاري ولن
أستطيع الذهاب إلى النادي. لقد أوشكت الساعة أن تبلغ الحادية عشرة،
وأنا أفضل أن أوي إلى فراشي مبكرًا.

- أرجوك أن تبقى معي يا دوريان، فأنا لم أسمعك قط تلعب بهذا الحنان وبهذه المهارة، ولقد كان أسلوبك أقوى تعبيرًا منه في أي وقت مضى.

فأجاب دوريان وهو يبتسم:
- ذلك لأنني قرّرت أن أقلع عن الشر، ولقد تغيّرتُ فعلاً كما ترى ولو بقدر قليل.
قال اللورد هنري:

- ولكن علاقتنا لن تتغيّر يا دوريان، وصادقتنا لن يصيبها شيء.
- أنت نسيت أنك سمّمت أفكارني بكتاب أرسلته إليّ ولا يصح أن أغتفر لك ذلك. فعذني يا هنري بالأ تعير هذا الكتاب لأحد فهو خبيث الأثر.

- أرى أنك قد بدأت تعظ الناس فعلاً في ما تجيزه الأخلاق وما لا تجيزه. وسوف تصبح بعد قليل كأولئك التائبين وأصحاب حركة إحياء الدين المسيحي، تسير في الناس محدّراً إياهم من الخطايا التي شبت منها حتى زهدت فيها. فلا تفسد شخصيتك الجميلة بهذا العبث ثم إنك لم تنجح في ذلك مهما حاولت فأنت وأنا باقيان على حالنا ولن نتغيّر في المستقبل. أما قولك بأن كتابي سمّمك فهذا لغو لأن الفن لا أثر له في سلوك الإنسان، وإن كان له أثر في سلوك الإنسان فهو أنه يشلّ الرغبة في العمل. الفن عقم جميل. والكتب التي ينعتها الناس بأنها منافية للأخلاق هي التي تشكف للإنسانية عن عوراتها. هذا كل ما في الأمر. ولكن دعنا الآن من حديث الأدب، سأنتظرك غداً، وأنا خارج للترهة سأخذك إلى دار الليدي برانكسوم حيث نتغدى على مائدتها، فهي سيّدة لطيفة المعشر، وتحب أن تستشيرك في بعض المنسوجات المصوّرة التي ترغب في شرائها. لا تنس أن تأتي، وإن كنت تفضّل أن نتغدى مع الدوقة الرشيقة كان بها. إنها تقول إنك قد احتجبت عنها تمامًا في هذه الأيام

الأخيرة، فلعلك قد مللتها كما كنت أتوقع، فمهارتها في الحديث تتعب الأعصاب، على أية حال تعال في الساعة الحادية عشرة ولتتصرف بعد ذلك كما نشاء.

- وهل هناك ضرورة لمجيئي غدًا يا هنري؟

- نعم، بلا جدال فهاید پارك في هذه الأيام في أجمل حلة وفيه من البنفسج ما لم أره منذ أن قابلتك أول مرة.
قال دوريان:

- إذا سأكون هناك في الحادية عشرة، فإلى اللقاء يا هنري.

وبلغ الباب ثم تردّد قليلاً كأن بنفسه شيئاً يريد أن يبوح به لصاحبه، ولكنه تنهد وخرج.

الفصل العشرون

كان الليل ساجياً فحمل دوريان جراي معطفه على ذراعه إذ لم تكن به إليه حاجة؛ كذلك لم يحتمل أن يضع كوفيته الحريرية حول عنقه، وسار قاصداً بيته وكان يدخن. وفيما هو سائر مر به شابان يلبسان ثياب المساء، وسمع أحدهما يقول للآخر: «هذا هو دوريان جراي» وتذكر دوريان جراي أيامه الخاليات حين كان يعتبط إذا أشار الناس إليه أو حملقوا فيه أو تحدّثوا عنه. أما الآن فقد مجَّ كل ذلك وأصبح يسوءه أن يسمع اسمه يتردد. وكان يرتاح إلى القرية، قرية هيتي التي أكثر من زيارتها في الأسابيع الأخيرة، لأنه كان مجهولاً فيها. وكم من مرّة قال لتلك الفتاة التي ساقها إلى حبه سوقاً إنه رقيق الحال لا يملك من متاع الدنيا شيئاً فصدقته. ولقد ذكر لها مرّة إنه مخلوق شرير فضحكت وقالت إن المخلوقات الشريرة لا بد أن تكون دميمة الخلقة طاعنة في السن. نعم ضحكت ملء رثيها ورنت ضحكتها كأنها زقزقة عصفور. كم كانت هيتي جميلة في ثيابها القطنية وقبعاتها الكبيرة! ولم يكن علم هيتي كثيراً ولكنها لم تكن بحاجة إلى العلم، فقد اجتمع لها كل ما ضاع منه من فضائل.

ولما بلغ بيته وجد الخادم في انتظاره، وصرفه لينام ثم تمدد على أريكة بالمكتبة، وبدأ يفكر في بعض ما قاله اللورد هنري.

هل سيعجز حقاً عن تغيير طبيعته كما زعم اللورد هنري؟ إن به شوقاً

أكلًا إلى صباه الطاهر الطير، إلى صباه الذي أشبه بياقة من الورد الأبيض والورد الأحمر، بلغة اللورد هنري. إنه يعلم أنه لو تُث نفسه، وأفسد عقله وشحن خياله بالأشباح المخيفة. وهو يعلم أنه كان ينشر الانحطاط حوله أينما ذهب، وأنه كان يسرّ بذلك سرورًا عظيمًا، وأنه كان ينتخب من رفاقه أذكارهم وأصلحهم للحياة فيلقي بهم في أتون الشر كأنه إبليس الرجيم، ويجردهم من الشرف. ولكن هل فات الأوان حقًا؟ وهل ضاع كل أمل في التوبة؟

لقد أخذته الغرور مرّة وأعماه حب الدنيا فصلّى إلى الآلهة أن تجعل الصورة تحمل أوزار حياته وأن تبقي له على شبابه الناضر إلى يوم يموت. وقد كان. وهكذا بدأت مأساة حياته فيا ليت ذنوبه حفرت على وجهه آثارها النكراء وشوّهته أولًا بأول ولو قد حدث هذا لجاء عقابه آجلا سريعًا رادعًا، وفي القصاص تطهير للنفس الآثمة. ولخير للإنسان أن يصلي أمام عدالة الله قائلاً: «أبانا الذي في السموات ابطش بنا لذنوبنا» من أن يصلي قائلاً: «أبانا الذي في السموات! اغفر لنا ذنوبنا».

وكانت المرأة العجيبة التي أهداها إليه اللورد هنري منذ سنوات طويلة لا تزال قائمة على المائدة، وكانت رسوم كوييد التي تزينها لا تزال تضحك كما كانت تضحك قديمًا. وتناول دوريان جراي المرأة، تناولها كما تناولها في تلك الليلة العصبية حين لاحظ التغيير الذي أدرك الصورة المشؤومة، ونظر إلى خياله فيها بعين زائغة دامعة. وذكر الكلمات الوثنية التي كتبها إليه عاشقة مجنونة في خطاب محموم: «إن العالم يتغيّر لأن الآلهة صاغت من عاج وذهب: إن خطوط شفيتك تكتب التاريخ من جديد». عادت هذه الكلمات إلى خاطره فرددها خاطره المرة تلو المرة، ثم سئمت نفسه جمال وجهه فقذف بالمرأة على الأرض وداس عليها بقدمه فهشمها إلى شظايا تلمع كقطع الفضة. لقد حطم هذا الجمال حياته وأجهز شبابه على سعادته، ولولا جماله وشبابه لعاش أبيض الصفحة لا

يعرف الدنس. إن جماله لم يكن إلا قناعاً وشبابه لم يكن إلا حلة مسمومة فماذا أفاد من الشباب؟ زمان الصبوات المتلفة والثمار الفجة، والعواطف السطحية المريضة. لقد فسد دوريان جراي وما أفسده إلا شبابه.

ولكن كان من الخير ألا يفكر في الماضي، فما كان كان، ولن تمحوه قوة على الأرض أو في السماء. فليفكر إذاً في نفسه وفي مستقبله. إن جيمس ثين راقد في قبر بغير شاهد في فناء كنيسة سلمي. إن آلان كامبل قد أطلق النار على نفسه ذات ليلة وهو في معمله، ولكنه لم يُح بسرهما لأحد. ولسوف تسكن الضجة التي أثيرت حول اختفاء بازيل هولورد عمًا قريب، بل لقد خفتت فعلاً. إذاً فهو سالم لا يخشى افتضاحاً. ولكن اضطرابه لم يأت من تفكيره في موت بازيل هولورد. لقد كان اضطرابه من إحساسه بأنه ميت حي في روحه. إن بازيل رسم له صورة قضت على حياته، ولن يغتفر له تلك الإساءة. نعم. كل ما نزل به سببه تلك الصورة. إن بازيل أباح لنفسه أن يزرجه زجرًا لا يحتمل، ومع ذلك فقد احتمل ما قاله بازيل بصبر عظيم. إن قتل بازيل كان في لحظة جنون استولى عليه. أما آلان كامبل فقد قتل نفسه بيده، وهو الذي شاء أن يموت، فكيف يُسأل دوريان جراي عنه؟

إلى الحياة الجديدة إذاً، فالحياة الجديدة هي ما تصبو إليه نفسه، ولقد بدأ هذه الحياة الجديدة فعلاً. أولم يظفر بفريسة بريئة ثم يطلقها؟ إن نفسه لن تسول له بعد الآن أن يلوث زهرة نقية. إن نفسه تطلب عمل الخير. وفيما هو يفكر في هيتي مرتون اتجهت أفكاره إلى الصورة القائمة في الغرفة المقفلة، وخطر له أنها لا بد أن تكون قد تغيرت، فمحال أن تحتفظ الصورة بكل بشاعتها بعد أن فعل ما فعل مع هيتي. وأخذ يحلم بالتوبة وأثرها في اللوحة، فظن أنه لو طهر نفسه من آثامها إثمًا بعد إثم لاستطاع أن يمحو من الصورة كل ما فيها من معالم الشر وأن يرد إليها الرونق المفقود. بل ما يدريه أن الصورة لم تتغير فعلاً وأن معالم الشر لم

تزل عنها؟ إذا فليفحصها لفوره.

وحمل المصباح القائم على المائدة ودب دباً خفيفاً إلى الغرفة العليا. وشد المزلاج وهو يتسم ابتسامة الفرح وداعبت خياله الخواطر الجميلة فأضاء وجهه الدائم النضرة فهو لن يفزع بعد اليوم من مرأى الصورة لأنه تائب، ولأن الصورة الممسوخة سوف تسجل توبته كما سجلت إجرامه. وأحس بالراحة الكبرى.

ودخل في هدوء، وأفل الباب وراءه كعادته، ونزع الستار الأرجواني فكشف اللوحة. وخرجت منه صيحة المتألم وصيحة الغاضب في وقت واحد ذلك لأنه لم يرَ في الصورة التحوّل المنشود، فكل ما وجد فيها بريق في العينين هو بريق المكر والتواء في الشفتين ينم عن النفاق: لقد كانت الصورة كما تركها آخر مرة، مسخاً حياً، بل لعل مسخها اشتد إن كان قد بقي فيها مجال لذلك. ورأى البقعة الحمراء التي تلتطخ اليد أشد أحمراراً مما كانت ورأى فيها آثار دم جديد. ومشت في أوصاله رعدة فقد تذكر ما قاله اللورد هنري. إن اللورد هنري زعم أن غروره قد ساقه إلى فعل الخير، أفهذا صحيح؟ إن اللورد هنري زعم أن رغبته في الحصول على لون جديد من ألوان الإحساس هي التي دفعته إلى فعل الخير. أفهذا صحيح؟ لعله كان يمثل دوراً سامياً لا حباً في السموبل حباً بالتمثيل. لعل هذه العوامل مجتمعة هي التي ألهمته أن يفعل ما فعل. ثم البقعة الحمراء التي تلتطخ أصابعه الشوهاء. كيف اتسعت هذه البقعة الحمراء. وشاهد على قدميه آثار دماء كأنما سالت القطرات من يده قطرة قطرة. كذلك اليد الأخرى التي لم تمسك بالمديّة شاهد عليها دماء. ترى ما معنى هذا؟ الاعتراف؟ هل يراد له أن يعترف، أن يسلم نفسه إلى العدالة؟ وضحك دوريان جراي، لأنه علم أن هذا محال. ولو أنه اعترف لما صدّقه أحد. فأين جثة القتيل؟ لا أثر لها. أين أشياؤه؟ لا أثر لها. لقد أحرقها دوريان جراي بنفسه ولو أنه تجوّد على الناس بهذه القصة لظنه الناس مخبولاً.

ولو أنه أصرَّ على دعواه لأودعوه في مستشفى المجاذيب. ولكن الواجب يقضي عليه بأن يعترف، وبأن يعلن على الناس عاره، وأن يكفّر أمام الناس عما اقترفت يدها. فالله يأمره أن يعترف أمام الأرض كما يعترف أمام السماء، ولن يغسل عنه خطاياها إلا أن يعترف بها. وما هي خطاياها؟ إن موت بازيل هولورود لم يزعجه كثيرًا، لأنه يفكر في هيتي ميرتون. يا لها من مرآة خائنة، هذه المرأة التي يرى فيها روحه! أكان غروره أم فضوله أم رباؤه هو الذي دفعه إلى توبته المزعومة؟ ألم يكن في توبته ذرة واحدة من الإخلاص؟ نعم لقد كان في توبته شيء من الإخلاص، أو هذا ما كان يتوهمه قبل أن يرى الصورة. ترى من يستطيع أن يدلّه على الحقيقة؟ الصورة. والصورة تقول إن توبته لم يكن فيها ذرة واحدة من الإخلاص. فهو لم يفتك بهيتي ميرتون إلا لإرضاء لغروره، وهو قد لبس قناع التقوى من باب الرياء، وهو قد جرّب إنكار الذات من باب الفضول. هذه هي الحقيقة، وهو يدركها الآن.

ولكن ما سبيله إلى الخلاص من آثار جريمته، وهل قتله بازيل هولورود مطارده بقية حياته؟ وكيف يفعل بماضيه؟ أويحمل عبئه دائمًا، دائمًا؟ وهل هناك ما يلزمه بالاعتراف؟ كلا. فلم يبقَ من الأدلة التي تدينه إلا دليل واحد، وهذا الدليل هو الصورة؛ فلندمّر الصورة تدميرًا. ترى ماذا حمله على الإبقاء عليها كل هذا الزمن؟ لقد كان في وقت من الأوقات يجد لذة في تتبع التغيّر الذي يطراً عليها، ولكنه فقد هذه اللذة أخيرًا. ولكم أرتقت الصورة جفنيه ولكم امتلأ جزعًا كلما غادر لندن خشية أن تقع عليها عينان. لكم أوحى له الصورة بالأفكار السوداء ولكم هيّجت فيه الأحزان. لقد كانت الصورة عنده بمثابة ضميره الحي، ما في ذلك شك. فليحطم ذلك الضمير الذي يفسد عليه طعم الحياة.

وتلفّت حوله فرأى المدينة التي قتل بها بازيل هولورود. كم غسل هذه المدينة ومسحها حتى لم يبق عليه أثر الدم! رأها تلمع. إنها المدينة التي

قتلت الرّسام، فلتقتل إذا عمل الرّسام، ولينته بذلك الأمر. فلتقتل المدية الماضي، وحين يموت الماضي ينعم دوريان جراي بحريته مرّة أخرى. ولولا هذه الروح اللعينة الحيّة في الصورة لوجد الطمأنينة الكاملة. فلتزهق إذا هذه الروح اللعينة الحيّة. وأمسك دوريان جراي بالمدية وطعن بها الصورة.

وارتفعت صرخة وعقبها سقوط جسم.

وكانت الصرخة مفاجئة حتى لقد أيقظت الخدم من نومهم وانسلوا خارجين من غرفهم ليقفوا على ما كان. وكان بالميدان رجلان عابران سمعا الصرخة العالية. فتوقفا عن المسير ونظرا إلى البيت الكبير في ارتياب، ثم مضيا يبحثان عن شرطي، وعادا بالشرطي إلى البيت. ودق الشرطي الجرس عدة مرات، فلم يتلقَ جوابًا وكان البيت مظلمًا ليس فيه مظهر من مظاهر الحياة إلا النور المنبعث من النافذة العليا. وبعد قليل انصرف الشرطي ووقف عند مدخل بيت مجاور، وأنشأ يتربّح الحوادث.

وسأله أحد الرجلين قائلاً: بيت من هذا؟

فأجاب الشرطي:

هذا بيت دوريان جراي يا سيدي.

وتبادل الرجلان النظر وعبسا ثم انصرفا. وكان أحدهما عم السير هنري أشتون.

وفي داخل البيت كان الخدم المذعورون في ملابس النوم يتهامسون وكانت المدبّرة العجوز مسز ليف تبكي وتعصر يديها عصراً. وكان فرانسيس شاحباً شحوب الأموات.

وبعد ربع ساعة خف الحوذي وأحد الخدم إلى فرانسيس وصعدوا جميعاً إلى الغرفة العليا بخطى واجفة. وطرقوا الباب فلم يجبهم مجيب. ونادوا على سيدهم فلم يجبهم مجيب. وحاولوا أن يقتحموا الغرفة عنوة ولكن الباب كان عنيّداً، فلما يسّوا تسلّقوا إلى السطح ومنه نزلوا إلى

الشرفة ودفعوا النوافذ فلانت مزاليجها البالية .

ودخلوا الغرفة فشاهدوا على الحائط صورة رائعة لسيدهم، وقد سجّلت جماله الفذ وشبابه الناضر. وعلى الأرض شاهدوا رجلاً ميتاً في ثياب السهرة. وقد غارت في قلبه مديّة. وكان الرجل مغضّباً الوجه يابس البدن كرية الملامح. ولم يتبينوا هويّته إلا بعد أن فحصوا الخواتم التي يلبسها.